من اسرار الحرب

هتلر الغازي



منشورات دار المكشوف

سلسلة الثقافة السياسية

صدر منها :

١ — النصارى في الشرق
٢ — الوحدة العربية
٣ — الاسلام حيال الدول العظمى
٤ — مشكلة المضايق
٥ — الاستعمار في ديار الاسلام
٦ — تركيا بين جبارين
٧ — اوروبا والاسلام
٨ — الباكستان دولة اسلامية في الهند

يصدر منها تباعاً :

الانكليز في بلاد العرب
الاحزاب السياسية في الولايات المتحدة
القوى السياسية في العالم : النصرانية ، الاسلام ، اليهودية
عقدة ايران امس واليوم
القضايا الكبرى في السياسة العالمية
ما هي السياسة ؟
كيف تنشأ الدول ؟

الطبعة الاولى ، بيروت — لبنان ، تموز ١٩٤٧

من اسرار الحرب

هتلر الغازي

نقله الى العربية بتصرف

باسيل دقاق

عن

ريمون كارتيه

منشورات دار المكشوف

هتلر في وثائق نورمبرغ

لم يكن العالم حتى سنة ١٩٤٥ يعرف هتلر معرفة حقيقية تامة لاسباب عديدة، منها ان الصور التي رسمها له بعض الكتاب كهرمان شوشنغ وغيره جاءت ممسوخة وفيها كثير من الخيال مما حمل الناس على تقبلها بتحفظ وشك . ولقد كان محظوراً على دور النشر الالمانية اذاعة شيء عن طبيعة الفوهرر واخلاقه . اما الصحافيون الاجانب الذين اتيح لهم مقابلة هتلر فقد رسموا له صورة من وراء منظار ميولهم واغراضهم السياسية . بقي اقرباء الزعيم الالماني واصدقاؤه ، فقد تلقولى الامر بالصمت واعتصموا به . وعلى هذا لم يكن العالم يعرف هتلر الا من خلال كتابه « كفاحي » الذي رسم فيه الفوهرر الالماني صورة لنفسه بيده .

على ان هتلر احاط نفسه بالاسرار ولم يكن يتكلم عن شخصه بخلاف موسوليني . ولعل ما قيل عن تعاسته في شبابه والسنين الاربع التي قضاها في الحرب كجندي بسيط ، ورغبته عن اللحوم ، وكرهه التبغ ، وغضبه ، ونفوذ نظراته الى قرارة النفوس ، اعطى العالم صورة مبهمة عنه . ولما كانت معرفة هتلر معرفة تامة عنصراً ضرورياً جداً لفهم الاحداث العالمية التي تعاقبت طوال خمس عشرة سنة ، فقد خص المحققون في

نورمبرغ هذه الناحية بنصيب كبير من اهتمامهم واستطاعوا ان يمزقوا القناع عن وجه الفوهرر الحقيقي .

ومن اكثر الشهادات التي اعطاها المتهمون والشهود في نورمبرغ ، كمالاً ، شهادة كايتل رئيس اركان حربه . فقد عاش بالقرب منه مدة الحرب دون انقطاع ، واطلع على دقائق اموره واطواره . وهذه خلاصة ما قاله كايتل كما دون في سجل التحقيق الرسمي :

كانت بساطة هتلر حقيقة لا تقبل الجدل . وكان لا يقرب اللحوم ولا الكحول ، بسيطاً في ملبسه لا يعرف للطمع ولا للالحاف في طلب احتياجاته معنى . وقد احتفظ حتى آخر ايامه بالمسكن الذي استأجره في مونيخ في مطلع عهده بالسياسة وهو شقة تتألف من ثلاث غرف ضيقة واطئة في الطابق الثالث من زاوية بريتزريغنشتراس . وكان يعتبره مسكنه الخاص فيتردد اليه احياناً مع بعض رفاقه القدماء فيقضون السهرة في السمر . ولم تكن له من حاشية سوى جنديين يحرسان المسكن . وكانت البناية بسيطة ومعظم سكانها من المستخدمين . وحدث ذات يوم ان ابتاع مارتان بورمان المنزل وقدمه هدية الى هتلر ، فتقبلها هذا بسرور يشبه سرور الاطفال بهدية العيد .

وكان هتلر يقول عن مسكنه في برلين : « لي في بناية الرئاسة العتيقة غرفة نوم وغرفة أكل ومكتب وقاعة موسيقى لاستقبال ضيوفي . ولست انكر ان هذا بسيط كل البساطة ، ولكنني اجد الراحة التامة هناك ، ولن اغادر هذا المكان

باي ثمن . »

واحب هتلر عشرة النساء وكان يقول عنهن انهن يجدن الاصغاء ويعرفن اظهار اعجابهن . وكثيراً ما كن في عداد الذين يعرض عليهم الفوهرر بعض آرائه وخططه للمستقبل .

وقال كايتل في هذا الصدد : « كانت هناك اربع سيدات او خمس يترددن على هتلر وهن : مدام شبير التي كانت زياراتها عديدة ، ومدام فون بيلوف زوجة احد مرافقي الفوهرر . اما السيدتان هوزباخ وشميدت فقد كانتا تزوران الفوهرر في المناسبات . وقد عرف هتلر ايفا براون ايضاً . والحق يقال ان لا صحة لما اشيع عن وجود سر بين هذه والفوهرر اذ انها كانت تشتغل مساعدة لهوفمان مصور هتلر الخاص . وكان هتلر يعرفها منذ فجر نضاله للوصول الى الحكم ، وقد يكون اتخذها خليلة في ذلك العهد . »

ويصف كايتل ايفا براون فيقول : « كان جمال ايفا من ذلك الطراز الملائكي الفتان الذي يجعلك تحملق فيه مشدوهاً ، ولا ترتوي منه . وكانت متوسطة القامة ، نحيلة ، رشيقة ، بديعة الشكل والهندام ، يزيد في فتنتها شعر كستنائي فاتح وساقان دقيقتان تستلفتان النظر لاول وهلة . »

وينفي كايتل ما زعمه بعضهم من ان ايفا انجبت لهتلر ولدين ، وان هناك غرفة سرية كانت عش غرام هتلر وايفا براون وشهدت في النهاية مأساة انتحارهما . ويمضي في وصف هتلر فيقول :

« كان عنيفاً في غضبه ، عنيفاً في فرحه ، عنيفاً في اصدار اوامره . ومـــا كان ليفرح لشيء فرحه لفوز سياسي احرزه او لانتصار عسكري سجله . فقد زمجر وارعد مثلاً لما ابلغناه ان مصفحاتنا وصلت الى ابفيل في فرنسا ، واصابته نوبة فرح عنيفة كادت تفقده الصواب لما علم باستسلام فرنسا . وكان دائم الحركة لا يعرف للسلوى طعماً ، فما لعب يومـاً ولا ذهب الى الصيد او القنص ، ولا ساق سيارة ولا سبح ، ولا جمع طوابع او رسوماً او غيرها . كان قوة جارفة لا تنثني لهزيمة ولا ينال منها الفشل ، تسعى الى تحقيق مثل اعلى وينحصر نشاطها في بلوغ الهدف . وانصرف هتلر بكل جوارحه الى عمله وابتعد عن البشر والتزم العزلة ولم يرفع الكلفة يوماً بينه وبين احد . »

ومما قاله جودل في شهادته : « لم يكن هتلر يعرف عني سوى اسمي ورتبتي (جنرال) وربما اصلي البافاري الذي يدل عليه اسمي . ولقد كان مركز هيئة قيادة الفوهرر اشبه بدير او بمعسكر اعتقال . ولم يكن يسمح لاحد بالدخول اليه او الخروج منه الا باذن . ولم يكن بين معـــاونيه من يملك اذناً كهذا غير الجنرال وارليمونت . وحرم هتلر علينا عند الاجتماع حوله التدخين او المزاح . وكان الجدّ والعمل والواجب كل ما يفهمه الفوهرر . »

وقال كايتل : « سعيت بشتى الوسائل لابتعـد عن هذا الجو القاسي . وطلبت الى المارشال غورنغ مرات عديدة ان يستصدر امراً بتعييني قائد فرقة على الجبهة فلم افلح . »

واكد جودل بدوره انه لم يأل جهداً في السعي الى الابتعاد عن برلين والذهاب الى جبهة فنلندا . ولكن هتلر لم يكن يحب التعرف الى وجوه جديدة .

لم يكن هتلر يستسيغ قضاء الساعات خلف مكتبه كما كان يفعل موسوليني ، لان ما جبل عليه من حب الحركة وتسريح الفكر يجول في مختلف القضايا والشؤون السياسية لم يدع له الوقت للمطالعات الكثيرة المتنوعة او الكتابات الطويلة النفس . على انه كان يعنى بخطبه عناية خاصة فيمليها بنفسه من اولها الى آخرها ، ثم يعيد قراءتها فيصلحها ويعيدها مثنى وثلاث ، كما اكد كايتل . ولم يكن في استطاعتك ان تقدم اليه تقريراً شفهياً ، فيقاطعك عندئذ ، بل يتكلم بدلاً منك . ومن اقوال كايتل في هذا الصدد : « كان هتلر شعلة ذكاء يطفح دماغه بالافكار ويزخر بالآراء فترى بعضها آخذاً برقاب بعض ، تنساب كالسيل من فم يوحي اليك الاحترام والتقدير والدهشة . ويقيناً ، ان العالم لم يشهد رجلاً كهتلر لا ينضب لأفكاره معين ، حاضر الذهن ، متوقده الى حدّ الاغراق ، لا تكاد الاحداث تلمع في خاطره حتى يحللها ويدرك جوهرها ومراميها ، قريبها وبعيدها . وقد جمع الى سرعة الخاطر العجيبة هذه فراسة قلما تخطىء . وكان يقول : « يكفيني حديث ساعة مع اي كان من البشر لأعرف دخيلته واكشف بواطنه فادرك ما ينبغي لي ان احذره منه او ارتجاه . ولكم حذرته من التسرع في الحكم على القادة

فلم يعر اعتراضي اذناً صاغية واستمسك برأيه .

« ولم تكن مداركه تنحصر في شؤون الزعامة والادارة والتوجيه ، بل كان يملك من الخصائص ما يؤهله لان يسمى بالمبدع او المخترع في كثير من النواحي الصناعية . من ذلك انه لم يقد قط سيارة ولكنه كان يعرف جميع اصناف السيارات فيميز بين هذه وتلك ويقارن بين فوائدها ويوصي بتحوير بعض مخططاتها . وكان يستخف بذوي الاختصاص فيقول عنهم : « هؤلاء لا يعرفون غير كلمة لا . وعندما تسألهم امراً يبادرون اولاً الى افهامك اسباب استحالة تحقيقه . وقلما وجدت فيهم من يتمتع بملكة الابداع . انهم محترفون محدودو التفكير ، وانا احب الهواة وارباب البدع . لست انكر انني اطلب المحال . ولكن في طلب المحال وصولاً الى الممكن ، بل الى اقل من الممكن . ولو اكتفينا بطلب الممكن لما نلنا شيئاً . »

قال كايتل : « سألني الفوهرر يوماً : كم مدفعاً خفيفاً تخرج مصانعنا في الشهر ؟ اجبت : مائة . قال : فلتكن تسعمائة . وكم قذيفة للمدافع المضادة للطائرات من طراز ٨٨ ؟ قلت : مائتا الف في الشهر . فامر بان تكون مليونين . ولما اعلنت له ان في كل قذيفة آلة خاصة لتفجيرها بعد اطلاقها بمدة معينة وان ليس لدينا من المصانع التي تخرج هذا الصنف الدقيق من الآلات الا اليسير ، قال : سافاتح شبير بالامر فيبني مصانع جديدة ويكون لي العدد المطلوب من هذه القذائف قبل ستة شهور .

« وسأل هتلر يوماً شبير ، وكان ذلك في اواخر ١٩٤٤ :

كم رشاشاً نخرج في الشهر ؟ فاجاب : ثلاثة آلاف وخمسمائة . فقال له : اجعلها سبعة آلاف هدية لي في عيد ميلادي . ولعلك لن تعارضني او تتذرع بالتافه من العلل . ولست اظنك تبخل على الفوهرر بهدية في عيد ميلاده ؟

« ولما كان رجال المال يقولون لهتلر : ليس لدينا مال ، كان يجيبهم : « وما فائدتكم اذاً ؟ انكم خلقتم لتجدوا المال اللازم » ، او كان ارباب الصناعة يشكون قصر الوقت ، فيقول لهم : « حاربوا الزمن وسابقوه » ، او كان القواد يتذمرون من قلة الرجال فيأمرهم : « اخلقوهم إمّا استطعتم ايجادهم .»

« وبعيد غزو جيوش الحلفاء سواحل فرنسا ، قال لي الفوهرر : « هذه جبهة جديدة ، يا كايتل . فاليّ بفرق جديدة . » فقلت : ان تعبئة عشر فرق ممكن . فاحتدم وقال : « اريد اربعين . » وجادلته ، فلم يرعو . وحاولت ان اقنعه فمضى في اصراره . فوعدته بخمس وعشرين فرقة فخيل اليّ انه رضي . ولكنه استدعى جودل رئيس هيئة القيادة البرية ، وقائد الاحتياطي ، وقائد القوات الداخلية وطلب اليهم الاسراع في التعبئة واسترادهم العدد الذي عرضته . وانتهى الامر باعداد خمس وعشرين فرقة من المشاة ، وخمس فرق مصفحة ، فكان المجموع ثلاثين فرقة سيقت الى الجبهة الغربية . والتفت اليّ وقال : « ارأيت انني كنت على حق . فلو جاريتك لما حظينا باكثر من عشر فرق . والحق اقول ، اطلب المستحيل تنل الممكن . »

والواقع ان طلبات هتلر الملحة وتمرده على المستحيل وتهديده

وغضبه وسلطانه جعلت المانيا تعطي في الحرب جماع ما في استطاعتها من جنود وعتاد وقوى .

وكان الفوهرر كثير الشكوك والظنون ، وقلما وثق باحد من معاونيه . ولعل هذا ما جعله يستقل في ادارة دفة القيادة العليا ويمسك وحده بازمة مقدرات المانيا . وقد اثبتت محاكمة نورمبرغ ان هتلر لم يكن يأتمن احداً على شؤون الحكم او يصطفي صديقاً او يركن الى مرشد حتى غورنغ نفسه ثاني رجل في الرايش الثالث . ومما قاله الماريشال امام المحكمة : « كنت في آذار ١٩٣٩ اقضي اجازتي في الريفييرا . فوافاني البريد بكتاب من هتلر يعلمني به ان تشيكوسلوفاكيا اصبحت خطراً لا يطاق ، وانه قرر تصفية الحساب معها . فاسرعت في العودة الى برلين . فاطلعني الفوهرر على وثيقة من قلم الاستعلامات الالماني وقال لي ان تشيكوسلوفاكيا اصبحت قاعدة لاعداء المانيا في اوروبا . فاوصيته بالصبر وقلت له ان خرق معاهدة مونيخ يوقع شمبرلن في مأزق حرج ويفقده كل نفوذ وربما ادى الى سقوطه وقيام تشرشل مكانه على رأس الحكومة البريطانية . فضرب بنصيحتي عرضاً . ولما نفذ خطته واحتلت جيوشنا تشيكوسلوفاكيا لم ارافقه الى براغ . »

ولم تفتّ هذه البادرة في عضد هتلر وظل على تجاهله آراء معاونيه . ولما قرّر اعلان الحرب على روسيا اكتفى بان انبأ غورنغ بذلك . اما غوبلز فقد كان يأتمر اوامر الفوهرر وينفذها بحذافيرها . وكان هيس اشبه برافق لهتلر . وما كان بورمان

ليعترض على قرار اتخذه الفوهرر . ولم يستشر هتلر يوماً همله او سأله رأيه . اما ريبنتروب فلم يكن له وزن . وكذا قل عن القـادة العسكريين ، فقد كانوا ينفذون خطط هتلر الحربية فحسب .

وعلى هذا لم تكن في حكومة الرايش مـن شورى ولا اتخذت المانيا قراراً سياسياً باجماع آراء مجلس الدولة الذي كان على رأسه الدكتور شاخت . وكنت تجد في المانيا مئات المجالس التنفيذية ، وعبثاً تفتش عـن مجلس للتشريع . وكان الفوهرر اذا قرر امراً ، دعا كبار المختصين به واملى عليهم رغبته ، ثم استمع الى آرائهم واعلن في النتيجة قراره المبرم . وكان يقول : « لا ينبغي لاحد ان يطلع على غير ما هو من صلاحيته . » وبذا انعدم الانسجام بين اركان الدولة فجهل الساسة ما يعده القادة العسكريون من خطط حربية ، وغفل على هؤلاء عما يرسمه اولئك من مناهج سياسية ، وحرم على القيادة والوزارة تبادل المعلومات المتعلقة بسيرة الحرب والسياسة . ولكن الزعماء النازيين ايدوا النظام الهتلري كل التأييد واقروا بصلاحه وهم في قفص نورمبرغ اذ قال رئيسهم غورنغ : « لقد دفعت « الديموقراطية الحليقة » بالمانيا الى الكارثة . ولم يكن هناك من نظام يستطيع انقاذها منها سوى نظام الفوهرر . »

والحق يقال ان سواد الشعب الالماني الاعظم خضع لنظام الحكم هذا وخدمه وسار في ركابه . ومـن الانصاف اثبات حقيقة كان لها اثر بليغ في مصير المانيا وهي ان الشعب الالماني

كان الى جانب ايمانـــه بان مقـدراته مرتبطة بمقدرات الحركة الاشتراكية الوطنية ، يتأثر بنفوذ هتلر الشخصي الذي كان له في النفوس وقع السحر . وقـد اعلن الماريشال فون بلومبرغ الذي شرده هتلر في اوج سلطانه ، في شهادته امام محققي نورمبرغ ، ما خلاصته : « كان من المحال معارضة هتلر ، لا لأنه كان يتكلم دائماً بطلاقة وحنكة نادرتين وبعنف قلما جاراه فيه انسان فحسب ، بل لانـه كان يفعل في نفسك فعل السحر فيجتذبك ويكرهك على ان تنقاد اليه وتشاركه آراءه . وكان نفوذه هذا الجبار يفعل في الملايين فعله في الآحاد . وكان في يده اقتيادك كما تقاد النعجة ، وكان يقنعك مرغماً ويفرض عليك ارادته بقوة جاذبية لا تقاوم . »

كان من ابرز خصائص هتلر تعلقه برفاقه الاولين الذين اطلق عليهم اسم « المناضلين القدماء » . ولا غرو فقـد شاركوه جهاده في مونيخ وفيردينهول ، وواكبوه في اجتماعاتـه وانصتوا الى اولى خطبه وكان جلهم من زمرته ، من تلك الطبقة المعدمة التي ذاقت الفقر والعذاب . ومنهم من مثل امام قضاة نورمبرغ ثم التف حبل المشنقة على عنقه كسوكل البحـار ، وشترايشر المدرس ، وكالتنبرونر الشرطي . وكان معظمهم من جنوبي المانيا وغربيها . وقد اخذ هتلر بايديهم جميعاً وبوأهم مراكز رفيعة في الدولة فانساهم عذاب السنين الخوالي وافسح لهم في طريق الربح وكان يقول : « لقد ناضلوا وقاسوا كثيراً فاستحقوا ما بلغوه .»

واعجبه منهم اخلاصهم له وتعلقهم به وتفانيهم العجيب في خدمته.

وكان موسوليني في عـــداد من خصهم الفوهرر بعطفه لانه يشبهه في ماضيه وجهاده ومنبتـه . بل يحق وصف شعور هتلر نحو زميله الايطالي بالعطف والود ، اذ لم تبدر منه نحوه بادرة غضب او امتعاض بالرغم من المتاعب التي سببتها ايطاليا للرايش ابان الحرب .

وكان الى هذا يكره الارستوقراطية كرهاً لا حد له ، ويقول ان دولة النبلاء قد دالت وضرب على ذكرهم ستار صفيق . وكان يحقد على الديبلوماسيين ويصف مقـــر الوزارة الخارجية (الويلهلمشتراسه) بنادي المتخاذلين او وكر المشاكل والمصاعب. وما حفظ لاحد غلاً بقدر ما حفظ للقواد . فاهـانهم واذلهم وحطمهم ومثل بهم اشنع تمثيل . وما مؤامرة العشرين من تموز التي دبرها بعض هؤلاء القواد لاغتيال الفوهرر الا نتيجة لهذا العذاب القتـال سامهم اياه زعيم الرايش . ولكنهم اخفقوا في الانتقام وكلفتهم المؤامرة ارواحهم . وبلغ مـــن شدة تدابير القمع التي امر بها هتلر ان علق المتربصين به من اعناقهم كما تعلق الذبيحة في حانوت جزار ، فـكانوا عـــبرة لمن تسول لهم نفوسهم مناوأة الفوهرر .

قال كايتل : « كان هتلر يتربص بالقواد الفرص ليبطش بهم بدون رحمة لأقل الهفوات فيقيلهم من مناصبهم ويدوسهم بقسوة ما بعدها قسوة . بل انه كان يعاقبهم للتكفير عن اخطاء ارتكبها هو نفسه . وكان يعترف بهذا ويعلله بقوله : « عـــلى

القواد ان يتحملوا التبعات لان تبديلهم سهل والاستعاضة عنهم بسواهم ميسور . اما نفوذ الزعيم فيجب الا يمس لان سلامة الرايش متعلقة بحفظه . »

وقد قاد الجنرالات الالمان دفة الحرب وفوق رؤوسهم سيف هتلر مصلت وحولهم عيونه مبثوثة تحصي عليهم حركاتهم وسكناتهم وتنقل اخبارهم الى هملر فهتلر . ومما قاله كايتل : « لم يفهم احد حتى الان سبب عزل هتلر الماريشال « فون ليست » احد كبار قادة المانيا العسكريين ، الذي قاد الحملة على البلقان بمقدرة عسكرية شهد له بها العالم والفوهرر نفسه . وقد يكون في الامر دسيسة دبرها هملر فسجل اسم الماريشال في القائمة السوداء . »

وكان مصير فالكنهورست ، الذي فتح النروج ، شبيهاً بمصير فون ليست ، لانه اشتكى من احدى فصائل الحرس الحديدي . وقال هتلر يومذاك : « ليست فرق الحرس هي الخرقاء ، بل قيادة فالكنهورست . »

وكان الفوهرر يخص الماريشال فون رونشتيد باعتبار خاص ويقول عنه : « لو كان رونشتيد اصغر سناً بعشر سنين لما ترددت في ان اعهد اليه بزمام قيادة الجيش العليا . انني اعلم حق العلم انه قائد من الطراز البروسي العتيق ، وانه لا يحب الاشتراكية الوطنية ، ولكنه رجل حرب ممتاز . » الا انه لم يلبث ان أقاله ثلاث مرات متوالية وكان في كل مرة يقول : « انه عجوز فقد اعصابه ، ولم تبق لي به حاجة . »

اما اسباب حقد هتلر على الجنرالات فهي كثيرة وبعيدة

الاصول . وقد اظهرها كايتل بقوله : « كان ادولف هتلر يرى في هؤلاء القواد الروح الارستوقراطية المتكبرة التي حاربها طوال خمس عشرة سنة . ولما حاول سلفه الزعيم « روهم » ابـدال اركان القيادة القدماء بعناصر عسكرية فتية ، عارضه هتلر لانه كان يعترف بان المانيا ليست في غنى عن القدماء . ولكنه مع هذا كان يكرههم كرهـاً ظاهراً . ولعل السبب الجوهري في ذلك انه بلاهم جيداً ابان الحرب العالميـة الاولى وقاسى من تحكمهم الامرين يوم كان من صغار الجنود ، وانهم وقفوا عثرة في سبيل تحقيق مشروعـاته في اول عهده بالحكم . » ويقول كايتل ايضاً : « وكان الفوهرر يشعر بان القواد العسكريين لا يعترفون به اعترافاً تاماً ولا يقدرون مواهبـه العسكرية حق قدرها . ولم يكن طبعاً يعلن هذا . الا انني اكاد اجزم بانـه كان يحس ان القواد ينظرون اليه نظرتهم الى عريف الحرب العالمية الاولى ادولف هتلر . ولم اكن الوحيد الذي لاحظ هذا ، بل لاحظه معظم كبار القواد . وقد افـاد من ذلك بعضهم للوشاية بخصومهم لدى الفوهرر . »

وكان هتلر يأخذ على القواد الجدب في التفكير وقصر النظر ، واعراضهم عن مبادىء الحزب الوطنية ، واحتقارهم الحزب النازي وزعماءه وآراءهم العتيقة . ومن اقواله المعروفة : « ليس لي ان ارجو من قوادي ان يفهموني . ولكنني استطيع ان اطلب منهم الخضوع لي وتنفيـذ اوامري . » وقد سجلت له عدة عبارات وجهها الى كبار قواد الجيش الالماني في هذا المعـنى

كقوله : « ان هذه الآراء ارفع من ان تدركوها لأن نظركم قصير عن بلوغها وفهمكم مغلق دونها . واعلموا جيداً انني اريد ان أطاع . »

وانصب غضبه على قواد الجيش البري بوجه خاص لانهم يمثلون الطبقة البروسية العتيقة . وكان يقول ، على ما اعلن جودل في نورمبرغ : « عندي طيران يؤمن بالاشتراكية الوطنية ، وبحرية مسيحية مؤمنة . ولكن عندي جيشاً رجعياً . » وعلى هذا كان يلاطف الطيارين ، ويرفع من شأن البحارة ، ويتحكم بقواد الجيش البري ويحطم كبرياءهم .

ولئن يكن بعض هؤلاء القواد لم يعترف لهتلر بالمقدرة في الشؤون العسكرية ، فان الفوهرر كان ، في الحقيقة ، طويل الباع ضليعاً في فنون الحرب ، كما اثبتت ذلك الوثائق والادلة والشهادات في نورمبرغ . كان الدكتاتور الالماني حجة في اساليب القتال الحديثة ، مبدعاً في رسم الخطط الحربية والمناهج العسكرية ، لا يتطرق اي شك الى مقدرته الفنية . ويعترف له التاريخ بانه كان مؤسس الجيش الالماني الجديد وقائده الحقيقي بدون منازع . وقد سعى العالم وراء الوصول الى اكتشاف مساعد له او مرشد او معين في عمله العظيم ، فأخفق وأقر ان هتلر هو الذي خلق الجيش الحديث ونظمه وحده ، وهو الذي ساق الى ميادين الحرب العالمية الثانية تلك القوة الجبارة العجيبة التي اكتسحت الجحافل وفتحت البلدان وسحقت اوروبا سحقاً ودوخت العالم طوال خمس سنين . اما كايتل وجودل فلم يكونا سوى منفذين ، ويكادان لا يكونان

من هتلر ، مجتمعين ، ما كان « برتيه » من نابوليون . وما بقي من كبار القواد امثال براوشيتش وروندشتيد ورومل وغودريان كانوا لهتلر اشبه بمورا او جرو معاوني نابوليون .

كان هتلر استاذاً في الفن الحربي . ولا شك في ان التاريخ سيسجل له تعاليمه العسكرية وسيدرسها طلاب الفن العسكري كما يدرسون فنون غوستاف ادولف وفريدريك الثاني .

قال غورنغ : « كان لهتلر اليد الطولى في اعادة تسليح المانيا ، وكانت معارفه في الشؤون العسكرية واسعة عميقة الغور . واول ما اهتم له البحرية والمدفعية . وكثيراً ما كان يختار بنفسه انواع الاسلحة ويحدد عددها لكل فرقة من مدافع ورشاشات وغيرها ، ويوصي بصنعها . وكان الجيش البري همه الاكبر . ولم يهتم للسلاح الجوي الا سنة ١٩٤٤ ، ولم يكن في البداية ليلتفت الى الدبابات ، ولكن سرعان ما عرف قيمتها . وكان الفضل له وحده في حصول المانيا على دبابات ثقيلة . وقد اوصى بها بالرغم من معارضة القيادة البرية العليا ، وبنى حملتيه الكبيرتين في بولونيا وفرنسا على اساس استخدام الفرق المصفحة . اما خطته في قيادة الاعمال الحربية فاليكها : كان يصدر اوامر وارشادات عامة ، فيتلقى خططاً من مختلف القواد ، فيدرسها ويوحدها وينظمها ويجعل الانسجام تاماً بينها ، ثم يشرحها لكبار قواده ، وينصت الى آرائهم . ولكن ما استطيع ان اؤكده لكم هو ان جميع الآراء والخطط الفنية الرئيسية كانت بنات افكاره . لقد كان فناناً عسكرياً موهوباً لا يجارى . »

وقال كايتل : « لم يتلق الفوهرر اية ثقافـــة عسكرية . ولكنه كان مبدعـــاً ملهمـــاً ، خلق نفسه بنفسه في الفنون العسكرية . ولم نكن نحن القواد الكبار امامـــه سوى تلاميذ ومتدرجين . ويقر جميع الضباط الذين عرفوه انـه كان ملماً كل الالمام بتنظيم الجيش ومعداته وبشؤون القيـــادة لجميع الجيوش وجميـع الفرق البحرية ، حتى انـه لم يخطىء يوماً في اي امر يتعلق بهذه القضايا العويصة العميقـــة الغور . وقد اتيح لي في السنوات التي قضيتها في هيئة القيـــادة العامة ان اراه يقضي الليالي وهو يدرس كتب كلوزويتز ومؤلفات مولتكه وشليفن في الفنون العسكرية . (ولعل هذه المطالعات هي الوحيدة التي اقبل عليها الفوهرر اقبالاً عظيماً وخصها بالكثير من وقته) . وافاد من هذه التعاليم كل الفائدة ، وطلع علينا بتلك الآراء التي تركتنا مذهولين مدهوشين امام مقدرتـــه وعلو كعبـه في فن الحرب . »

والقائد الوحيد الذي يخالف كبـار القادة الالمان في رأيهم بهتلر كمبدع عسكري من الطراز الاول ، هو براوشيتش الذي قال : « كان هتلر يظن نفسه معلماً مبدعاً في الفن العسكري . ولكنه اخطأ في ظنه . » على ان ما لقيه براوشيتش على يـد الدكتاتور من عذاب وذلة ، يشفع به في هذه الشهادة .

اما جودل ، احد اركان القيادة الالمانية العليـا والمعروف بسعة اطلاعه على آراء كبار القادة الحربيين في التـاريخ ، فقد اعترف بان اعمال هتلر بهرته وادهشته ولاسيا بساطة آرائه في

الفنون الحربية وجرأتها .

نذر هتلر نفسه للنضال منذ نشأته ولم يستهدف غير تحقيق اغراضه في السيطرة والحكم . وطبيعي في رجل هذا شأنه ان يميل الى الفن العسكري بكل جوارحه لانه الوسيلة المثلى لبلوغ مراميه . وكان اول ما قرأه تاريخاً للحرب الفرنسية – الالمانية (حرب ١٨٧٠) في مجموعة من المجلات وجدها في منزل والده . ومن اقواله في شخصه : « انا رجل عسكري . وقد كنت دائماً جندياً . وليس في وسع احد ان يدرك رسالتي وعملي في هذه الحياة اذا جردهما من صفتها العسكرية . ولعلّ أشد القرارات وقعاً في نفسي ، ذاك الذي اتخذته سنة ١٩١٩ بترك الخدمة في الجيش لأشتغل بالسياسة ، بعد صراع عنيف طويل دار في قرارة نفسي . »

وفي هذا التصريح الذي اعلنه هتلر في اجتماع عقده قادة المانيا في الثاني والعشرين من آب ١٩٣٩ والمدون في الوثيقة ذات الرقم ٧٩٨ في نورمبرغ مبالغة واضحة . فقد كان هتلر في الجيش سنة ١٩١٤ كغيره من ملايين الرجال الذين دعاهم داعي الحرب . وكان مكلفاً بمهمة ساعٍ في قيادة احد افواج المشاة . وسنة ١٩١٩ لما سرح من الجيش واصبح بدون مورد رزق ، انخرط في الجيش الالماني الجديد كضابط للدعاوة ، وهي وظيفة جعلته نصف جندي ونصف واشٍ ، واتاحت له ان يأكل على حساب الجيش ، واعطته نصف غرفة في الفوج الرابع للمشاة . وعلى هذا لم يكن هتلر في الجيش بالمعنى الذي اراده في تصريحه .

الا ان في تأكيده انه جندي كثيراً من الحقيقة لانه لم ينقطع قط عن درس كل ما له صلة بالشؤون العسكرية ، واطلع على كل ما ينبغي للجندي الاطلاع عليه ، بل ذهب الى ابعد من هذا فدرس كل ما يجب على قائد كبير معرفته .

اما معلوماته الفنية في امور التسلح والتنظيم الحربي والمامه بدقائق شؤون السيارات ، فالفضل فيها لمقدرته الخارقة على الاقتباس والتقليد . وقد ذكرت ان هتلر اطلع على مؤلفات شليفن ومولتكه وكلوزويتز وعلى اهم الحملات الحربية في التاريخ ولا سيما فتوحات فريدريك الثاني . ويعتقد كايتل ان مبادىء هتلر في الفن الحربي مستوحاة من هذه الدراسة .

وهذه ناحية هامة تستحق الدرس والتمحيص . فالحروب الكبرى لا تدرس من خلال اعمال القيادات العليا ، بل من خلال امثولات كبار الادمغة العسكرية التي قادت دفتها منذ الازل . وما هتلر الا احدى هذه الامثولات . فانه باعراضه عن آراء القواد الالمان الذين ما برحوا متأثرين بهزيمتهم سنة ١٩١٨ ، قد جدّد اساليب الحرب عامة وكان اول من ادرك اهمية الدبابة : القلعة المتنقلة ، والقاذفة الجوية : المدفعية الطائرة ، في الهجوم . واخذ بمبدإ المناورة والمداورة وحركات الالتفاف ، هذا المبدأ القديم الذي استهان به خريجو المدرسة الحربية القديمة من الالمان . ونظم ، على اساس بعض النظرات الصحيحة والبسيطة معاً ، سلسلة من الحملات والفتوحات سيذكرها له التاريخ باحرف بارزة وهي : بولونيا والنروج وفرنسا والبلقان .

ولكنه سكر بنشوة النصر فدمر بيد ما بناه باليد الاخرى ، واضاع لولب القوة العسكرية التي خلقها بنفسه فجرفته قوى العالم الحقيقية الكبرى التي اثارها وايقظها وألبها عليه .

واذا نظرنا الى خطط الدكتاتور الالماني الحربية من وجهها العسكري ، وجدنا انه ارتكب في حملاته اخطاء عظمى سببها الاساسي تصلبه في رفض الهزيمة ولو كانت موقتة او لازمة لاجتناب الكارثة الكبرى . وبعد ، فليس هتلر اول من سار على هذا الدرب . فقد سبقه الى سلوكه نابوليون بونابرت .

لقد خُلق هتلر للحرب . وما تكريسه نفسه للحياة العسكرية الا حقيقة ثابتة من الواجب اعطاؤها كل وزنها لفهم الاحداث التي تعاقبت في الحرب العالمية الثانية وقبيلها . ومما قاله : « انني لم انشىء هذه الآلة العسكرية للتسلي . ولا است هذا الجيش الجبار وفي نيتي ألا استخدمه . » وتصريحه هذا مدون في وثيقة رقمها ١٩١٨ من وثائق محاكمة نورمبرغ .

ان ادولف هتلر واحد من تلك الفئة التي عرفها التاريخ والتي قد يعرف العالم منها في المستقبلِ اعضاء جدداً ، تلك الفئة التي صلبت البشرية وستصلبها الى الابد ، اعني بها جماعة الفاتحين . ان ادولف هتلر فاتح ، وكفى .

ولنرَ الان ما كان رأي هتلر في نفسه .

في وثائق نورمبرغ محاضرتان ألقاهما الدكتاتور الالماني في كبار قواد جيشه ، اولاهما في الثاني والعشرين من نيسان ١٩٣٩

قبل الحملة على بولونيا (الوثيقة ذات الرقم ٧٩٨) ، والثانية في الثالث والعشرين من تشرين الثاني من السنة ذاتها قبل الهجوم الالماني على فرنسا . وقد رسم فيها صورة عن ذاته . ومما قاله في ٢٢ نيسان :

« عليّ وحدي الاعتماد كل الاعتماد . وبكياني مرتبط كيان الرايش . واكاد اؤكد لكم انه لن يكون في المانيا رجل يثق به الشعب الالماني كثقته بي ، او يملك من السلطان ما املك . ولذا فان وجودي عنصر سياسي من الاهمية بمكان عظيم . ومع هذا ، فانكم توافقونني اذ اقول ان حياتي متوقفة على حركة بسيطة من معتوه او جاهل قد تقع في اية لحظة . »

وقال في محاضرته الثانية (وكانت يومئذ ثقة مستمعيه به ضعيفة) :

« ان الغرض من هذه المحاضرة اعطاؤكم فكرة عن آرائي ورغباتي ، ودونكم ذلك : لما بدأت بتحقيق رسالتي السياسية سنة ١٩١٩ كانت ثقتي بالنصر النهائي مبنية على مراقبة دقيقة واعية للاحداث السياسية ودراسة عميقة لعواقبها . فلم افقد هذه الثقة لما اصابني الفشل مثنى وثلاث ورباع ، وكللت العناية الالهية عملي بالنجاح اخيراً . وكنت قبل كل شيء ملماً الماماً تاماً وواضحاً بسير الاحداث التاريخية . وكانت تدفعني في العمل ارادة لا تنثني الى تقرير الخطير من الامور وانا واثق بالنجاح ، وكنت دائماً واثقاً به .

« لما تقلدت زمام الحكم سنة ١٩٣٣ كان امامي طريق طويل

من النضال الصعب المضني . وترتب علي اعادة تنظيم جهاز المانيا بكامله من الشعب الى الجيش . فوضعت نصب عيني تحرير المانيا من السلاسل التي تقيدها . وبدأت بالعمل ، فانسحبت من عصبة الامم وابطلت مؤتمر نزع السلاح . وكان اتخاذ قرار كهذا صعباً جداً . وتوقع كثيرون ان يؤدي الى احتلال الفرنسيين رينانيا ثانية ، ولم يؤمن بصواب عملي سوى القليلين .

« ثم قررت اعادة تسلح المانيا . فاعترض كثيرون وتوقعوا اوخم العواقب ، ولم يزدد عدد المؤمنين بسداد رأيي . وسلحت بعدئذ رينانيا وكان القائلون بان تحقيق هذا ضرب من المحال ، اكثر من ان يحصوا . قلت اشياء كثيرة وفعلت اموراً عديدة عادت على المانيا بالخير العميم . واعترضني كثيرون فكانت النتيجة مصداقاً لما قلت وما توقعت . انني واثق بنفسي ، مؤمن بمقدرتي وقوة ارادتي . ولن انهي الحرب الا بسحق العدو ، ولن اقبل بصلح . سأضرب بدون رحمة ، ولن استسلم . ان مصير الرايش متعلق بهذا النضال ، وبي انا قائده وموجهه . »

قال غورنغ : « كان الفوهرر يتكلم دائماً عن حرب محتومة بين الوطنية الاشتراكية والبلشفية . وقد اقر احياناً بان الحرب قد لا تنشب قبل سنين يتاح له خلالها الوصول الى فوائد لالمانيا بالطرق السلمية . ولكنه كان يردد قوله : « يجب ان تقع هذه الحرب قبل ان اموت . »

« ولم يكن هتلر يخاف الموت قبل ان يحقق اغراضه فحسب ، بل كان يخاف الشيخوخة ايضاً . فقد وصل الى الحكم وهو ابن

اربع واربعين سنة ، وكان عليه تنفيذ منهج يقتضي تحقيقه سنين عديدة ، من اعطاء المانيا مدى حيوياً للعيش ببحبوحة ، الى تحقيق فتوحات واسعة ، الى احتلال المكان الاول في العالم . وكان على يقين من ان بلوغ هـــذه الاهداف لن يكون الا بالقوة ، وانه سيقتضي سنين عديدة من القتال والنضال ، فاراد ان يسرع في العمل ، وقـد بلغ الخمسين ، بينما قام كبار الفاتحين بغزواتهم في فجر الشبـــاب (شارل السابع في السابعة عشرة ، واسكندر في العشرين ، وفريدريك الثاني ونابوليون بونابرت في الخامس والعشرين) . »

كان كر السنين يدفع هتلر الى العمل . وفي وثائق نورمبرغ ادلة كثيرة على ذلك . ففي الخامس من تشرين الاول ١٩٣٧ ، لما عرض على قواده المنهاج الواسع النطـــاق الذي وضعه للتوسع ، قال لهم : « هناك امر ينبغي لنا ان نلتفت اليه ونحسب له حساباً ، اعني به شيخوخـــة الحزب الاشتراكي الوطني ورئيسه : »

وكفى بهذا دليـــلاً على تسرع هتلر الاخرق في ايقاد نار الحرب . فقد كان في استطاعته الحصول على فوائـد ومنافع لا يستهان بها لو اعتصم بالصبر والحيلة . وتسرع في اعادة تسليح المانيا وهاجم قبل ان يبلغ بالمانيا ذروة قوتها ، اي قبل خمس سنين من الموعد الذي حدده خيرة معاونيـه وخبرائه العسكريين والذي اقره هو نفسه . وارتكب ثلاثة اخطاء اساسية لثلاثـة اسباب ، وهي :

اولاً – عدّ نفسه الرجل الوحيد القادر على السير بالمانيا الى النصر .

ثانياً – كانت المقدرة العسكرية التي كان يحسها في نفسه تدفعه بقوة جارفة الى تسلم القيادة العليا .

ثالثاً – كان يشفق من ان يقضي قبل ان يحقق ما كرّس له نفسه او ان يكون قد شاخ عندما يحين موعد العمل الحاسم .

اظهرت وثائق نورمبرغ واقوال الشهود ، الى جانب رأي هتلر بنفسه ، رأيه بالعالم . فقد كوّن الدكتاتور فكرة عن المانيا واسعة جداً . وكانت بلاده في نظره قوية الى حد الجبروت . ومما قاله عن قوة المانيا العسكرية : « لسنا اكثر الشعوب الاوروبية وحسب عدداً ، بل اننا احسنها ايضاً . والجندي الالماني اقوى من اي جندي آخر حتى من الجندي الفرنسي واشجع . »

وكانت هزيمة ١٩١٨ في نظر ادولف عارضاً سببه افلاس النظام الامبراطوري وسوء ادارته . وما تكلم الفوهرر يوماً عن غليوم الثاني واعوانه السياسيين الاّ شاع احتقاره اياهم على سحنته وفي الفاظه ... كان هتلر واثقاً بان المانيا الجديدة قادرة على فتح العالم باسره . ولم يكن يقيم اي وزن لدول اوروبا الوسطى حتى بولونيا . ومما قاله عن قوة بولونيا للكونت شيانو في الثاني عشر من نيسان ١٩٣٩ كما هو مدون في وثيقة

نورمبرغ ذات الرقم ١٨٧١ : « ان الجيش البولوني مؤلف من بضع فرق للعرض ، ومن مجموعة جيوش تافهة الاهمية . اما دفاع بولونيا ضد الدبابات وضد الطائرات فهو مما لا يؤبه له . ومن الثابت ان فرنسا وانكلترا لا تستطيعان مساعدة بولونيا في هذا المضمار . ولا تنس ان الامة البولونية لا تشكل وحدة قومية . فمن واحد وثلاثين مليون بولوني تجد مليونين ونصف مليون من الالمان ، واربعة ملايين من اليهود ، وتسعة ملايين من الاوكرانيين . واذا استثنينا سكان فارصوفيا المتعصبين ، امكننا القول ان سواد الشعب البولوني غير متحمس للقتال . »

وكان هتلر يشك في نيات اليابان . ومما قاله عنها : « علينا الا نعتمد كثيراً على اليابان . وان نكون حذرين من خيانة يابانية محتملة . » وكانت ثقته بقوة الجيش الياباني محدودة . وقد قال عن امبراطور اليابان انه متخاذل لا سلطان له ولا يتمتع بقوة ارادة كافية ، وشبهه بغليوم الثاني وتوقع ان يكون مصيره كمصيره .

وخص قوة ايطاليا باعجاب وتقدير عظيمين . وستظهر في الفصول الآتية عواقب هذا الخطأ الوخيمة على الالمان . ولم يكن يستهين بقوة روسيا ، بل كان لسعة اراضي الاتحاد السوفياتي وكثرة موارده في الرجال والمواد وزن ثقيل في ميزانه . ومما قاله في هذا الصدد ورردده : « ان هذه الكتلة الروسية الهائلة هي الخطر الاكبر . » وقد ادرك الفائدة الكبرى التي تجنيها روسيا ، في حرب جوية ، من المسافات الشاسعة والاهداف

المتباعدة في اراضيها . وكان يخشى هجوماً جوياً عظيماً على المصانع الحربية في مدن اوروبا الوسطى التي يجعل منها تقاربها هدفاً ممتازاً لقاذفات القنابل ، ولاسيما برلين وآبار الزيت الرومانية ، قال : « لو لم يكن هناك سوى الجيوش الروسية البرية لما كانت روسيا دولة يخشى جانبها بصورة جدية . ولكن سلاحها الجوي خطر يزداد باطراد . . »

وكان هتلر في الواقع يخشى قوة روسيا في المستقبل . فسنة ١٩٣٧ تخلص ستالين من الماريشال توكاتشيفسكي الذي كان يتآمر مع المانيا . وعزل مئات من كبار القواد الروس . واستخلص هتلر من هذا ان الجيش الاحمر يعاني ازمة . وكثيراً ما ردد : « ان روسيا ما تزال ضعيفة لبضع سنين اخرى . »

اما فرنسا فقد كان هتلر متأكداً من انها ضعيفة كل الضعف لما لمسه من اضطرابها الداخلي وانتشار الشيوعية فيها ، وما شاهده من عواقب الازمة التي عانتها سنة ١٩٣٦ ، فضلاً عن الاضرابات واستيلاء العمال على المصانع وتطاحن الاحزاب وتساقط الحكومات . وكان يعرف ، اكثر من قواده ، مبلغ انحطاط الجيش الفرنسي ، ومدى شيخوخة السلاح الجوي وهبوط مستوى الثقافة العسكرية في القيادة الفرنسية والسياسة السلبية التي اعتمدتها ، ومن اقواله في ذلك : « لقد انهار الجيش الفرنسي الجبار واهملت فرنسا جيوشها البرية وسلاحها الجوي ولم تحسن غير اسطولها البحري . » وكان يرى ان فرنسا لم تبق مستقلة في سياستها الخارجية وانها اصبحت خاضعة لسواها من الدول .

قال غورنغ في نورمبرغ : « كثيراً ما قال هتلر ان فرنسا لن تقوم باي عمل بدون اذن من انكلترا ، وان باريس غدت فرعاً ديبلوماسياً للندن ، وانه يكفي ، لحل المشاكل في الغرب ، الاتفاق مع انكلترا . »

فماذا كان رأي هتلر في انكلترا التي كان يهتم لها كل هذا الاهتمام ؟ لقد قال عن الشعب البريطاني في ظروف عديدة وخصوصاً في الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٧ (الوثيقة ذات الرقم ١٨٧١ من ملف نورمبرغ) : « انه شعب جريء ، واسع الحيلة ، عنيد. وهو خصم خطر خصوصاً في الدفاع . يعرف التنظيم ويجيده ويحب المغامرة ويقدم عليها غير هياب . انـــه شعب جرماني له بعض صفاتنا . »

وقد اثبتت محاكمة نورمبرغ ان هتلر الامين لمبـــادىء « كفاحه » سعى طويلاً الى اجتناب مجابهة انكلترا . ومـــن اقوال غورنغ في هذا الباب : « بذل الفوهـــرر سنة ١٩٣٦ جهوداً جبارة للتفاهم مع الانكليز . »

وقال ريبنتروب : « اكد لي هتلر ، في اول حديث سياسي معه في شباط او آذار ١٩٣٣ ، ان العنصر الرئيسي في السياسة الاوروبية هو الصداقة الانكليزية – الالمانية . ولما قابلته آخر مرة في نيسان ١٩٤٥ قبل اسبوع من موته في ملجأه ببرلين ، ردد على مسامعي ما قاله لي سنة ١٩٣٣ بنصه الحرفي ، واستطرد : « حاول اذاً ان تفعل شيئاً للتفاهم مع الانكليز . »

واكد جودل ان هتلر كان مستعداً لعقد الصلح مع انكلترا

في دنكرك ، حتى في خرائب بولين . واجمع غورنغ وريبنتروب على القول ان هتلر كان يرى ان بريطانيا ستفهمه في النهاية . وسنحلل رأي هتلر هذا في فصل آت عندما نعالج مهمة رودولف هس في بريطانيا . ويلخص هذا الرأي في ان مصالح المانيا وانكلترا منسجمة غير متناقضة . ولم يكن الدكتاتور الالماني يريد سحق الامبراطورية البريطانية لعدة اسباب اهمها انها كانت تحفظ ملايين المحتاجين والجياع من سكان آسيا ، من الارتماء في احضان البلشفية . ولكنه كان يطلب ان تعترف له انكلترا مقابل ذلك بالحق المطلق في تنظيم اوروبا الوسطى واقتطاع المدى الحيوي لالمانيا ، وان تتيح له تصفية حسابه مع روسيا .

قال ريبنتروب : « لقد حذرت الفوهرر من عواقب عمله وانذرته بان انكلترا لن تسمح لنا بالتوسع الى ما لا نهاية له . »

وكان هتلر يسعى الى محالفة انكلترا . ويثبت هذا ما قاله غورنغ في نورمبرغ ، وخلاصته : « كان الفوهرر ، في سبيل الوصول الى هذا التحالف ، مستعداً لضمان سلامة اراضي هولندا وبلجيكا وفرنسا . وكان عازماً على التنازل عن المطالبة بالالزاس واللورين . ولم تكن المستعمرات تهمه كل الاهمية ، وكان مستعداً للعدول عن فكرة انشاء امبراطورية استعمارية ، ولعقد ميثاق اسيوي يحمي الهند من التوسع الروسي . »

وكان الفوهرر يرى في هذه الشروط كرماً عظيماً ، ويقدر ان انكلترا لن تجد بعد هذا مبرراً للاعتراض على توسع الرايش وتحقيق مطامعه لأنها تكون قد ضمنت سلامتها في اوروبا الغربية

وعززت مركزها في اسيا ، وتخلصت من مزاحمة الالمان لها في المناطق الحيوية لاتصالها بامبراطوريتها . وكان يرى اخيراً ان انكلترا محتاجة الى التحالف مع المانيا . وهنـــا يجدر بنا ايراد تحليل هتلر لمركز الامبراطورية البريطانية كما جاء في محاضرته في الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٧ التي مر ذكرها والتي سنذكرها في الفصول المقبلة ، وهذه خلاصته :

« لست اوافق القائلين ان الامبراطورية البريطانية وطيـدة الاركان لا تتزعزع . ان الخطر الذي يهددها كامن في منافسيها اكثر منه في مقاومة الشعوب المستعبدة لها . ولا يمكن تشبيـه قدرة الامبراطورية البريطانية على البقاء زمناً طويـــلاً بقدرة سابقتها الامبراطورية الرومانية . فان هذه استطاعت بعد حروب كثيرة ان تعزل كل خصم سياسي قوي ، وهذا ما جعلها تعمر طويلاً . وما استطاع الجرمانيون القـدماء اخضاع الرومان الا بفضل نفوذ النصرانية وشيخوخة الدول العظمى يومذاك .

« اما الامبراطورية البريطانية الحاليـــة فهي محاطة بمنافسين اقوى منها بمراحل . وليس الوطن الام انكلترا قادراً على الدفاع عن ممتلكاته الا بمعونة دول اخرى كبيرة . من ذلك ان الانكليز لا يستطيعون وحدهم الدفاع عن مصالحهم في الشرق ضد اليابان ، او عن كندا ضد هجوم عليها من الولايات المتحدة . وعلى هذا نستنتج ان الخمسة والاربعين مليوناً من البريطانيين لا يستطيعون المحافظة على امبراطوريتهم المترامية الاطراف الى ما لا نهاية له مهما يكن اتحادهم قوياً ومبادئهم ثابتة ودهاؤهم عظيماً » .

هذا هو رأي هتلر في مركز الامبراطورية البريطانية . وقد كان يدرك ان انكلترا محتاجة الى ساعد عسكري يسندها . اما هذا الساعد القوي المتجرد الذي لا ينافسها على ممتلكاتها فهو المانيا . ولذا عرض على الانكليز حلفاً . قال ريبنتروب : « كان هتلر عازماً على ان يضمن معاهدة التحالف العتيدة مع انكلترا بنداً يضع ثلث الاسطول الالماني واثنتي عشرة فرقة تحت تصرف الانكليز بصورة دائمة لمساعدتهم في الدفاع عن امبراطوريتهم . » وعرض هتلر على الانكليز مساعدتهم في الدفاع عن كندا ضد الولايات المتحدة . وقد يبدو هذا الاقتراح غريبـاً مدهشاً . ولكنه حقيقة ثابتة . وبحثه المتفاوضون الالمان والانكليز بحثاً جدياً قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية .

ولكن عقبات كأداء اعترضت هذه المساعي للتحـالف مع انكلترا ، وكان اهمها رفض الانكليز اقتراحات زعيم الرايش . وهدد هتلر وتوعد بعد ان خاب امـله ، ولم يكن يصدق ان انكلترا تقدم على خوض غمار الحرب ضد المانيا . ولما اثيرت القضية التشيكية قال : « ان فكرة خوض حرب عالمية كثيرة الاخطار ، ستحمل انكلترا على الاحجام عن التدخل للأخـذ بناصر تشيكوسلوفاكيا . » ولم يأبـه الفوهرر لتسلح الانكليز ولا للتعبئة التي اعلنوها لانه كان يعتبر ذلك منـاورة سياسية وحرب اعصاب بعيدة عن الحقيقة كل البعد .

وظل هتلر حتى سنة ١٩٣٩ يشك في عزم انكلترا على اعلان الحرب على المانيا . وكان يعلل شكه هذا بان انكلترا غُبنت في

الحرب العالميـــة الاولى اذ وجدت نفسها قد خدمت الاستعمار الفرنسي وافتقرت ، واتاحت للولايات المتحدة فرصة استباقها في مضمار الاقتصاد ، وسببت تصدعاً في امبراطوريتها اذ خسرت ارلندا وكادت تفقد مصر واصبحت مهددة بفقدان الهند . وعلى هذا ، لم يكن هتلر يتوقع ان تخوض انكلترا غمار حرب جديدة تزيد الخرق في امبراطوريتها اتساعاً وتهددها بالتفكك . وكان يرى ان افريقيا الجنوبية واوستراليا وكندا قد لا ترضى بان تشارك الوطن الام مغامرته ، وتبذل شبابها في صراع لن يعود عليها باي نفع . وكان يعتقد ان الانكليز سيحسبون حساباً لأزدياد نفوذ الولايات المتحدة واشتداد بأسها نتيجة لحرب جديدة يفيد منها الاميركيون الانتهازيون الذين لا يعرفون غير جني الربح اياً كان مصدره .

وهناك عوامل اخرى اتخذها هتلر اساساً للظن بان بريطانيـا لن تشترك في حرب جديدة الا اذا اكرهت عليهـا اكراهاً ، وهي ان الانكليز نزعوا سلاحهم . ونزع الســلاح والاستسلام صنوان في نظر هتلر . وكان يدرك حقيقة قوة الاسطول البريطاني ويعرف ان الانكليز لا يملكون سفينة حربية حديثة واحدة ما عدا رودني ونلسون اللتين دالت دولتهما او تكاد . اما المدرعات فقد كانت قليلة ، بينما الجيش الانكليزي اشبه بالعدم ، والدفاع المضاد للطائرات مفقود تماماً في انكلترا .

واميركا ؟ ماذا كان رأي هتلر فيها ؟ انهـا كانت في نظره اشبه بخيال لا اثر للحقيقة فيه . واعتبرها بلاداً شاسعة غنية ليس فيها ظل للقوة والاتحاد ، ابتلعها الرأسماليون ومزقتهـا الازمات

الاقتصادية ، ونخرها اليهود وافسدوها ، – بلاداً اجدبتها المادة ، ودوختها السينما ، وابطرها رغد العيش واللهو ، تحكمها قبضة من اليهود المختالين تناصب المانيا العداء ولكنها عاجزة عن النيل منها .

ومما قاله هتلر عن اميركا : « كانت تجربة الولايات المتحدة في الحرب سنة ١٩١٧ قاسية جداً . ولن تغامر في الاشتراك بحرب اوروبية جديدة . »

قال غورنغ : « كثيراً ما أكدتُ للفوهرر ان الولايات المتحدة ستخف الى نجدة بريطانيا اذا اشتبكت بالحرب مع المانيا . ولكنه لم يشاركني هذا الرأي . وكان يصر على قوله ان اميركا لن تشترك في الحرب الاّ اذا هددت مباشرة ، ويستند في اعتقاده هذا الى حديث له مع لويد جورج . فقد رسم له هذا فكرة خاطئة عن الروابط بين الانكليز والاميركان . وكان هتلر الى هذا يبالغ في تقدير اهمية دعاة العزلة في الولايات المتحدة .»

ولم يكن في رأس دكتاتور المانيا عن قوة اميركا الحربية ، الاّ فكرة غامضة ، ولا ادرك استعداد الولايات المتحدة للتسلح. ولعلّ ابطاء اميركا في ارسال المعدات الحربية زاد هتلر اعتقاداً بان الولايات المتحدة عاجزة . وكان يرى ان شعباً ابطرته الديموقراطية والثروة لا يرضى ببذل التضحيات التي تقتضيها الحروب ، ولا بان يساق شبابه الى ميادين النطع . فاستهان بالخطر وبالغ في الاستخفاف بقوة العالم : وهذا ثابت في وثائق نورمبرغ والبكم مثالاً : قال هتلر لموسوليني في الحادي والعشرين

من كانون الاول ١٩٤١ (الوثيقة ذات الرقم ١٣٤) : « ليس لنا ما نخشاه حتى لو انضمت الولايات المتحدة الى الحلفاء في الحرب ضد المحور . »

وهناك اعتبار آخر كان له وزن ثقيل في حكم هتلر على العالم وهو رأيه في الرجال . فقد كان ينظر الى الامم من خلال الزعماء الذين يديرون مقدراتها ويوجهون خطواتها ويكتبون تاريخها . وكان معجباً بيسمارك وبفريدريك الثاني ويتبع خطواتهما . ومن اقواله الشهيرة : ان المغامرة التي اقدم عليها اليوم شبيهة كل الشبه بتلك التي اقدم عليها فريدريك الكبير لما استولى على سيليزيا (مقاطعة على حدود المانيا وبولونيا ضمت الى بولونيا بعد الحرب العالمية الثانية وما تزال اليوم مدار نقاش بين الدول العظمى) . انني كفريدريك امسك بزمام الحكم المدني والعسكري . »

وقد اعجب هتلر بتعاليم جنكيز خان الفاتح واخذ بكثير منها وتشبه به . قال لقواده يوماً : « لا قيمة للدم في اعين الذين يؤسسون الامبراطوريات ويفتحون العالم . لقد سقط في مجازر جنكيز خان ملايين من النساء والاطفال ، فهل في العالم اليوم من يتذكر هذه الحقيقة ؟ »

وراح هتلر يفتش بين معاصريه عن كبار الساسة ، وانتهى من بحثه الى هذه النتيجة : « ليس في عالمنا الحاضر سوى ثلاثة رجال دولة : موسوليني وستالين وهتلر . اما موسوليني فهو اضعفنا لانه لم يستطع سحق المعارضة الرجعية في البلاط والكنيسة ، بينما

نحن ، انا وستالين ، سيدان ، قرارنا في ايدينا ومستقبلنا رهن مشيئتنا . »

وكان هتلر لا ينفك يطري ستالين ومواهبه ولا يتوقع منه خطراً على المانيا ، ويقول انه يخشى جانب المانيا ويفضل محالفتها على مناصبتها العداء . وكثيراً ما ردد : « ان ستالين ذكي حذر واسع الحيلة . ولن تخشى المانيا شيئاً من روسيا ما دام حياً . وقد تتبدل الحالة اذا مات لان اليهود الذين يحتلون اليوم مناصب من الدرجة الثانية او الثالثة في الاتحاد السوفيـــاتي ، سيبلغون ارفع المراتب في الدولة . » وقال ايضاً سنة ١٩٣٩ : « سأسحق روسيا عندما يقضي ستالين نحبه . »

وما عدا موسوليني وستالين لم يكن في العالم في نظر هتلر ، بعد وفاة مصطفى كمال ، زعماء حقيقيون . وكان يعد رؤســاء الحكومات وقادة الدول اشخاصاً تافهين يديرون حكومات ضعيفة تعتمد للبقاء في كراسي الحكم على تخاذل الشعوب التعبة المنهوكة القوى وتسامحها ، ويكفي استفتاء شعبي او اقتراع برلماني بسيط لاسقاطهم ، امثال دالاديه وتشمبرلن وغيرهما . وقـد نعتهم في احد احاديثه بالثرثارين والحشرات المسكينـة . وكان واثقاً بانهم لا يملكون الجرأة للمغامرة ، ولا يستطيعون اتخاذ قرار حازم ، وانهم اضعف من ان يقدروا على قيادة بـــلادهم الى النصر في الحرب .

واثبتت وثائق نورمبرغ ان استخفاف هتلر بخصومه ادى الى تهوره . فهو لم يدرك ، على الرغم من دروس الحرب الكبرى

الاولى وظهور كليمنصو ولويد جورج ، ان في البلاد الديموقراطية رجالاً ، اذا هوجموا وهددوا واقترب منهم الخطر الجدي ، تحولوا الى رؤساء يضاهون الدكتاتورين حزماً وجبروتاً . ولم يتوقع هتلر ان يقف بوجهه رجل كونستن تشرشل ، ولا فهم من هو روزفلت ولا قدر مواهبه حق قدرها .

ولا غرو ، فقد عرف هتلر اوروبا أتم المعرفة ولكنه جهل الولايات المتحدة وغيرها من الشعوب . وكانت آراؤه متأثرة باسلافه من الفاتحين الجرمانيين . وما عرف شيئاً بقدر معرفته مشاكل الجنسيات في اوروبا . وكان يجيد بث التفرقة واستخدام الحزازات العنصرية لأغراض سياسية ، فأثار السوديت على التشيك ، وهؤلاء على السلوفاك ، والسلوفاك على المجر ، وألّب المجريين على الرومانيين . ونجح في عزل بولونيا ثم سحقها ، وأجاد في محالفة روسيا ثم مهاجمتها ، ولم يخف عليه ضعف فرنسا فاستغله احسن استغلال وكانت ضرباته قوية صائبة وخاطفة معاً . ولكنه ، الى هذا ، جهل العالم الانكلوسكسوني جهلاً تاماً : ولم يكن يعرف اية لغة اجنبية ولا اتصل قط بالانكليز ولا بالاميركيين . وغفل عن القوة الانكلوسكسونية وعن ارتباط الشعبين وشعوب الامبراطورية البريطانية ، وجهل انظمة الحكم في انكلترا والولايات المتحدة .

ظن ان انكلترا لن تحارب وان الولايات المتحدة لن تتدخل ، وقصر نظره عن اكتشاف حقيقة الاخطار التي تحيط به فاندفع الى الحرب واثقاً بنفسه وبقوة الجيش الالماني وبنتائج الهجوم

الخاطف الساحق .

كان يرى اوروبا الوسطى منقسمة ممزقة شبه مستسلمة ، وفرنسا ضعيفة مقيدة اليدين ، وروسيا مبلبلة وغير مستكملة تسلحها ، وانكلترا مجردة من السلاح وغير قادرة على الثبات وميالة الى الحياد . وكان اخيراً يعتمد على بعد الولايات المتحدة عن اوروبا واهمالها الشؤون الاوروبية وعزلتها .

كان ادولف هتلر سنة ١٩٣٩ يظن انه يستطيع تحقيق مطامحه باقل ثمن ممكن ، كما اعلن سنة ١٩٣٧ . وهو لم يجازف بكل ما في يده ليحصل على كل ما يريد ، كما يظن بعضهم ، بل خيل اليه انه يتبع سياسة حكيمة توصله الى اهدافه بثمن بخس . ومما قاله للجنرال هالدر : « من الجنون ان ازج بالمانيا في حرب عالمية كبرى من اجل قضية كقضية دانتزيغ ، كما فعل الجهلة سنة ١٩١٤ . »

لقد ظن ادولف هتلر ان فتح العالم سهل رخيص ، واستهان بقوة خصومه فأخطأ ، وكانت الكارثة الكبرى .

تسليح بريطانيا بثلاثة افواج

وقع هتلر قرار تأسيس الجيش الالماني الجديد الساعة العاشرة من صباح السبت الحادي عشر من آذار ١٩٣٥ . وقضى القرار بفرض الخدمة العسكرية الجبرية ، وحدّد عدد الفرق الالمانية في زمن السلم بست وثلاثين .

قال الجنرال جودل في شهادته امام قضاة نورمبرغ ان كبار قواد الجيش الالماني قلقوا لهذا القرار وعدوا تحديد الفرق الالمانية بست وثلاثين تهوراً لا بد ان يثير الحلفاء وجيران المانيا ، بل انهم اعتبروا هذا القرار غير مفيد لانهم وجدوا انفسهم عاجزين عن تنفيذه قبل وقت طويل . وطلب فون فريتش الى الفوهرر ان يرضى باربع وعشرين فرقة ، فرفض .

وكان قائد الجيش الالماني الاعلى يومذاك الماريشال ويرنر فون بلومبرغ وهو رمز حي للجيش الالماني القديم . وكان في الثامنة والخمسين ، خدم في هيئة القيادة العامة منذ ١٩١١ ، وترأس اركان حرب الجيش الالماني الثامن . وقد فرضه هندنبرغ على هتلر فرضاً كوزير للحرب ، ومنحه سلطاناً تاماً على قوى البر والبحر . وقبل ان يقضي هذا القائد الالماني نحبه ، اعطى شهادة طويلة لمحققي نورمبرغ ، ومما قاله :

« بعد بضعة ايام من اعادة نظام الخدمة العسكرية الجبرية ،

جمع هتلر غورنغ وريدر وفريتش وكنتُ معهم . وقال لنا : « ايها السادة ! لقد انتهت مغامراتي العسكرية ، واصبح في استطاعتكم الآن وقف جهودكم على تنظيم قواتنا المسلحة . »

ووضع اركان القيادة العليا منهج اعادة تسلح المانيا . وكان الجيش ، الذي سمح مؤتمر الصلح في فرساي للالمان بالاحتفاظ به والمؤلف من سبع فرق مشاة ، نواة الجيش الالماني الجديد . فقررت القيادة زيادة عدد فرقه على مراحل الى ان يستكمل سنة ١٩٤٣ العدد الذي حدده هتلر في قراره وهو ست وثلاثون فرقة ويتم تنظيمه بشكل نهائي . اما البحرية والتحصينات فقد ضربت القيادة الالمانية موعداً لانجازها سنة ١٩٤٥ ، اي ان القيادة العليا طلبت عشر سنين لاعادة تسليح المانيا .

قال جودل : « لم يضغط القواد الالمان مطلقاً على هتلر لحمله على اثارة الحرب ، بل سعى بلومبرغ وفريتش وبيك وبراوشيتش دائماً الى تهدئته وطلب السلام . وقد كنا نحن العسكريين جميعاً نعارض كل سياسة قد تؤدي الى الحرب . وسنة ١٩٣٧ ابلغنا الفوهرر اننا لا نستطيع التفكير في خوض غمار الحرب قبل سبع سنين او ثمان . »

وقال بلومبرغ : « كنا نعرف جميعاً ان قضية حدود المانيا الشرقية قد اثيرت وانها ستحسم يوماً . ولكننا لم نكن نفكر باي عمل حربي قبل ان نصبح مستعدين الاستعداد اللازم لذلك . »

وادلى الماريشال ميلخ مفتش السلاح الجوي الالماني العام بتصريحات طويلة امام المحكمة والمحققين في صدد استعداد المانيا

الحربي . ومما قاله : « لم يؤسس السلاح الجوي الالماني الا سنة ١٩٣٥ . وكان التدريب لطائرات المطاردة محدداً بثمانية عشر شهراً ، ولقاذفات القنابل بسنتين . ولكن الطيران الالماني كان بحاجة ماسة الى ضباط مدربين يترأسون التشكيلات والفصائل والوحدات الجوية . وكان تدريب الضباط الشبان على القيادة الرشيدة تدريباً تاماً يقتضي عشر سنين . »

وهكذا اجمعت قيادة الجيش وقيادة الطيران وقيادة الاسطول على طلب عشر سنين من السلم لاعادة تسليح المانيا تسليحاً كاملاً ، اي حتى سنة ١٩٤٥ . وقال غورنغ نفسه بمحاضرة القاها في قواد السلاح الجوي في الثاني من كانون الاول ١٩٣٦ (الوثيقة ٣٤٧٤) : « اننا نريد فترة هدوء وسلام تمتد حتى سنة ١٩٤١ . »

ولكن انى لهتلر ، الذي كان يتحرق شوقاً الى العمل ، ان يرضى بالانتظار عشر سنين ؟..

قال بلومبرغ : « في شباط ١٩٣٦ بينما كانت المعارض الشتوية مقامة في غارميش بارتنكرشن ، انتحى بي هتلر جانباً وقال لي : « قررت ان احتل رينانيا عسكرياً . وسيحدث هذا دهشة عظمى . »

وكانت بنود معاهدة الصلح الخاصة برينانيا ومعاهدة لوكارنو تعطي فرنسا ضماناً هاماً لسلامتها بنزع سلاح حوض الرين . وقد قبلتها المانيا وايدتها انكلترا وايطاليا . وكان قرار هتلر باعادة تسليح رينانيا خرقاً لهذه البنود وتحدياً جريئاً للدول الاوروبية جمعاء .

ومضى بلومبرغ يقول : « اذهلني قول هتلر . وبدا لي من الثابت ان فرنسا لن تسمح لنا بارسال قوات الى رينانيا ، وانها ستجيب على ذلك بعمل عسكري . وشاركني ريدر وغورنغ هذا القلق ، وقبل هذا الاخير ان يسعى لدى الفوهرر لاقناعه باننا لسنا في حالة تسمح لنا بان نعرض البلاد لخطر حربي . ولكن هتلر استطاع ان يقنع غورنغ بصواب رأيه . وقد اكد لنا الفوهرر : « ان فرنسا لن تتحرك . وبعد ، فاذا وقع ما تخشون وشعرنا بالخطر ، فمن السهل ان نتراجع ونسحب قواتنا من رينانيا . »

وتمّ الامر بكل بساطة وسهولة . ففي مساء العاشر من آذار نقلت القيادة بالسكة الحديدية خمسة افواج تابعة للجيوش السادس والتاسع والثالث عشر الى مـــا وراء نهر الرين . وكان الجنود الالمان مزودين بكامل سلاحهم وعتادهم .

وفي عشية ذلك اليوم عقد القادة الالمان مجلساً حربيـــاً في برلين . وكان القلق مستحوذاً على النفوس .

قال جودل : « اقترح فريتش على الفوهر ان يصدر بياناً يتعهد فيه بالامتناع من تحصين حوض الرين ، فـلم يلق اقتراحه اذناً صاغية . »

ومما قاله بلومبرغ في هذا الصدد : « كان من المتفق عليـه بيننا ان نسحب قواتنا القليلة التي ارسلناها الى رينانيا حالاً اذا احدث عملنا رد فعل قوياً في فرنسا . واستوضحنا الفوهرر المراد بعبارة « رد فعل » فأوضح انها تعني دخول الجيوش الفرنسية الى رينانيا ،وأكد ان اي احتجاج رسمياً كان او غير رسمي ، شديداً

كان او ضعيفاً ومهما بلغ من العنف ، لن يحمله على التراجع خطوة واحدة . »

ومعنى هذا ان اقل حركة عسكرية تبدر من فرنسا كانت كفيلة بحمل الالمان على التراجع . فماذا كان رد الفعل في فرنسا ؟

طلب الجنرال غاملان في مجلس الوزراء ان تعلن التعبئة العامة فلم يؤيده سوى ثلاثة وزراء وهم موريس سارو ، وماندل ، وفلاندان .

قال جودل : « كنا يومئذ اشبه بلاعب يجازف بكل ثروته في حدفة زهر . وكان الجيش الالماني في اقصى حدود الضعف لان المائة الف رجل الذين يشكلون جيش السلم المحدد بمعاهدة الصلح ، كانوا موزعين على وحدات كثيرة ليدربوا الجنود الجدد . »

وقال بلومبرغ : « كنا متأكدين من ان الفرنسيين سيردون لنا التحية باحسن منها ! ولم يكن في استطاعتنا سوى اعتراض سبيل القوات الفرنسية اذا حاولت عبور الرين . وكان جيشنا ضعيفاً وسلاحنا الجوي اضعف . وكانت الطائرة الوحيدة التي تستطيع حمل قنبلة هي « جو ٥٢ » وكانت بطيئة كل البطء . »

ولم يدم قلق الالمان سوى اسبوع . وصدق حدس هتلر ، فما حركت فرنسا ولا الحلفاء ساكناً .

خطة للهجوم سنة ١٩٣٧

في الساعة الثامنة والنصف من مساء الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٧ ، استدعى هتلر الى مقره الماريشال فون بلومبرغ وقائد الجيش الاعلى فون فريتش وقائد الاسطول البحري الاميرال ريدر وغورنغ قائد السلاح الجوي ووزير الخارجيـــة فون نورات . وكان الكولونيل هوزباخ ، مـــن هيئة اركان الحرب ، كاتب الجلسة . وقد دون محضر هذه الجلسة في احدى الوثائق الرئيسية في ملف قضية نورمبرغ تحت رقم ٣٨٦ .

قال هتلر في بداية الاجتماع : « ان ما دعوتكم اليوم من اجله لأمر خطير اهم من ان يطرح للمناقشة امام مجلس الوزراء . انه نتيجة تفكير عميق في الحالة السياسية الحاضرة وتجارب اربع سنين . واذا متُ فليكن ما سافاتحكم به ارادتي الاخـــيرة ووصيتي . ان هدف السياسة الالمانية هو تأمين سلامة الوطن والشعب وتقدمه وازدهار البلاد . والمشكلة التي نواجهها اليوم هي مشكلة المدى الحيوي للشعب الالماني الذي يبلغ خمسة وثمانين مليون نسمة ويعيش في بلاد صغيرة جداً ، يهدده خطر عظيم بوقف تطوره وتجويعه واضعافه . ان لدى المانيـــا كفايتها من الفحم وفي استطاعتها عند الحاجة تأمين ما يلزمها من الحديد والمعادن الخفيفة والمواد الدهنية بنفسها . ولكنها لا تملك الخشب الكافي ، وليس

لديها شيء من النحاس او القصدير . الا ان المشكلة الرئيسية ليست هنا . ان معضلة الخبز هي التي تشغلنا . فالارض الالمانية اعطت اقصى حد من نتاجها وقد بدت عليها دلائل الفساد لكثرة الاسمدة الكيمائية التي حشوناها بها . والشعب الالماني يزداد باطراد بنسبة خمسمائة وستة وثمانين الف نسمة في السنة ، لهم كسواهم الحق في كفايتهم من الخبز . أو تستطيع المانيـــا الحصول على هذا القوت الحيوي باستيراده ؟ كلا ، لأن اعتماد المانيا على الاسواق الخارجية في الحصول على قوتها الضروري يمنعها من بناء مستقبل ثابت الاسس قوي البنيـــان ، ولأن البلاد التي كانت تصدر المواد الغذائية مقابل المصنوعات اخذت منذ انتهاء الحرب تهتم بالناحية الصناعية في اراضيها لتستغني عن الاسواق الخارجية الصناعية . ان العالم يسير بخطى حثيثة نحو نظام الامبراطوريات الاقتصادية المغلقة . ولا شك في ان البلاد التي ترتكز حياتها الاقتصادية على الاستيراد تصبح في حالة عسكرية حرجة . انكم لا تجهلون ان المانيا ، التي تعتمد في تجارتها الخارجية على الطرق البحرية في الدرجة الاولى ، ستقع تحت قبضة انكلترا ومراقبتها . وعلى هذا لا يمكننا ولسنا نريـــد ان نتكل ، في زيادة الاغذية اللازمـة للشعب الالماني ، على زيادة استيرادنا . افأرضى اذاً او يرضى احد بخفض مستوىً معيشة الشعب الالمـــاني الذي سعيت واسعى منذ ١٩٣٣ الى رفع شأنه ؟ كلا ، ان هذا لن يكون ابـداً . »

وعلى هذا ، لم يكن هناك من مخرج في نظر الفوهرر سوى

التوسع . قال في هذا الصدد : « ان السعي الى توسيع المدى الحيوي كان ، في كل زمن وعصر منذ بداية التاريخ ، السبب الاساسي لانشاء الدول ، ولكل حركة وطنية . وطبيعي الا تستسيغ عصبة الامم ولا البلاد المكتفية ، هذا القول لانها لا تشعر بما يشعر به الشعب الالماني . وبعد فمتى كان الشبعان يحس بآلام الجائع ؟

« ان المدى الحيوي الذي نحتاج اليه يجب علينا ان نفتش عنه في اوروبا وحدهـا لأننا لا نريد ان نحذو حذو الدول الرأسمالية التي تعتمد على استثمار مستعمراتها . اننا لا نريد استعباد الشعوب ، بل فتح اراض صالحة للاستثمار الزراعي . وطبيعي ان نفتش عن هذه الاراضي في اوروبا ، بجوار الرايش مباشرة لا فيما وراء البحار . ينبغي لنا ان نصّفي هذه المعضلة في جيل او جيلين . اما المهام التابعة فاننا ندعها للاجيال الآتية . »

ولم يكن هتلر ينكر الاخطار التي تكتنف هذا العمل او يخافها . فقد قال : « يدلنا التاريخ ، منذ الازل ، سواء تاريخ الامبراطورية الرومانية او الامبراطورية البريطانية ، على ان كل توسع لم يتحقق الا بتذليل عقبات كأداء وتحطيم مقاومة عنيدة وركوب الاخطار حتى قبول الهزائم . وما كانت الارض يوماً بدون مالك . وطبيعي ان يصطدم المهاجم بصاحب الملك . فالمهم اذاً اختيار المناطق التي يمكن فتحها باقل ثمن ممكن . » .

وتكلم الفوهرر بعدئذ طويلاً عن فرنسا وانكلترا ، الخصمين اللذين لا بد لالمانيا من مجابهتهما والاصطدام بهما في طريقها . فقال

ما اسلفنا تبيانه وهو يلخص في ان فرنسا في انحطاط مطرد ومهددة بثورة داخلية ، وان انكلترا مجردة من السلاح مضطربة منهمكة بمشاكل امبراطوريتها وعازمة على اجتنـاب الحرب . ولم يتحدث عن الولايات المتحدة ولا عن روسيـا . ومضى يقول : « ان المعضلة الالمانية لا تحلّ الاّ بالقوة . وفي هـذا اخطار ومجازفة . ولكن حملات فريدريك الثاني من اجل سيليزيا وحروب بسمارك ضد النمسا وفرنسا كانت ايضاً مجازفات كبيرة . فاذا اعتزمنا الاتجاه الى القوة والاقدام على المجازفة ، لم يبق لنا سوى الاجابة عن هذين السؤالين : متى نعمل وكيف نعمل ؟ »

وكان اول اهداف هتلر احتلال النمسا وتشيكوسلوفاكيا في وقت واحد . فتأمن المانيا كل خطر على جنبها في حالة اشتباكها بحرب مع الغرب ، وتضمن بسهولة حياد بولونيا التي كان الالمان يخشون ، في حال اخفاقهم ، ان تحاول الاستيلاء على بروسيا الشرقية وسيليزيا .

قال هتلر متابعاً سرد خطته لكبار قواده : « بالرغم من ان سكان تشيكوسلوفاكيا كثيرون ، فان استيلاء المانيا عليها وعلى النمسا معناه تأمين القوت لخمسة ملايين او ستة من الالمان ، اذ لا بد لمليوني تشيكي ومليون نمسوي من الهجرة . ثم ان ضم هاتين الدولتين سياسياً وعسكرياً الى المانيا يريحنا كثيراً لانه يجعل حدودنا اقصر ويحسنها ، ويتيح لنا تسريح عدد كبير من جنودنا لاستخدامهم في اعمال اخرى ، ويسمح لنا بان نؤسس جيشاً جديداً قوامه اثنتا عشرة فرقـة ، اي فرقة مـــن كل

مليون نسمة . »

اما عن السؤال الثاني وهو متى يبدا العمل ، فقد عرض الفوهرر ثلاث خطط مختلفة تقضي اولاها بان يجري العمل خلال سنتين بين ١٩٤٣ و ١٩٤٦ وتكون المانيا عندئذ قد بلغت الكمال في تسلحها . ولكن هذه الخطة مهددة بما يحتمل ان يتخذه خصوم المانيا في غضون ذلك من تدابير قد تضعف قوة المانيا بالنسبة لليهم . ثم ان هناك الخوف من شيخوخة الحزب الاشتراكي الوطني . ومهما يكن من امر هذا الموعد ، فانه كان آخر ما حدده الفوهرر لحسم مشكلة المدى الحيوي .

وقال هتلر عن موقف انكلترا وفرنسا : « انني واثق بان انكلترا وربما فرنسا ايضاً قد يئستا من استمرار تشيكوسلوفاكيا في وضعها الراهن ، وانهما تعترفان بان المانيا ستصفي حسابها معها يوماً . ولن تتدخل انكلترا على الارجح لانها تشفق من خوض غمار حرب طويلة فيها خطر على امبراطوريتها . اما فرنسا فهي لن تعمد الى الهجوم بمفردها . وليس لنا ان نتوقع اعتداء من ايطاليا ما دام الدوتشي حياً . وستكون السرعة التي سنضرب بها ضربتنا رادعاً لبولونيا عن الاقدام على اي عمل ضدنا ، خصوصاً وان روسيا واقفة لها من خلفها بالمرصاد . اما روسيا فسنعرف كيف نوقفها عند حدها . »

هذه هي الخطة الاولى التي عرضها هتلر والتي لم تكن تعجبه بقدر الخطتين الاخريين وهما : الاولى : « اذا وقعت اضطرابات في فرنسا جعلت الجيش الفرنسي عاجزاً عن التعرض لألمانيا ،

وحان وقت انزال الضربة بتشيكوسلوفاكيا ، والثانية : « اذا نشبت حرب في فرنسا ودولة اخرى اتيح لالمانيا تحقيق اغراضها في التوسع بسهولة وبدون اي خوف . »

اما عدوة فرنسا التي تحدث عنها هتلر فهي ايطاليا . وعلل زعمه هذا بالتوتر القائم في المتوسط بسبب الحرب الاهلية الاسبانية وقال : « ان انتصاراً سريعاً يحرزه فرانكو في اسبانيا لا يوافق مصلحة المانيا لان استمرار الحرب الاهلية الاسبانية زمناً طويلاً يتيح لايطاليا فرصة التمركز في ارخبيل الباليار على خط مواصلات فرنسا الرئيسي ، وبالتالي يكره فرنسا على حشد قوات كبيرة ضد ايطاليا . فاذا اغتنمتها المانيا فرصة لتصفية حساب النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، فلا يتاح لانكلترا ، التي ستشترك حتماً مع فرنسا في الحرب ضد الطليان ، ان تتعرض لالمانيا بشر . »

هذا هو العرض الذي بسطه هتلر لقواده في الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٧ . وقد وجدت فيه هيئة الاتهام في محكمة نورمبرغ الدليل القاطع على تدبير هتلر الحرب وتصميمه عليها . وقد اعترف غورنغ بعد استجواب طويل بان المحضر الذي خطه الكولونيل هوزباخ والمدون في الوثيقة ٣٨٦ تضمن نيات هتلر وآراءه .

ولكن هل كانت هذه حقيقة نيات هتلر باجمعها وآراءه النهائية ؟ ان في مقدمة عرض هتلر ونتيجته تناقضاً بيناً . فان من الثابت ان ضم تشيكوسلوفاكيا والنمسا الى المانيا مع اعتبار هجرة مليوني تشيكي ومليون نمسوي ممكنة (وكانت هذه الهجرة

مستحيلة لان حدود الدول كانت مغلقة دون المهاجرين) لم يكن ليعطي المانيـــا المدى الزراعي الحيوي الذي اشار اليه هتلر في خططه . وعلى هذا لم يكن منهاج الخامس من تشرين الثـــاني ١٩٣٧ سوى مقدمة للتوسع الالماني الحقيقي نحو الشرق .

والواقـــع ان هتلر لم يحدد موعد الهجوم على النمسا وتشيكوسلوفاكيا بالفترة الواقعة بين ١٩٤٣ و١٩٤٥ الا لانه لم يكن يومذاك يملك الجرأة الكافية للضرب عرضاً بالموعد الذي حددته هيئة القيادة الالمانية العليا لاستكمال تسليح المانيا . ومـا كانت الصورة التي رسمها لاحتمال نشوب حرب فرنسية – انكليزية – ايطالية الا لانه كان يريد استباق الزمن . ولم تقع هذه الحرب ، وانتهت الحرب الاهلية الاسبـــانية في بداية ١٩٣٨ بالرغم من كف المانيا عن مساعدة فرانكو بنـــاء على اقتراح غورنغ في تشرين الثاني ١٩٣٧ .

ولم يثن ذلك هتلر عن العمل باسرع مما كان منتظراً لان مرور الزمن كان يقض مضجعه .

قال بلومبرغ : « وجد القواد الالمان آراء الفوهرر سخيفة وقابلوا عرضه في جلسة الخامس من تشرين الثاني بصمت وفتور . » وقال هالدر : « ان ما اعرفه هو ان فريتش اسرّ الى صديقه الجنرال بيك : « خيل اليّ وانا استمع الى بيـان الفوهرر انني في حضرة مجنون . »

وحاول نورات وبلومبرغ وفريتش ان يناقشوا الفوهرر في خططه . وتتضمن الوثيقة ذات الرقم ٣٨٦ من ملف قضيـــة

نورمبوغ خلاصة الاعتراضات التي جابهوا هتلر بها . فقد لفت نورات نظر الفوهرر الى ان الحرب الفرنسية – الانكليزية – الايطالية لم تكن تبدو محققة ولا قريبة الوقوع كما يظن . فاصرّ هتلر على رأيه .

وجاء في محضر الجلسة « ان الفيلد ماريشال فون بلومبرغ والكولونيل جنرال فون فريتش ذكرا مرات عديدة ان الحرب لا تبدو قريبة الوقوع بين فرنسا وايطاليا ، وانها ، في حال وقوعها ، لن تمنع الفرنسيين من الهجوم على المانيا اذا اعتدت على تشيكوسلوفاكيا والنمسا . واكد الكولونيل جنرال فون فريتش ان القيادة الفرنسية لن تحشد ضد ايطاليا اكثر من عشرين فرقة وتترك القسم الاعظم من جيوشها على حدود المانيا ، واشار فون بلومبرغ الى ضعف التحصينات الالمانية في الغرب والى قوة جهاز الدفاع التشيكي على الحدود وشبهه بخط ماجينو . »

ولكن هذه الاعتراضات ذهبت سدى ، واصغى اليها هتلر بكثير من الغضب وضيق الصدر .

هتلر قائد اعلى

في مطلع سنة ١٩٣٨ ابلغ الفيلد ماريشال فون بلومبرغ الفوهرر عزمه على الزواج بسكرتيرته ، وقال انها من عائلة متوسطة ، وانه يحبها من عهد بعيد . فوافق على الزواج وحضر حفلته مع غورنغ .

وكان المعروف حتى عهد قريب ان بلومبرغ اضطر الى التخلي عن منصبه كوزير حرب بعد زواجه ، لان هذا الزواج اثار انتقاد زملائه وسخريتهم . الا ان محاكمة نورمبرغ كشفت القناع عن سر عزل بلومبرغ من منصبه . فقد روى غورنغ للمحققين هذه القصة : « في اليوم التالي لزواج بلومبرغ تلقيت ملفاً وقضيت ثلاث ساعات في مطالعته ، فاثر في كل التأثير . وكان تقريراً رفعه احد مفوضي الشرطة في الضواحي عن سيرة زوجة الماريشال فون بلومبرغ ارنا غروبر واسر غورنغ بقية القصة في اذن قاضي التحقيق .

« الا ان الماريشال هالدر قال بدون مواربة عن المرأة التي اختارها بلومبرغ زوجة له ، انها مومس معروفة تنقلت في مدن عديدة . » واعترف بلومبرغ نفسه بهذا فقال : « كان سلوكها موضع بعض الريبة . ولكن ذلك قديم العهد . »

وقال غورنغ متابعاً شهادته (على المكشوف) : « فاضطررت

الى ان ابلغ الفوهرر حقيقة الامر . فثار لكرامته وقال ان بلومبرغ اهانه اذ دعاه لان يكون اشبيناً في زواج لا يشرف . وطلب اليّ ان انذر بلومبرغ بان يستقيل . وكانت مهمة شاقة. وعرضت على بلومبرغ ان يطلق زوجه ، فرفض . »

ولكن بلومبرغ فصّل حديثه مع غورنغ واوضحه فقال : « سألت غورنغ اذا كان انفصالي عن زوجتي او طلاقنا يرضي الفوهرر فيعدل عن طلبه استقالتي ، فاجابني بان ذلك لا يبدل قرار الفوهرر ونصحني باسم هتلر ان ابتعد عن المانيا بعض الزمن . »

وهجر بلومبرغ المانيا الى ايطاليا مع زوجته ، وابتعد من المسرح السياسي . ومن قائل ان هملر دبر هذه المؤامرة لابعاده ، ومن زاعم ان هتلر هو الذي اراد التخلص منه . ولعل هذا الرأي هو الاصوب لان الاحداث التي تبعته ترجحه .

ولم يكد يمضي شهر على هذه القضية حتى اثيرت فضيحة فريتش . فقد اتهم هذا ، وهو من اكبر زعماء المانيا وقائد الجيش ، بجريمة اخلاقية دنيئة ، فطلب هتلر منه ان يستقيل حالاً . قال غورنغ : « كانت هذه التهمة باطلة مدبرة ومؤامرة حاك هملر وهايدريش خيوطها ، وجاءا بشاهد اكد انه شهد فضائح فون فريتش . ولما علمت بالامر تأكدت من انه كذب وبهتان . وكان الواشي من اذناب الشرطة ، واكرهته على الاعتراف بالحقيقة ، فعلمت انه اجاد تمثيل الدور الذي لقنوه اياه ، فخلط بين اسم قائد الجيش وضابط يدعى فريتش .

« وطلب القائد المتهم ان يحاكم امام مجلس شرف ، فكان له ما اراد . وترأستُ المجلس بنفسي فثبتت لنا براءته . فطلب الى الفوهرر ان يعيده الى منصبه ، فرفض . ولم يقتنع بانه بريء ، بل اعتقد ان الجيش ادخل الضابط الذي يشبه اسمه اسم فريتش في القضية لينقذ الجنرال . ثم انه كان يحقد على فريتش شخصياً . » وقد قتل فريتش في الحملة البولونية وكان برتبة جندي بسيط .

ولا شك في ان ابعاد بلومبرغ وفريتش كان مدبراً لان ثمانين جنرالاً وضابطاً كبيراً طردوا من الجيش بعد حين . لقد كان هتلر يطهر الجيش من العناصر التي لا تعجبه روحها المسالمة كما قال غورنغ . وابعد فئة من الجنود كانت تقدر مسؤولياتها الشخصية وتطلب الاستقلال في القيادة العسكرية وحق ابداء الرأي .

قال ماريشال الجو ميلخ في نورمبرغ : « كان بلومبرغ الجندي الوحيد الذي يستطيع ضبط القضايا السياسية والعسكرية ، والوقوف بوجه هتلر كما فعل مرات عديدة . وكان الذين خلفوه ضعفاء عاجزين عن معارضة الفوهرر . ولعلّ هذا ما حمله على اختيارهم . »

وكان الماريشال فون بلومبرغ قد سند هتلر ضد « روهم » في الثلاثين من حزيران ١٩٣٤ واقر هزيمته وموته . وظن انه بهذا يمثل الدور الذي كلفه بتمثيله رئيسه القديم هندنبرغ ، وهو تنظيم الثورة النازية والتخفيف من غلوائها وتوجيهها . وكانت

موافقته لهتلر في احـكام الاعدام التي اصدرها على الخوارج في برلين ومونيـخ ، ميثاقاً ربط الجيش بهتلر . ولكنه منذ اللحظة التي بدأ فيها بمعارضة آراء الفوهرر المتعلقة باعادة تسليـح المانيا وبالسياسة الخارجية ، ومنذ اللحظة التي اراد فيها قائد الجيش ان يقف سداً دون الاندفـاع في طريق المغـامرة ، تربص هتلر ببلومبرغ الفرص ، ثم سحقه ، فاستكان له الجيشُ وانضوى تحت لوائه .

يقول الجنرال غودريان : « بعـد عزل بلومبرغ وفريتش ثم بيك ، لم يبق حول هتلر سوى قواد يأتمرون امره ولا يعترضون على رأي من آرائه . »

واناب الفوهرر عن فون فريتش فون براوشيتش . وحل هو نفسه محل الماريشال ويرنر فون بلومبرغ في القيادة العليا . وبعد ايام معدودة صدرت قرارات بتأليف هيئة قيادة عليا تشرف ، برئاسة هتلر ، على قيادة الجيش والصناعة الحربية وتنظيم الدولة زمن الحرب وبث الدعاوة وغير ذلك من خطير الشؤون .

ولم يشعر العالم يومذاك بهذا الانقلاب . الا ان الانقلاب كان ذا مغزى عميق وخطر جداً . فقد وضع بين يدي رجل واحـد زمام سلطان عسكري واسع المدى . واصبحت المانيـا على قدم الاستعداد الفعلي للحرب منذ اللحظة التي تم فيها تأليف هيئـة القيادة الجديدة وعلى رأسها هتلر .

وكان هذا الانقلاب ثوريـاً اذ انه كرس سقوط جمـاعة البروسيين والعسكريين الذين كانت مهمتهم التقليدية قيادة الحروب

وتنظيم الجيش . وانتقل التصرف بقدرات الشعب الالماني ، في حال نشوب حرب ، من العسكريين البروسيين الى ادولف هتلر. ولم يكن الخلف ، لسوء حظ العالم ، خيراً من السلف .

وفي ملف قضية نورمبرغ وثيقة طويلة مؤرخة ١٩ نيسان ١٩٣٨ ، عنوانها : « قيادة الحرب قضية من قضايا التنظيم الداخلي الاساسي في الدولة » . وهي تحمل توقيع كايتل . وقد يكون هتلر هو الذي املاها.. وفيها زبدة خطب هتلر و كتاباته ، وتمتاز بعنف لهجتها وطول نفسها وغموضها . وهي جواب على مذكرة للقيادة العليا تنتقد فيها التنظيم الجديد وحصر الصلاحيات بيد واحدة . وهذه خلاصتها :

« من الامور المناقضة لمبدإ الحرب الاجماعية ، الاعتقاد بان طرق تنظيم قتال الجيوش يمكن فصلها عن تنظيم اقتصاد البلاد والدعاوة بشكل يجعلها تنطبق على ضرورات الحروب (الوثيقة تتحدث عن الحروب سنة ١٩٣٨ ، اي قبل نشوب الحرب العالمية الثانية) . ان هذه الشؤون مرتبط بعضها ببعض . ولكن القائد الاعلى الذي يديرها لا يكون اكثر من قائد خيالي – كالقيصر الروسي مثلاً ابان الحرب الاخيرة – اذا لم تساعده هيئة قيادة عليا مسؤولة تجاهه .

« ان قيادة الجيش البري تطلب ادارة الجيوش الالمانية كافة . ولا شك في ان جيوش البرّ تشكل القسم الاهم من جماع قوى الدولة . ولكن هذه الافضلية قد تصبح للبحرية او للسلاح الجوي في حال اشتباك الرايش بدول بعيدة عن حدود المانيا ، كانكلترا

او روسيا مثلاً .

« ان كل تقدم في العالم يقتضي تضحيات . ولن تكون هناك دولة المانية موحدة اذا لم تتنازل جميع بلدان الرايش عن سيادتها . ولا يمكن ان يكون ثمة جيش الماني موحد اذا لم يعتبر الجيش البري والبحرية والسلاح الجوي اجزاء تشكل وحدة غير منفصلة ، واذا لم تخضع لتنظيم قيادة عليا .

« قد يقول معترض ان من العسير على قائد ان يربح معركة اذا اتبع آراء سواه وخططه . فالجواب على هذا هو ان من واجبنا نحن جنود المانيا ان ننتصر حسب مبادىء رئيس الدولة الاعلى وتعاليمه العسكرية . ان ادارة الحرب الاجماعية من اختصاص الفوهرر . »

وهكذا اصبح ادولف هتلر ، العريف سنة ١٩١٨ ، وضابط قسم الدعاوة التابع للجيش سنة ١٩١٩ ، القائد الاعلى لجيوش الرايش الالماني الثالث وسيد المانيا المطلق .

الازمة التشيكية

لا تأتي وثائق نورمبرغ بجديد عن مجرى قضية ضم النمسا الى المانيا . ولكنها تتضمن اعتراف القواد الالمان بان اقل معارضة جدية من الدول الغربية كانت كافية لمنع المانيا من الاقدام على هذا العمل .

قال كايتل : « كان الجيش الالماني ضعيفاً وفي طور التنظيم على المنهج الذي خطه له هتلر . ولم يكن لديه احتياطي . وكنت متفقاً مع الماريشال فون بلومبرغ والجنرال فون فريتش ، على اعتبار المانيا عاجزة عن خوض غمار الحرب . ولكنني كنت واثقاً بان قضية الانشلوس (ضم النمسا الى الرايش) ديبلوماسية بحتة وانها لن تثير حرباً . »

في العاشر من آذار ، لما علم هتلر بالاستفتاء الذي اجراه شوشنيغ ، طلب اعداد القوات القادرة على الزحف . وفي اليوم التالي وقع قرار اجتياح النمسا (الوثيقة ١٠٢ من وثائق نورمبرغ) وامر بان يتم الاستعداد قبل ظهر الثاني عشر من آذار فيبدأ العمل بقيادته . وكانت التدابير بسيطة وتناولت اعداد الفيلق الثامن الذي كان مرابطاً على حدود النمسا .

وقد تضمن الامر الصادر في الحادي عشر من آذار « الا تتخذ على حدود المانيا الاخرى اية تدابير في الوقت الحاضر » ،

كأن هتلر كان واثقاً بانه لن يصطدم بمعارضة خارجية جدية . وكان الزحف على فيينا نزهة عسكرية . واستسلمت النمسا لهتلر واستقبلته بباقات الزهور وهتافات الترحاب ونشوة الفرح . واخفى هذا الانتصار الخاطف حقيقة حالة الجيش الالماني واظهره بمظهر القوي على ضعفه .

وجاء دور تشيكوسلوفاكيا . وكان هتلر واثقاً بان التشيكيين لن يحركوا ساكناً . واكد ذلك لبعض قواده ومنهم هالدر . الا انه اراد ان يصبر بعض الوقت لان الموقف السياسي لم يكن بعد واضحاً .

قال جودل في مذكراته : « بعد ان ضمت النمسا اعلن هتلر انه لا يرى مبرراً لاستعجال تصفية القضية التشيكية اذ لم يكن بد من انقضاء فترة على الضربة النمسوية تبدد الاثر الذي احدثته في العالم . »

وفي العشرين من ايار فاتح هتلر اركان الحرب بنياته قال : « لا اريد الاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا في مستقبل قريب بهجوم عسكري » . ولكنه في الثلاثين من الشهر ذاته اعلن لقواده عزمه على سحق تشيكوسلوفاكيا حالاً . فما الذي حمله على تبديل قراره فجأة في اقل من عشرة ايام ؟

لقد وقعت احداث هامة في هذه الفترة . ففي صباح الحادي والعشرين اطلق خفير تشيكي النار على جنديين من السوديت كانا يحاولان اجتياز الحدود بالقرب من ايغر على دراجتين ناريتين وقتلهما . ووجدت السلطات التشيكية معهما نشرات تدعو

الى الثورة . وتكررت حوادث الحـدود وحمي وطيس حرب الاعصاب والاذاعات المفرغة ، وازداد خوف الحكومة التشيكية من المانيا فاعلنت التعبئة العامة . وكانت تدبيراً سابقاً لاوانه اعطى المانيا حجة تذرعت بها لتحقيق اغراضهـا . ولم تحرك حكومة الرايش ساكناً وظن العالم ان الفوهرر تراجع .

وقد شرح جودل في مذكراته هذه الفترة فقال : « لما اعلنت حكومة براغ التعبئة العامة في الحادي والعشرين من ايار ، بدل الفوهرر خطته القاضية بتأجيل اثارة القضية التشيكية ، لان تلك التعبئة لم يبررها تهديد الماني ولا اي سبب جـدي آخر . وعلى هذا اصدر امراً جديداً يتعلق بخطة الحملة التشيكية التي كنا نومز اليها بالخطة الخضراء . »

رسمت هذه الخطة في شتاء ١٩٣٧ – ١٩٣٨ عـلى اساس تقرير عسكري نظري وضعه الجنرال فون فريتش . وبعد ضم النمسا ، اضيفت اليها عدة تدابير تمهيدية حتى اصبحت في الثلاثين مـن ايار ١٩٣٨ خطـة عسكرية واضحة للهجوم عـلى تشيكوسلوفاكيا .

وشعر اركان الحرب الالماني بالقلق والخوف مـن اضطرار المانيا الى خوض الحرب بجيش غير كامل العدة والعدد . وكانوا – على الرغم من عزل بلومبرغ وفريتش – مصرين على طلب السلام حتى سنة ١٩٤٥ وهو الموعد المحدد لاستكمال تنظيم الجيش الالماني الجديد الذي امر هتلر باعداده . وزاد في قلقهم انه لم يبق من الرؤوس العسكريين الثلاثة الكبار سوى الجنرال بيك رئيس

اركان الحرب العامة في البر . وكان هذا عنيداً مقداماً واعياً ، عارض في الهجوم على تشيكوسلوفاكيا ووصفه بالمغامرة الجنونية . ومما تضمنته مذكرات جودل في هذا الصدد : « ازدادت المعارضة بين رأي هتلر القاضي بالعمل السريع ، واراء قواد الجيش القائلة بالتريث خوفاً من تدخل الدول الغربية تدخلاً عسكرياً . »

وفي حزيران استدعى هتلر براوشيتش وبيك وامرهما باعداد العدة للهجوم على تشيكوسلوفاكيا . ورسم الخطط للاستيلاء على البلاد باسرها . واملى عليهما امراً جديداً معروفاً بامر الثامن عشر من حزيران وهذه خلاصته : « ليس لالمانيا ان تخشى حرباً تغل يديها عن الاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا . وهي الى هذا غير مرتبطة باي حلف يمكن ان يجرها الى الحرب ، وهي ، بالتالي ، حرة في تصرفها . ان غايتي القصوى حسم المشكلة التشيكية التي تشغل المكان الاول من منهجي السياسي . ولن ادخر وسيلة سياسية في سبيل بلوغ هذا الهدف . على انني اؤكد لكما انني لن اقوم باي عمل ضد تشيكوسلوفاكيا قبل ان اتأكد – كما حدث في قضيتي احتلال رينانيا وضم النمسا – من ان فرنسا لن تهاجمنا وان حليفتها انكلترا لن تتدخل . »

وكان هذا التصريح باعثاً على اطمئنان اركان الحرب لانه يبعد خطر نشوب حرب عامة ولا يترك سوى احتمال نشوب حرب محلية محصورة تستطيع المانيا في صيف ١٩٣٨ خوض غمارها بنجاح اكيد . ولكن مخاوف القواد لم تهدأ . ورفع الجنرال بيك الى الفوهرر مذكرة رداً على امره الاخير . ولا

يتضمن ملف نورمبرغ نص هذه المذكرة . الا ان فحواها معروف . وصرح كايتل وبراوشيتش بانهما اطلعا عليها . وقد وجدها هالدر ، الذي خلف بيك في منصبه ، بين اوراقه . ومما قاله عنها في نورمبرغ : « لا اشك مطلقاً بان هتلر اطلع على هذه المذكرة لانه ذكرها لي كدليل على ضعف اركان الحرب وقصر نظرهم ، لما خلفت الجنرال بيك . وقد تضمنت تحذيراً لهتلر من ان تثير محاولته تحقيق مطامعه بالقوة ، حلفاً على المانيا فتمنى بهزيمة جديدة . »

ولم يشهد احد المقابلة التي جرت ، بعد المذكرة ، بين هتلر وبيك . ولكنها انتهت باستقالة هذا الاخير . فقبلها هتلر ، ولكنه طلب الى الجنرال ان يكتم خبرها حفظاً لمكانة القيادة الالمانية في نظر الشعب والعالم .

الا ان السر ذاع بعض الذيوع . ففي اوائل ايلول (قبل مؤتمر مونيخ بشهر واحد) اعلن الصحافي الفرنسي اندره بيرونو ان رئيس اركان حرب الجيش الالماني قدم استقالته لانه يعارض سياسة الفوهرر المتهورة .

ولما سلم بيك مهام منصبه الى هالدر قال له : « لا يمكن قلب نظام مبني على القوة الا بالقوة . فالاستقالات والمذكرات لا تجدي نفعاً . »

وظل بيك منذ ذلك الحين يتربص بالفوهرر الفرص ويتآمر عليه ، الى ان سقط في العشرين من تموز ١٩٤٤ صريعاً برصاص الغستابو .

وقد تلقى هتلر يومذاك (بعد ايام قليلة من مذكرة بيك) تحذيراً آخر من فون شويرن كروزيك وزير ماله . وكان هذا ، على غرار بلومبرغ ممن خلفهم هندنبرغ في الحكم ليرشدوا هتلر ويحدوا من استرساله في المغامرة ، وطنياً من الطراز القديم لا يؤمن بغير الواقع والحقائق المجردة .

قال كروزيك في مذكرته الى هتلر في اول ايلول (الوثيقة ٤١٩ من ملف نورمبرغ) : « ارى من واجبي ان اعبر لكم عن قلقي على مستقبل المانيا . ان تقرير حصر حرب محتملة الوقوع مع تشيكوسلوفاكيا بهذه البلاد فلا تمتد الى الميادين الغربية الاخرى ، متعلق برغبة انكلترا . وقد علمتني التجربة الطويلة ومعرفتي التامة بالانكليز ، ان تهديدهم بالتدخل ليس من قبيل التضليل والمظاهر الخداعة . ولن يمنعهم ضعفهم العسكري من خوض غمار الحرب لانهم يعتمدون على معونة الولايات المتحدة الاميركية وعلى ضعف المانيا الاقتصادي والمالي . ومن الخطأ الظن اننا نستطيع الحصول على المواد الاولية التي نحتاج اليها في حرب محتملة الوقوع ، بواسطة الاستيراد من جنوبي شرقي اوروبا واستثمار اراضينا . ولسوف تعمد الدول الغربية الى اضعاف الاقتصاد الالماني بالتدرج حتى تفقد المانيا تفوقها العسكري رويداً رويداً امام سيل الاعتدة الحربية والطائرات التي ستقدمها الولايات المتحدة حتماً الى اعداء المانيا . وهناك حقيقة اخرى ارى من واجبي ان الفت اليها نظركم وهي ان امة كأمتنا ذاقت اهوال الحرب ومرارة الهزيمة لا تملك القوة المادية والمعنوية

للانتصار في حرب ثانية تخوض غمارها في اقل من ربع قرن .

« لما سعينا الى استعادة حريتنا العسكرية والى استرداد رينانيا ثم الى تحرير النمسا ، كانت الامة على يقين من ان عملنا ضروري لسلامة الوطن . ولكن موقف الشعب الالماني من قضية تشيكوسلوفاكيا يختلف كل الاختلاف . واحب ان اؤكد لكم انه اذا ادى تدخلنا في تشيكوسلوفاكيا الى حرب عالمية ، يفقد الشعب الالماني ثقته بكم ويخيب فأله فيكم . »

كانت هذه النذر جريئة . ولكن الوقائع لم تصدق نبوءات بيك وكروزيك الا بعد زمن طويل . واحرز هتلر من الانتصارات ما جعله يؤمن بان تلك النصائح خاطئة .

وازدادت ازمة السوديت حدة ، وخيم على اوروبا جو رهيب ، وبسط ظل الحرب جناحيه على العالم . وفشلت المساعي لاجتناب الكارثة الواحد تلو الآخر . ومضى هتلر في الاستعداد العسكري وقطع في هذا السبيل شوطاً بعيداً . وقد اثبتت وثائق نورمبرغ انه لم يكن يهتم للمفاوضات السياسية مقدار ذرة ، بل كان يوجه كل اهتمامه نحو الاستعداد للحرب ، ولم يبدل رأيه في ان فرنسا وبريطانيا اعتبرتا تشيكوسلوفاكيا مشطوبة من الخارطة الاوروبية . وعلى هذا الاساس قرر العمل .

وفي العاشر من آب استدعى قواد الجيش والطيران والكولونيل جيشونيك والكولونيل جودل . وقد اثبت هذا الأخير في مذكراته اهم ما جرى في الاجتماع قال : « بعد ان تناولنا طعام الغداء وقف هتلر والقى خطاباً طويلاً شرح فيه

آراءه السياسية والعسكرية في صدد القضية التشيكية . فلفت بعض القواد نظره الى اننا غير مستعدين الاستعداد الكافي لحرب محتملة . وكان في مقدمة المعارضين الجنرال فيتر شايم الذي اكد ، مستشهداً برأي زميله الجنرال ادم ، ان جهاز المانيا الدفاعي في الغرب لا يستطيع الثبات امام هجوم من الحلفاء اكثر من ثلاثة اسابيع . فثارت ثائرة الفوهرر وزمجر صائحاً : اؤكد لكم ان دفاعنا قادر على الثبات ثلاث سنين .

« والواقع ان اسباب هذا التشاؤم الذي كان منتشراً بين قواد الجيش ، كثيرة ، منها ذكرى هزيمة المانيا سنة ١٩١٨ ، والخوف من قيام كتلة غربية ضد المانيا ، واعتبارات سياسية اخرى . على انه ما كان للقواد الا الطاعة التقليدية ، فانصاعوا لاوامر الرئيس الاكبر . ولئن تكن معارضة القواد خطرة على معنويات الجيش ، فانني متأكد من ان هتلر كان قادراً على استثارة همم الشعب الالماني باسلوب عجيب تفرد به . »

وفي الثامن من ايلول زار فون ستولبناغل ، رئيس قسم التسلح في الجيش ، جودل وطلب اليه ان تكون هيئة القيادة البرية على علم بموعد تنفيذ « الخطة الخضراء » (خطة غزو تشيكوسلوفاكيا) قبل خمسة ايام . فوافق جودل على ذلك مبدئياً ، ولكنه لاحظ ان تقلبات الطقس قد لا تسمح بتنفيذ الخطة في الموعد المحدد .

قال جودل يروي حديثه مع زميله : « فانحني الجنرال ستولبناغل بمخاوفه ، وقال لي انه يشتم رائحة الحرب ، وان

القضية التشيكية قد توقعنا في مأزق حرج لا قبل لنا بالخروج منه دون قتال . ومما قاله : ان المجر غير راضية عن موقف المانيا ، وان ايطاليا متحفظة . اما الدول الغربية فلا شك في انها لن تدخر وسعاً في الضغط علينا .

« والحق يقال ان عملنا كان محفوفاً بالمخاطر . وقد شعرت بان هتلر عازم على الهجوم واستعمال القوة في حال فشل خطته لفتح تشيكوسلوفاكيا بالطرق السلمية . وتبادلت الرأي مع ستولبناغل فرأينا من الضروري ، لأجتياز هذه المرحلة العصيبة التي تكتنفها المخاوف ، الا نطلع الا عدداً محدوداً من القواد على اسباب قلقنا وآرائنا فيما يخبئه الموقف السياسي من مفاجآت قد تكون وخيمة العواقب . »

وهكذا كان الشك والقلق يسودان صفوف القواد الالمان حتى المقربين من هتلر والمعجبين به . وما شك الشعب الالماني يوماً في فوهرره شكه به في الايام التي سبقت مونيخ . ولكن الدول الغربية كانت تجهل ذلك او تتجاهله .

وفي التاسع من ايلول جمع هتلر في نورمبرغ الجنرالات فون براوشيتش وكايتل وهالدر . وقد دوّن الكولونيل شموندت محضراً بهذه الجلسة تلي في محكمة نورمبرغ . ولخص الجنرال هالدر رئيس اركان الحرب العام خطة الحملة على تشيكوسلوفاكيا بقوله ان الهجوم (بشكل كلابة) الذي كلف به الجيشان الثاني والرابع عشر كان الغرض منه الاطباق على الجيش التشيكي والحيلولة دون تراجعه الى بوهيميا والاعتصام بها . وكان الدفاع

التشيكي معتبراً ضعيفاً لا يستطيع مجابهة الجيشين الزاحفين . وكان على الجيش الثاني ان يبلغ مدينة اولموتز في اليوم الثاني من الهجوم ، على ان يتوقف الجيش العاشر امام بيلسن وهي نقطة استراتيجية صعبة المسلك ، فتتم خطة الالتفاف بخرق الجنب الضعيف من الجيش التشيكوسلوفاكي . ولم تلتفت القيادة الالمانية الى الغرب ، واكتفت من الدفاع بخط سيغفريد . ولم يقم هتلر وزناً لاحتمال هجوم الجيش الفرنسي عليه من الوراء .

ولم يصدر امر تعبئة الفرق الغربية الخمس : السادسة والعشرين ، والرابعة والثلاثين ، والسادسة والثلاثين ، والثانية والثلاثين ، والخامسة والثلاثين ، الا في السابع والعشرين من ايلول في الساعة التاسعة عشرة ، اي قبل ساعات معدودة من مؤتمر مونيخ .

وعاد القواد الالمان الى برلين بعد ارفضاض اجتماعات نورمبرغ . وكان هناك حدث خطير في طور التحضير ، قال عنه هالدر في شهادته امام محكمة نورمبرغ : « قررنا يومذاك ان نتخلص من هتلر . ولكننا لم نفكر في اغتياله لان الاغتيال ليس من شيم الجنود ، بل عزمنا على ان نقلم اظفاره ونمنعه من المضي في سياسته الخرقاء . وكان المحرض على المؤامرة الجنرال بيك . ففي اليوم الاخير من مؤتمر نورمبرغ اجتمعنا في غرفتي في برلين . ولم يبق اليوم في قيد الحياة ممن حضر هذا الاجتماع سواي وسوى الليوتنان كولونيل بريهم تاتلباخ . ودرسنا المؤامرة من جميع وجوهها ، فتعهد قائد حامية برلين بان يستخدم الجيش في تنفيذ العمل ويعتقل هتلر عند عودته من نورمبرغ . واتفقنا على

ان نذيع بعدئذ بياناً على الشعب الالماني نعلمه فيه بان الفوهرر يقود المانيا الى حرب محتومة وخيمة العواقب ، وباننا رأينا ان نوقفه عند حد .

« ولم نكن قد انتهينا من اجتماعنا هــذا لما سمعنا محطات الاذاعة العالمية تعلن ان رئيس الوزارة البريطانية نيفل تشمبرلن طلب مقابلة هتلر ، وانه ركب الجو الى برشتسغادن . فاحبط هذا النبأ خططنا لان هتلر لم يعد الى برلين ، بــل سافر الى برشتسغادن ليستقبل تشمبرلن ، ولاننا لم نبق نستطيع تسلم مقاليد الحكم بحجة منع هتلر مـن زج البلاد في الحرب . فقد كان يفاوض الدول الغربية . وعلى هذا ارجأنا موعـد العمل الحاسم . الا ان انتصار هتلر في مونيخ زاد مركزه قوة ودعم نفوذه في البلاد بل في العالم اجمع . »

كان تشمبرلن يحاول انقاذ السلم ، ولعله انقذ هتلر اكثر ممـا ابعد خطر الحرب ... وكانت اجتماعات برشتسغادن ففودسبرغ واخيراً مونيخ ، عقيمة الفائدة في انقاذ العالم من الكارثة .

وهناك سؤال طرح يومئذ ويطرح اليوم وسيظل يطرح على مر الاجيال وهو : ماذا كان يفعل هتلر لو ثبتت الدول الغربية بوجه المطامع الالمانية ومنعت المانيا ، مهددة اياها بالحرب ، من تمزيق تشيكوسلوفاكيا ؟

ان في وثائق نورمبرغ بعض الاجوبة عن هذا السؤال . فقد قال الجنرال هالدر : « لم تكن مناورتنا العسكرية لارهــاب تشيكوسلوفاكيا ، في نظر المطلعين على حقائق الامور ، سوى

خدعة كبيرة محكمة التدبير . »

وقال جودل : « من الثابت ان هتلر ما كان ليقدم على عمل عسكري ضد تشيكوسلوفاكيا لو هددت فرنسا وانكلترا بالتدخل الفعلي . »

وقال كايتل : « انني على يقين من حقيقة لا تقبل الجدل وهي : لو لم تكن الحالة السياسية موآتية لالمانيا بعد اجتماعي غودسبرغ ومونيخ ، لما استطعنا دخول تشيكوسلوفاكيا . ولو ان دالاديه وتشمبرلن قالا في مونيخ ان فرنسا وانكلترا لن تقفا مكتوفتي الايدي امام اعتداء محتمل على تشيكوسلوفاكيا ، لما لجأنا الى القوة لتحقيق مطامحنا لاننا لم نكن نملك الوسائل ولا القوة الكافية لذلك ، ولا كنا نستطيع اختراق خطوط بوهيميا المحصنة ، ولا كانت لدينا قوات تدافع عن اراضينا في الغرب . »

وهذه اخيراً شهادة من هتلر نفسه قبيل سفره الى مونيخ خطها شموندت احد مرافقيه العسكريين وقد توفي اخيراً ، وتضمنها ملف نورمبرغ : « يتوقف كل شيء في القضية التشيكوسلوفاكية على مدى نجاح موسوليني في بلوغ اهدافه . فاذا تم له ذلك عدنا بخفي حنين . امـــا اذا اقتضاه نضالاً انشاءُ امبراطورية ايطالية في افريقيا ، فانه سيستنجد بنا حتماً لانه عاجز عن العمل بمفرده ، وعندئذ نعود من مونيخ وفي جعبتنا تشيكوسلوفاكيا . وليس موسوليني ممن يغرهم الخيال او يتعلقون بالسراب . ولا شك بانه سيقدر قوة المانيا الحربية حق قدرها ، فيدرك ان الالتجاء الى وسائل العنف لتحقيق مطامحه ومطامحنا وخيم العاقبة .

ونحن في الوقت ذاته بحاجة الى تأيد ايطاليا ضد فرنسا وانكلترا لنحصل على مطالبنا في تشيكوسلوفاكيا . ولن تستطيع هاتان الدولتان التدخل بشكل جدي ما دامت المانيا وايطاليا متساندتين متعاضدتين . »

فيتضح مما تقدم ان هتلر لم يكن مؤمناً كل الايمان بالنجاح في مؤتمر مونيخ . ومعلوم بصورة لا تقبل الجدل ان موسوليني لم يكن يفكر في خوض غمار حرب في تشرين الاول ١٩٣٨ . فقد كانت ايطاليا منهوكة القوى بسبب حرب الحبشة والحرب الاهلية الاسبانية . وكانت تنقصها المواد الاولية والنقد الاجنبي لاستيراد حاجاتها . وباتت تنتظر المعرض الدولي في روما الذي كان ينتظر افتتاحه سنة ١٩٤١ لتحصل منه على النقد الاجنبي وتقايض بعض مصنوعاتها بمواد اولية ، فتوازن ميزانها الاقتصادي وتعمر صندوقها الذي افرغته النفقات الباهظة . وليس ادل على هذا من ان موسوليني اوفد صهره شيانو سنة ١٩٣٩ ، قبل خمسة عشر يوماً من هجوم المانيا على بولونيا ، الى اوبرسالزبرغ ليعرض على الفوهرر حالة ايطاليا السيئة ويسأله ان يصبر مدة اخرى قبل اشعال نار الحرب .

ويوم مونيخ كانت الامبراطورية الايطالية في افريقيا في طور توقف وفي مرحلة دقيقة ، وكان موسوليني يريد فترة من الراحة ، فسعى الى جمع الدول الاربع الكبرى في مونيخ (لا هتلر كما ساد الاعتقاد يومذاك) ليحول دون نشوب الحرب ، لا لاثارتها .

ولكن تشمبرلن ودالاديه قدما النصر الى هتلر من اهون السبل ، وحملاه اليه على قصعة !

الهجوم على بولونيا مدبر منذ ايار ۱۹۳۹

اثبتت وثائق نورمبرغ ان هتلر لم يكن ينوي المضي بسرعة في تنفيذ خططه ، وان المفاجآت وما عرف عن الفوهرر من فروغ الصبر ، كان لها نصيب كبير في توجيه سياسته ومنهجه العسكري . فقد قرر بعد مونيخ ان يتوقف حيناً كما فعل بعد ضم النمسا . ولم تتلق القيادة الالمانيــة من اوامره سوى واحد اصدره في خريف ۱۹۳۸ وهو يقضـي بضم الاجزاء البــاقية من تشيكوسلوفاكيا الى الرايش (وقد تم هذا في نيسان ۱۹۳۹). ولم يكن هذا العمل يقتضي استعداداً لان تشيكوسلوفاكيا ، بعد ان مزقت في مؤتمر مونيخ ، لم تبق خصماً ، بل غنيمة .

قــال براوشيتش : « في كانون ألاول ۱۹۳۸ او كانون الثاني ۱۹۳۹ ، اصدر هتلر امره الى قيادة الجيش بالاستعــداد لحرب تقع في ١٩٤٤ - ١٩٤٥ على ابعد تقدير . »

وبذا عاد الفوهرر الى الموعد الذي ضربته هيئــة القيــادة الالمانية العليا لاستكمال تسليح المانيا ، واخذ بالحقيقة العسكرية البسيطة القائلة بالاستعداد قبل الهجوم . وكان الى هذا يرى ان العدو الحقيقي الذي يخشى جانبه هو فرنسا لا بولونيا .

وكانت هذه الخطة تنطبق على فكرة هتلر العامة في كتابه « كفــاحي » . فقد كان يرى ان يبدأ بالتوسع نحو الشرق ،

ثم يتحول الى الغرب حيث الكلمة الحاسمة . وكانت عقدة العقد الغلبة العسكرية في اوروبا . ومتى حلت هذه العقدة اصبحت المانيا حرة في الشرق والغرب معاً ، وسادت اوروبا .

لذلك لم يقرر هتلر ، بعد مونيخ ، ان يقوم بعمل ضد بولونيا ، بل اعتبر ان هذه الدولة ستسقط تحت قدميه مع بقية الدول الاوروبية اذ يتم له سحق الجيش الفرنسي . ومما قاله في هذا الصدد لقواده في الثالث والعشرين من نيسان ١٩٣٩ (الوثيقة ٧٩٨ من ملف نورمبرغ) : « كان واضحاً لي ان الحرب مع بولونيا واقعة عاجلاً او آجلاً . وقد رسمت خطتي منذ الربيع الماضي ، ولكنني كنت انوي ان افرغ اولاً من الغرب في بضع سنين ، ثم انحول الى الشرق . ولكن زمام الاحداث ليس بيدنا . فقد كنت عازماً على الارتباط مع بولونيا بوثائق مقبولة لأتفرغ للغرب . الا ان هذه الخطة لم تتحقق ، واتضح لي ان بولونيا ستهاجمنا بينما نكون مشتبكين على الجبهة الغربية . »

ومن هذا التصريح يظهر ان هتلر كان في البداية عازماً على تصفية الحساب مع بولونيا منذ ربيع ١٩٣٩ . وقد عقد في الثالث والعشرين من ايار في قصر المستشارية الجديد مؤتمراً عسكرياً كبيراً حضره (كما ذكر في محضر الاجتماع الذي صدقه الليوتنان كولونيل شموندت والذي تتضمنه الوثيقة ٧٩ من ملف نورمبرغ) القادة غورنغ وريدر وبراوشيتش وكايتل وميلخ وهالدر وبودنشاتز وشنابوبندت ، وكبار ضباط هيئة اركان حرب الفوهرر وهم واريمونت وجيشونيك وشموندت وفون بيلو . ولم يحضر

جودل الاجتماع لانه كان على رأس فرقة من المدفعية في فينا .

تكلم هتلر في هذا المؤتمر عن مدى المانيا الحيوي وعن روح الاشتراكية الوطنية وتقدمها ونجاحها في رفع شأن الرايش ، كما تكلم عن الامبراطوريات في التاريخ واسباب انهيارها . وحمل بعنف على البريطانيين ووصفهم بانهم اعداء الرايش الالداء ، وقال : « تشبه انكلترا محركاً قوياً بوجه القوات المعادية لالمانيا . ولا غرو ، فانها ترى في اتساع المانيا وازدهارها وقوتها المتزايدة باطراد ، ما يضعفها ويحط من قدرها في اوروبا . فينبغي لنا ان نستعد لمقاتلتها ، وسيكون الصراع بيننا خطيراً فيه موت او حياة. وهدفنا الاول هو اخضاع انكلترا . »

على ان مشكل الساعة كان القضية البولونية التي ازدادت تعقداً وطغت على كل اهتمام آخر في اوروبا . ولذلك خصها هتلر بنصيب كبير من خطابه فقال : « ليست بولونيا عدواً طارئاً . وسوف تقف بجانب خصومنا ، وهي لم تأل جهداً في سبيل النيل من المانيا . وليست دانتزيغ موضوع النزاع . فالقضايا الرئيسية هي توسيع مدانا الحيوي نحو الشرق وحصولنا على اراض لغذاء الشعب الالماني ، وحل مشكلة البلطيك . فالقضية البولونية لا تنفصل اذاً عن نزاع محتمل مع الغرب . والشعب البولوني لا يقاوم البلشفية ، بل يستسيغها كثير من افراده . ولهذا لا تعتبر بولونيا حاجزاً منيعاً دون تسرب البلشفية الينا بشتى الوسائل . ومن الثابت ان بولونيا لن تقاوم ضغطاً محتملاً من روسيا . وهي ، بعدُ ، تدرك الخطر الذي يهددها من انتصار تحرزه المانيا

في الغرب ، ولن تتردد في محاولة انتزاع ثمرات مثل هذا النصر منا .

« وعلى هذا ليس في استطاعتنا غض الطرف عن بولونيا ، ونحن مضطرون الى العمل بسرعة . وسوف نهاجم بولونيا في اول فرصة سانحة .

« ولا تتوقعوا ان تكون الحملة البولونية شبيهة بالحملة على تشيكوسلوفاكيا . فستكون الحرب في هذه المرة . ومن الخطأ الظن باننا نستطيع بلوغ اهدافنا بثمن بخس كما حدث في القضايا السابقة . وارى من واجبي ان اؤكد لكم انه لا يوجد امل في اجتناب الحرب . اننا مضطرون الى الاقدام مهما كانت النتيجة . وليس في الامر عدل او ظلم ، وليس في السياسة حق او باطل . ان حياة ثمانين مليون الماني في كفة القدر . »

وتوقع هتلر في هذه المرة ان تخوض المانيا الحرب على جبهتين فقال : « انني لعلى يقين من ان انكلترا لن توفر الدم الفرنسي ولن تتردد لحظة في قذف الجيش الفرنسي بوجه المانيا . وانا واثق بان الانكليز سيسعون جهد طاقتهم لحمل الحرب والدمار الى منطقة الرور التي يتوقف ثباتنا عليها . ولسوف يحتل الانكليز بلجيكا وهولندا متجاهلين حياد الدولتين . فاذا تدخلت انكلترا في الحرب لمعاضدة بولونيا ضدنا ، وجب علينا ان نعمل بسرعة خاطفة وان نضمن خطاً دفاعياً يمتد على سواحل المانش . ان الحكومات والجيوش بدون استثناء تريد اليوم حرباً قصيرة . ولكن علينا ان نستعد لحرب تستمر عشر سنين او خمس عشرة

سنــــة . »

وتبدلت خطة هتلر تبدلاً تاماً . فبعـد ان كان سنة ١٩٣٨ يقول انه سينتظر ويرجىء تحقيق مطالبه اذا ظهر له ان انكلترا وفرنسا عازمتان عزماً اكيداً على القتال ، قـال سنة ١٩٣٩ ، بخطابه في المؤتمر العسكري : « مهما فعل الانكليز والفرنسيون فانني عـــازم على حسم المشكل البولوني بقوة السلاح . ومن واجبنا ان نعمل لعزل بولونيا . وهذا امر متعلق بدهاء رجالنا الديبلوماسيين . اما روسيا فلست استبعد ان تضطر للاغضاء عن تحطيم الدولة البولونية . »

هذه بعض مقاطع هامة من خطاب هتلر . وقد تأكد القادة الالمان الذين انصتوا اليه ان الحرب باتت على الابواب ، وانها ستكون واسعة النطاق وعلى جبهتين . ولم يناقشوا ولا عارضوا . وكيف يفعلون وقـــد اثبت انتصـــار هتلر في قضيتي النمسا وتشيكوسلوفاكيا انه خير من يقود الدفة ؟ وكيف يعارضون ومصير بلومبرغ وفريتش وبيك ماثل في اذهانهم ؟

وامر هتلر برسم الخطة العسكرية للهجوم على بولونيا بسرعـة متناهية واطلق عليها اسم الخطة البيضاء ، وحدد شهر آب موعداً لاستكمال الاستعداد لها . ولكنه اشترط امرين عظيمي الاهمية : الاول ان يعد الجيش للهجوم بدون ان تعلن التعبئة العامة . والثاني ان تعد العدة بشكل يجعل الغاءها ممكناً في كل لحظة حتى قبل اربع وعشرين ساعة من موعد الهجوم .

اما استعداد الجيش للهجوم دون تعبئة سابقة ، فثورة اعلنها

هتلر على جميع القواعد التي تبنتها جيوش العالم منذ مائتي سنة .
وقد قال عنها كايتل في نورمبرغ : « كان لهذا القيد وقع سيء في نفوس هيئة اركان الحرب وتوسط براوشيتش مرات عديدة لرفعه . ولكن هتلر اصرّ عليه بعناد . »

والواقع ان الفوهرر كان يعتمد في سياسته العسكرية على عامل جوهري هو المفاجأة . وقد بلغ من حرصه على اخفاء نياته عن العالم ان الغى في الثاني والعشرين من حزيران (الوثيقة ١٢٦ من وثائق نورمبرغ) امراً اصدره الجيش بتنظيم اخلاء مستشفيات الدولة ابتداء من منتصف تموز .

قال كايتل : « مما عزز جيشنا يومذاك اننا لم نسرح الطبقة التي كان مقرراً تسريحها في تشرين الاول المنصرم واننا دعونا عدداً كبيراً من جنود الاحتياط . »

وزيادة في الحرص على اخفاء ذلك ، اصدرت هيئة قيادة هتلر العليا في الثاني والعشرين من حزيران امراً يقضي على الضباط الذين يُسألون عن الغاية من دعوة الاحتياطيين ، بان يجيبوا ان الغرض منها تشكيل الوحدات اللازمة للاشتراك في مناورات الخريف .

اما الشرط الثاني الذي وضعه هتلر وهو اعداد العدة بشكل يسمح بالغائها ووقفها ساعة يأمر بذلك ، فلم يكن وقعه على هيئة القيادة العامة باقل من الشرط الاول اذ المعروف في تحضير الحروب ان لمواعيدها الشأن الاكبر . واعترض القواد على ذلك قائلين ان وقف التدابير العسكرية فجأة اشبه بوقف الارض عن

الدوران !

كان هتلر يريد ان يحفظ خط الرجعة حتى آخر لحظة . ولم يرض بان يكون اسيراً لآراء العسكريين الذين لا يعرفون سوى السير حتى النهاية في طريق سلكوها . ولعله تذكر ما حدث لغليوم الثاني وقائد جيوشه مولتكه في آب سنة ١٩١٤ . فقد دعا غليوم القائد على اثر شيوع خبر غير صحيح فحواه ان فرنسا ستلزم الحياد في الحرب وقال له : « لن نحارب الا على جبهة واحدة . فعليك ان تبدل خططك . » فانتفض مولتكه وقال : « اسمحوا لي اذاً ان اقدم استقالتي الى جلالتكم . »

تذكر هتلر هذا فابى ان ينقاد لآراء العسكريين المتحجرة .

ورافق الاستعداد العسكري للحرب ، استعداد سياسي غايته عزل بولونيا كما طلب الفوهرر في الثالث والعشرين من ايار . ولم ييأس هتلر حتى آخر لحظة من احتمال اعتصام الدول الغربية بالحياد عند هجومه على بولونيا .

وفي وثائق نورمبرغ (الوثيقة رقم ١٨٧١.) تقرير مسهب للاحاديث التي تبادلها الفوهرر والكونت شيانو في اوبرسالزبورغ في الثاني عشر من آب ١٩٣٩ . فقد طالب وزير خارجية ايطاليا بالتريث ، واصر هتلر على ان العمل الحاسم ضروري . وتظهر لأول مرة في هذه الوثيقة قلة الانسجام بين سياستي المانيا وايطاليا . ولم يكن الحديث الذي دار بين الرجلين سوى ترداد للنغمة المعروفة الخالدة : المانيا تشيد بقوتها ، وايطاليا تشكو ضعفها. ومما قاله هتلر : انني واثق بان الدول الغربية ستتخاذل في

اللحظة الاخيرة عندما ترى نفسها على عتبة حرب ضروس .

شيانو - ارجو ان تكون مصيباً . ولكنني اخالفك في هذا الرأي .

ويشبه هذا الحديث محاورة دارت يومئذ بين الماريشال كايتل والاميرال كاناري رئيس مكتب التجسس الالماني وتضمنها مستند نورمبرغ ذو الرقم ٧٩٥ وهذه خلاصتها :

قال كايتل - جدير بالملاحظة حقاً ان تبدي دولة دكتاتورية كايطاليا فتوراً للحرب لا يتفق ومبادئها الثورية . فكيف بالدول الديموقراطية ؟ انني واثق بان انكلترا لن تتدخل .

فاجاب كاناري - انك مخطىء . فسوف تضرب انكلترا حالاً على المانيا حصاراً بحرياً وتحطم اسطولنا البحري التجاري .

كايتل - لا يقلقنا الحصار . فاننا نتلقى بترولاً من رومانيا .

كاناري - هذا صحيح . ولكن انكلترا ستحاربنا بجميع الوسائل اذا هاجمنا بولونيا .

وكان هتلر يعتمد ، في ظنه بان الدول الغربية لن تتدخل ، على الشعور الذي تركه في نفسه انتصاره في مونيخ وهو ان الغرب يخاف من شبح حرب كبرى ثانية . اما عزل بولونيا في الشرق فقد كان الفوهرر يقر بانه يتطلب دهاء سياسياً .

قال ريبنتروب في نورمبرغ : « انا الذي عرض على الفوهرر ان نعقد ميثاقاً مع روسيا . فرفض اولاً ، ثم ايد اقتراحي . »

وفي الثاني عشر من آب ، بينما كان هتلر يتحدث الى شيانو بحضور ريبنتروب ، وصلت برقية من موسكو . وهذه خلاصة ما حدث كما ذكر في محضر الاجتماع :

« قطع الحديث لبضع دقائق ، ثم اطلع شيانو على نص البرقية ، وفيها يعلن الروس انهم يوافقون على حضور مفاوض الماني الى موسكو . واستؤنف الحديث فاكد ريبنتروب ان الروس مطلعون على نيات المانيا تجاه بولونيا لانه هو الذي ابلغ ممثل الاتحاد السوفياتي في برلين ذلك بناء على امر الفوهرر . واعلن الفوهرر ان روسيا ، في رأيه ، ليست مستعدة للاخذ بناصر الدول الغربية وانها تريد توسيع منفذها على بحر البلطيك ولا تعارضها المانيا في ذلك . واكد الفوهرر اخيراً ان روسيا لن تساعد بولونيا لانها تكره حكومتها كرهاً عميق الجذور . »

ولم تمض تسعة ايام حتى عقد الميثاق الالماني – الروسي لاقتسام بولونيا . وكان طبيعياً الا يوجد هذا الميثاق بين وثائق نورمبرغ لانه يمس روسيا ، وهي احدى الدول الكبرى التي انتصرت في الحرب العالمية الثانية .

وفي اواخر تموز وضعت القيادة البرية العليا خطة غزو بولونيا . ولما كانت القوات الالمانية محدودة لا تتعدى الاربعين فرقة منها خمس مصفحة ، فقد كانت الخطة متواضعة ضيقة النطاق ، تقضي بحشد القسم الاكبر من الجيوش في منطقة سيليزيا وشن هجوم واحد في اتجاه الشمال الشرقي لبلوغ لودز وبيليكا . ولم تدخل القيادة في حسابها الاستيلاء على

فرسوفيا في هذا الهجوم ، بل اقتصر هدفها على ربح معركة حدود واكراه الجيش البولوني على التراجع . ولكن هتلر ، كما اكد كايتل وغورنغ ، بدل هذه الخطة . وقد كان يعرف ان القيادة البولونية حشدت جماع قواها في قلب دفاعها ببوزنانيا وانها عازمة على الهجوم . الا انه ، رغماً عن ذلك ، لم يتردد في سحب القوات من الحدود الالمانية بين سيليزيا والفيستول ، وعزز الجناح الايسر للجيش الالماني تعزيزاً عظيماً وامره باجتياز الممر المؤدي الى ثورن وغرودنز والخروج من بروسيا الشرقية لضرب البولونيين من الوراء . وكانت هذه المناورة طيبة الثمار وهي التي ادت بعدئذ الى الاستيلاء على فارسوفيا من طريق ملتوية وعرفت بمناورة ملاوى الشهيرة . وكان هذا اول تدخل فعلي من هتلر في السياسة العسكرية العملية .

وعلى هذا الاساس اصلح براوشيتش ومعاونوه خطتهم وبدلوا توزيع الفرق الالمانية . وفي الاجتماع الذي تم فيه هذا التحوير ضرب هتلر موعداً للهجوم يوم الخامس والعشرين من آب . اما موعد الانتصار فقد حدده للكونت شيانو في مؤتمر الثاني عشر من آب ، وتوقع ان يتم تحطيم قوة بولونيا في اربعة عشر يوماً ، وان تنتهي الاعمال الحربية في بولونيا بعد اربعة اسابيع من الهجوم ، اي قبل ان يحوّل الخريف وديان بولونيا الى حقل شاسع من الوحول فيعرقل كل نشاط حربي .

واعلن الاتفاق الالماني السوفياتي في موسكو في الحادي والعشرين من آب . وفي اليوم التالي دعا هتلر الى اوبرسالزبورغ

كبار قادة المانيا . وضم هذا الاجتماع ، على ما قال كابتل ، خمسة عشر او عشرين من كبار رجالات المانيا العسكريين من قواد جيوش البر واسراب الجو والمصفحات .

ولم تعرف حتى الآن الفقرات الرئيسية من الخطاب الذي القاه ادولف هتلر في المجتمعين . وهناك نصّان لهذا الخطاب لم يستطع محققو نورمبرغ معرفة ايهما هو الصحيح وايهما هو الذي سيعتبره المؤرخون الاصلي . وقد تلا احد قضاة التحقيق في نورمبرغ احد النصين على غورنغ ، وهذه اهم مقاطعه واجوبة غورنغ عليها :

– « كنت قد قررت غزو بولونيا في الربيع الماضي . وكنت اخشى في بادىء الامر ان تكرهني الحالة السياسية على مقاتلة انكلترا وفرنسا وروسيا وبولونيا معاً . وحتى هذا الاحتمال يجب الا يحولنا عن عزمنا على حسم القضية البولونية . »

غورنغ – لا اذكر هذه الكلمات . ولم يكن هذا في الحقيقة رأي هتلر .

– « عزمت منذ خريف ١٩٣٨ على التفاهم مع ستالين لاني عارف ان اليابان لن تتدخل ، وان موسوليني كان تحت رحمة الملك والامير الخائن ولي العهد . »

غورنغ – لا اذكر هذا . ولكن يحتمل ان يكون هتلر قد قاله .

– « ثبت بعد الفحص والتدقيق انه لا يوجد في العالم سوى ثلاثة رجال دولة : ستالين وموسوليني وانا . واضعفنا هو

موسوليني لانه لم يستطع تحطيم معارضة البلاط الملكي والكنيسة . ولهذا قررت التحالف مع ستالين . وبعد اسابيع معدودة سأمد يدي اليه لاصافحه على حدود المانيا وروسيا المشتركة الجديدة وانظم معه توزيع العالم على الدول . »

غورنغ — العبارة الاخيرة « توزيع العالم » غير صحيحة . وسنة ١٩٣٨ لم يكن هتلر يفكر في محالفة روسيا . وانا الذي اوصاه بعقد هذا الحلف لأحول دون بقاء المانيا منعزلة وحيدة .

— « ان قوتنا في سرعة عملنا وعنفه . ولقد ذبح جنكيزخان الملايين من النساء والاطفال عن سابق تصور وتصميم بدون ان يرف له طرف . ومع هذا ، فالتاريخ يعتبره فاتحاً ومؤسس امبراطورية فحسب . ولا يهمني ما ستقوله عني مدنية غربية تحقد علي . »

غورنغ — كان هتلر من كبار متتبعي اعمال الفاتحين في التاريخ وممن يستشهدون دائماً باعمالهم . ولكنه لم يقل هذا الذي اسلفتم تلاوته .

— « قررت — وسيكون الاعدام نصيب كل من يعترض — ان اهدافنا من الحرب ليست بلوغ حد معين ، بل هي تحطيم العدو مادياً . »

غورنغ — قد يكون هتلر توعد بالاعدام بعدئذ . اما انه قال هذا يومئذ ، فمحض اختلاق .

— « وعلى هذا اصدرت اوامري الى فرقة الموت بان تبيد ، بدون رحمة ، الامة البولونية على بكرة ابيها ، رجالها ونساءها

واطفالها . وبهذه الوسيلة وحدها نستطيع الحصول على المدى الحيوي الذي نحن بمسيس الحاجة اليه . وبعد ، فمن ذا الذي يتذكر اليوم مجزرة الارمن الشهيرة ؟ »

غورنغ - هذا كذب وبهتان . هذا سخف . فقد كان هتلر يريد ان يؤيده قواده في خططه وآرائه . ولم يكن يجهل ان ذلك لا يتم بنظريات وحشية كهذه .

- « وعدني الكولونيل جنرال براوشيتش بان يستولي على بولونيا في بضعة اسابيع . ولو كان حدثني عن حملة تستغرق سنتين او سنة واحدة ، لما كنت اصدرت الامر بالزحف على بولونيا ، ولكنت تحالفت مع انكلترا ضد روسيا ، لاننا عاجزون عن خوض غمار حرب طويلة . »

غورنغ - هذا كذب . فقد كنا نحسب ان الحملة البولونية ستستغرق وقتاً اطول مما استغرقته .

- « حكمت على دالاديه وتشمبرلن في مونيخ . فهما اجبن من ان يقدما على مهاجمة المانيا . ولن تتعدى تدابيرهما ضرب الحصار على المانيا . ولنا من المواد التي تمدنا بها روسيا ما يكفينا . »

غورنغ - كان هذا رأي هتلر . ولكنه لم يعبر عنه بهذه الكلمات .

- « سنستعمر بولونيا بعد ان نطرد سكانها . وسيكون هذا مصير روسيا بعدئذ . وبعد موت ستالين ساحطم الاتحاد السوفياتي ويبزغ فجر السيادة الالمانية . »

غورنغ - حديث خرافة واختلاق صبياني .

— « لسنا نخشى شيئاً مـــن الدول الصغيرة . ومنذ وفاة اتاتورك ، يحكم تركيا انصاف بلهاء . وكارول ملك رومانيا غارق في لذاته الجنسية ، وملك بلجيكا وملوك الشمال ضعفاء وعروشهم جامدة تحتهم بفضل تغاضي شعوبهم المنهوكة عنهم . »

غورنغ — هذا خيال خصب .

— « ولنحسب حساباً لتضعضع اليابان . وامبراطورها اشبه بالقيصر الاخير : ضعيف متردد جبان . وقـــد تجرفه ثورة في اليابان . »

غورنغ — سلوا جميع الحاضرين ينفوا لـكم هذا .

— « لكن تفكيركم تفكير اسياد العالم . ولا تنظروا الى الشعوب الا كقرود لا ينفع فيها غير السوط . »

غورنغ — هذا اسخف ما سمعت .

— « ان الحالة موآتية لنا . وكل مـــا اخشاه ان يتقدم تشمبرلن او احد اولئك البلهاء امثاله باقتراح لحل المشكلة البولونية بالطرق السلمية . »

غورنغ — ايصدق احدكم هذا ؟ ان كل كلمة فيـه كذب وبهتان .

— « يبدأ الهجوم لابادة بولونيا صباح السبت . ان مجـــداً عظيماً يترقبكم ايها السادة . وسيكون مجداً لم يكتب لاحد منذ قرون . فكونوا قساة ولا تأخذنكم الرحمة . اضربوا بسرعـــة وعنف ، وليكن عملكم امثولة تهز اوروبا الغربية فزعاً ورعباً . وهذه احسن الطرق الحربية واجداها واكثرها انسانية ، لانهـا

تقصر امد الحرب . »

غورنغ – هذا كذب والف كذب .

وهكذا انكر غورنغ ما عزي الى هتلر قوله في الثاني من آب . وانكره براوشيتش وكايتل وهالدر كل بدوره .

اما هذا النص فقد جمع من مذكرات ضابط حضر الاجتماع ، واعترفت مدام ولف سكرتيرة الفوهرر بصحته . وبعد ، فان انكار القادة الالمان امام قضاة نورمبرغ طبيعي لان مجرد تنفيذهم خططاً من هذا الطراز مع علمهم باهدافها ومراميها كاف لتجريمهم .

واما النص الثاني وهو محضر الاجتماع الرسمي الذي تضمنته الوثيقة ٧٩٨ من ملف نورمبرغ فهو من طراز خطب هتلر المعهودة . ولكن اهميته ناتجة عن صدوره في الظروف الحرجة التي كان العالم يجتازها يومذاك . فقد القى هتلر فيه مسؤولية الحرب المتوقع نشوبها على انكلترا ، وقال ان تدخل الانكليز زاد بولونيا عناداً وادى الى فشل الاقتراحات الالمانية لحسم قضية دانتزيغ .

ومن المفيد هنا اثبات حقيقة هامة وهي ان القاء هتلر تبعة الحرب على انكلترا اتخذه المتهمون في نورمبرغ ولا سيما ريبنتروب اساساً للدفاع عن انفسهم . ومما قاله ريبنتروب : « كانت مطالب الفوهرر تتلخص بوضع دانتزيغ تحت سيادة المانيا السياسية وبقائها تحت اشراف بولونيا الاقتصادي ، وانشاء نفق تحت الممر البولوني تمر فيه سكة حديدية وطريق للسيارات ، فيكون همزة

وصل بـين الرايش وبروسيا الشرقية . ولكن معاضدة انكلترا لبولونيا جعلت هذه متصلبة كل التصلب في رفض ما اقترحناه . »

وقد دحضت هيئة الاتهام هذا الادعاء بما تضمنه محضر اجتماع الثالث والعشرين من ايار ١٩٣٩ من ان « دانتزيغ لم تكن موضوع النزاع » . وردت محكمة نورمبرغ على دفاع ريبنتروب بالوثيقة ٢٩٨٧ التي هي فصل من مذكرات الكونت شيانو كتب في آب ١٩٣٩ وهذا نصه : « قلت لريبنتروب ، وكنا نتنزه في الحديقة ، ألا قل لي ماذا تريدون في الحقيقة ؟ دانتزيغ ام الممر ؟ فاجابني وهو يحدق فيّ بعينين باردتين : لا هذا ولا ذاك . اننا نريد الحرب . »

ونعود الى النص الثـاني لخطاب هتلر كما ذكر في محضر الاجتماع المؤرخ بالثاني عشر من آب ١٩٣٩ . فقد اتهم الفوهرر انكلترا بانها هي المسؤولة عن حرب قريبة الوقوع . ومما قاله في ضعفها : « ليس في انكلترا سعي حقيقي للتسلح . وكل ما في الامر دعاوة رخيصة وحرب اعصاب . فان منهـاج ١٩٣٨ البحري لم ينفذ . ويكتفي الانكليز بتعبئـة اسطول الاحتياط وشراء بعض المدرعات المساعدة . اما في البر فالتسلح البريطاني بسيط غـاية البساطة . ولن تستطيع انكلترا ارسال اكثر من ثلاث فرق الى اوروبا . وفي الجو احرز الانكليز تقدماً يسيراً ولكنهم جادون في العمل في هـذه الناحية . ولا تملك انكلترا اليوم اكثر من مائة وخمسين قطعـة مدفعية مضادة للطائرات . وقد اوصت الحكومة بصنع المدفع الجديد المضاد للقاذفات الجوية ،

ولكنه لن يصبح جاهزاً قبل مدة طويلة . وهي لا تملك الاجهزة اللازمة لتوجيه الطلقات الى الطائرات . وعلى هذا يمكن اعتبار انكلترا مكشوفة للسلاح الجوي الالماني . »

اما فرنسا فقد اكد الفوهرر انها بحاجة الى الرجال بعد ان هبطت نسبة المواليد فيهـــا كثيراً في السنين الاخيرة ، وان مدفعيتها عتيقة . وقال عن احتمال اشتباك المانيا في قتال مـــع الغرب ان الحصار الذي قد تضربه الدول الغربية على المانيا لن يجدي نفعاً ، وان هجوم هذه الدول على خط سيغفريد المحصن مستحيل . ومضى يقول :

« ما تزال اليوم ثمة امل باحتمال بقاء الدول الغربية خارج الحرب . ولكن علينا ان نحسب لتدخلها حساباً . ويمكننا الاعتماد على الدوتشي ، ويمكنكم الاعتماد عليّ . ان الشعب الالماني يثق بي ثقة مطلقة لم يمحضها رجلاً قبلي وربما لن يمحضها رجلاً بعدي . اما موسوليني فان بقاءه عامل رئيسي في حلفنا مع ايطاليـــا . واذا نزلت به نازلة يصبح صدق محالفة الطليان لنا موضع شك . ان موسوليني هو الرجل الذي يملك اقوى اعصاب في ايطاليا .

« اما في انكلترا وفرنسا فلست ارى شخصية بارزة بالمعنى الصحيح . وان خصومنا جميعاً هم في المقدرة اقل من الوسط ، وليس فيهم رجل عمل او سيد حازم مطاع . انهم حشرات ، بلوتهم في مونيخ وعجمت عودهم فوجدتهم كذلك . واما الحرب فلن تكون طويلة في بولونيا . »

قال غورنغ رداً على اتهامه في نورمبرغ بانه قابل دعوة هتلر

الى الحرب ، في اجتماع برغوف ، بسرور عظيم اخرجه عن اطواره فاعتلى طاولة والقى خطاباً حماسياً : « لم افعل شيئاً من هذا لان ليس من عادتي ان اعتلي الطاولات . وكل ما فعلت انني ، جرياً على المألوف في مثل هذه المناسبات ، القيت كلمة اكدت بها للفوهرر اخلاص الجيش له . »

وقال هالدر في نورمبرغ ان خطاب هتلر قوبل بقلق وانزعاج ، وانه لم يثر اية تظاهرة بين الحاضرين .

وكانت اولى شرارات الحرب ستنطلق بعد يومين . وانقضت اربع وعشرون ساعة مفعمة بالقلق والخوف . وكانت اوروبا نهباً للنشاط العسكري والفزع ، والحكومات في هرج ومرج ، ومحطات الاذاعة ترعد بالخطير من المفاجآت . ونشطت المانيا الى دعوة قواها الاحتياطية تحت ستار الاستعداد لمناورات الخريف .

وبعد ظهر الرابع والعشرين رنّ منبه التلفون في مكتب غورنغ . قال هذا في نورمبرغ : « سمعت صوت الفوهرر يقول : آمر بوقف كل شيء . ولما سألته : هل الامر جدي ؟ اجابني : كلا . فانني اريد فقط ان اعرف اذا كانت هناك وسيلة لاجتناب تدخل الانكليز . »

وقال كايتل : « دعاني هتلر على عجل وامرني بوقف الاستعداد لانه يريد فترة للمفاوضة . »

والواقع ان الموقف كان حرجاً . فقد اعطت انكلترا عند الظهر ضماناً لبولونيا . وفي اليوم السابق كان موسوليني – كما توقع الكونت شيانو في الثاني عشر من آب – قد اعلم المانيا

انه لا يستطيع التدخل فوراً في الحرب لان المواد الاولية تعوزه . وحيال هذا ، رأى هتلر ان المانيا ستكون وحدها وانها ستصطدم بحلف يضم بولونيا وفرنسا وانكلترا ، فاراد ان يفكر ويراوغ ، وبقيت الحرب معلقة فترة اخرى .

وكثرت المحاولات في هذه الفترة لاجتناب الحرب وقد سردها المستر هندرسن السفير الانكليزي في برلين . وفي نورمبرغ افشى التحقيق اهم هذه المحاولات ، وهي التي قام بها دهلروس الصناعي الاسوجي المعروف . فقد كان هذا الرجل طيب القلب يشفق على العالم ان يلتهمه اتون الحرب الفاغرة فاها ، ويخاف على الانسانية من الخطر العظيم الذي يهددها ، فآلى على نفسه ليحاولن انقاذ السلام . وتطوع للسعي لدى المانيا وانكلترا في هذا السبيل . وكان يعرف غورنغ الذي كانت زوجته الاولى اسوجية فوصل بينه وبين بعض رجال الصناعة الانكليز . وحاول ان يحمل ملك اسوج على رعاية مؤتمر الماني بريطاني يعقد في ستوكهولم ، ولكن غوستاف الخامس ، وهو احرص من الثعلب ، ابى هذه الوساطة . فلم ييأس دهلروس ، وكان يجد في حسن فهم غورنغ بارقة امل في النجاح . ودبر اجتماعاً ديبلوماسياً خاصاً في احد قصور هولشتاين ونجح في الجمع بين كبار الساسة الانكليز والالمان ومنهم اللورد هاليفاكس . وراح يتنقل بين لندن وبرلين بنشاط عجيب وعلى نفقته الخاصة ، يدفعه صدق قلما عرف في رجال السياسة ، فكان ، في غمرة تلك المأساة السياسية الكبرى التي لم يدرك دوافعها الحقيقية ، مثالاً لقصر

النظر وطيبة القلب .

وكان في برلين في السادس والعشرين من آب وفي جعبته مشروع مبهم لمؤتمر انكليزي الماني يعقد في هولندا . وفي منتصف ليلة السادس والعشرين – السابع والعشرين استدعاه الفوهرر الى المستشارية ، فذهب اليه وملء بردتيه الرجاء والامل . قال دهلروس يصف مقابلته وهتلر : « ظل الفوهرر عشرين دقيقة يعرض لي آراءه في الوضع حتى بدأت اشعر بان هذه المقابلة لن تسفر عن نتيجة . وكان ، وهو يخاطبني ، يقطع الغرفة ذهاباً واياباً ، وقد اخذت منه الحماسة مأخذها ، وتملكه الغضب فجأة فصاح : اذا نشبت الحرب فانشىء غواصات وغواصات واغرقهم بالغواصات . وسأبني طائرات لا يحصى لها عدد ، وساسحقهم وانتصر . ولما هدأت ثائرته سألني ان اشرح له ، ما دمت اعرف الانكليز حق المعرفة ، السبب في اخفاقه في الاتفاق مع انكلترا رغم جهده المستمر . وترددت قليلاً ، ثم قلت بصراحة : اظن ان السبب قلة ثقة الشعب البريطاني به وبحكومته . »

وبعد نقاش طويل دام ساعة ونصف الساعة طلب هتلر الى دهلروس ان يعود الى لندن ويعرض على الحكومة البريطانية اقتراحاته الاخيرة وهي تقع في ستة بنود وهذه خلاصتها : تساعد انكلترا المانيا في الحصول على دانتزيغ والممر الى بروسيا الشرقية ، على ان تحفظ حقوق بولونيا الاقتصادية ، وتوافق على حل قضية المستعمرات الالمانية القديمة حلاً مقبولاً . وتتعهد المانيا مقابل ذلك بالدفاع عن الامبراطورية البريطانية وتضع جيشها البري

تحت تصرف الانكليز .

وعاد دهلروس الى لندن حاملاً آخر كلمة من زعيم الرايش . وتمنى له غورنغ قبل سفره رحلة موفقة . وروى الرواة بعدئذ عن هذه الرحلة الاساطير . فقيل ان ريبنتروب كان يريد تعطيل الطائرة التي اقلت دهلروس ليقضي على آخر امل في حفظ السلام . ومما قاله غورنغ في هذا الصدد : « كانت الحالة السياسية حرجة جداً حتى ان سفر طائرة من المانيا الى انكلترا لم يكن ليخلو من خطر . »

وقابل دهلروس في انكلترا تشمبرلن وهاليفاكس وكادوغان . وكان جواب الانكليز على اقتراحات هتلر ضعيفاً . وقبلت بريطانيا ان تحدد تخوم بولونيا في مؤتمر تعقده الدول الخمس : فرنسا وانكلترا وايطاليا والمانيا وروسيا . وحمل دهلروس الجواب البريطاني الى برلين وانتظر ان يستقبله هتلر . ومرت الساعات وكان السلام يلفظ آخر انفاسه .

قال دهلروس : « في الساعة الثامنة من صباح اول ايلول قابلت غورنغ في وزارة الطيران . فاعلمني ، ببعض الارتباك ، ان الحرب بدأت بعد ان هاجم البولونيون محطة اذاعة غليوتز ونسفوا جسر ديرشو . ولم احظ بمقابلة هتلر الا بعد الظهر في احد ممرات الرايشتاغ حيث كان قبل فترة قد القى خطابه معلناً نشوب الحرب مع بولونيا . فوجدته في اقصى حالات العصبية . ولما بادرته بالحديث قال لي انه يعرف منذ عهد بعيد ان انكلترا تريد الحرب وانه سيسحق بولونيا ويحتلها كلها .

وحاول غورنغ ان يتدخل ، فقال ان الالمان لن يتقدموا الا في مناطق معينة من بولونيا . ولكن هتلر كان قد فقد كل سيطرة على نفسه فصرخ انه سيحارب سنة ، بل سنتين ، بل عشراً اذا اقتضى الامر ذلك . »

وكانت قاذفات الدمار الالمانية من « شتوكا » وغيرها ، تصب حممها منذ الصباح على المدن وخطوط المواصلات ومراكز القيادة والمطارات البولونية فتسحقها سحقاً .

هتلر يرسم خطة الهجوم على فرنسا

لما ساق هتلر جيوشه على بولونيا لم يترك على الجبهة الغربية تجاه فرنسا سوى خمس فرق . هذا ما اعلنه كايتل للمحققين ورده امام قضاة نورمبرغ وعلق عليه قائلاً : « كنا ، نحن الجنود ، نتوقع من الوجهة العسكرية البحتة ، هجوماً من جيوش الدول الغربية في اثناء انشغالنا بالحرب مع بولونيا . والحق يقال اننا دهشنا كل الدهشة لوقوف الغرب موقف الدفاع واقتصار الاعمال الحربية على بعض المناوشات التافهة بين خطي سغفريد وماجينو . واستخلصنا من ذلك ان فرنسا وانكلترا لا تنويان الاشتراك في الحرب بشكل جدي . ولم يكن لنا ما يحمي ظهرنا على طول الجبهة الغربية من حدودنا الغربية الى بال اكثر من خمس فرق ، وهو عدد قليل جداً . ولو هاجمنا الفرنسيون والبريطانيون لما استطعنا مقاومتهم بجدوى . »

وفي غضون ايلول ١٩٣٩ عزز الالمان جيوشهم في الغرب واستطاعوا ، بعد ان انتصروا على البولونيين ذاك الانتصار الساحق الخاطف ، ان يحولوا عدداً كبيراً من الفرق التي كانت معدة للجبهة الشرقية ، الى الجبهة الغربية . ولم يشعر الالمان بالارتياح والطمأنينة الا لما حولوا القسم الاعظم من جيشهم الى نهر الرين . ومما قاله جودل في هذا الصدد : « لم نجتنب الكارثة

في الحقيقة الا لان الفرق المائة والعشر التي كان يملكها الفرنسيون والانكليز لم تحرك ساكناً ضد فرقنا الثلاث والعشرين التي كانت محتشدة في الغرب . »

والواقع ان الجيش الالماني كان في ايلول ١٩٣٩ في طور الولادة ولم يكن قوياً على قدر ما ظن كثيرون . على ان الاستعداد الحربي في المانيا كان عظيماً وسريعاً جداً . وقد قال جودل عن اعتدة الجيش الالماني في ذلك الحين : « كان مخزوننا من العتاد والذخيرة قليلاً للغاية . ولم ننجُ الا لان الدول الغربية لم تهاجمنا . »

ولم يكن الاسطول البحري الالماني باحسن حالاً من الجيش ، بل كان مثله في طور التحضير . ومما قاله الاميرال دونتز في هذا الصدد : « لقد فوجئنا بالحرب . ولم نكن قد قطعنا في انشاء قطع بحرية جديدة شوطاً يذكر . ولو كانت جميع السفن التي اوصينا عليها جاهزة يومئذ ، لما بلغ مجموع حمولة الاسطول الالماني ثلث حمولة الاسطول البريطاني . ولم يكن تحت تصرفي سوى اثنتين واربعين غواصة ذات قيمة عسكرية حقيقية . »

اما الاسطول الجوي الالماني ، هذا السلاح الذي انشىء بسرعة ودالت دولته بسرعة كذلك ، فقد كان بالنسبة الى اسلحة الدول الغربية الجوية احسن حالاً . الا ان غورنغ كان يطلب فترة تمتد على الاقل الى سنة ١٩٤٣ ليستكمل اعداد سلاحه . وقد قال في الخامس عشر من نيسان ١٩٣٩ لشيانو (الوثيقة ١٨٧٤ من ملف نورمبرغ) : « ستكون قوة المحور الجوية

احسن حالاً بعد تسعة شهور . » وقال ميلخ مفتش السلاح الجوي الالماني العام ، لمحققي نورمبرغ :

« حدث سنة ١٩٣٩ ، على غرار ما حدث سنة ١٩٣٨ ، ان رفض هتلر الطلبات التي قدمتها هيئة القيادة العليا لصنع قنابل للقذف الجوي . فقد كان الفوهرر مصراً على الاحتفاظ بالفولاذ والمعادن الخفيفة للمدفعية ولصنع الطائرات . وفي مطلع الحرب لم يكن مخزوننا من القنابل يكفينا اكثر من خمسة اسابيع . واستهلكنا نصفها في الثمانية عشر يوماً التي استغرقتها الحملة البولونية على الرغم من اننا لم نستخدم جميع قاذفاتنا . اما القنابل التي صببناها على فرنسا سنة ١٩٤٠ فقد صنعناها في الشتاء . »

وقال جودل : « هناك حقيقة ثابتة ، وهي ان تسليح المانيا الحقيقي الفعال لم يتم الا بعد نشوب الحرب . »

وما يقال عن التسليح يقال عن التعبئة وتنظيم فرق القتال . ففي اوائل ايلول ١٩٣٩ لم يكن لدى المانيا سوى خمسين فرقة . وفي تشرين الاول من العام ذاته اصبح الجيش الالماني مؤلفاً من خمس وسبعين فرقة . وبلغ عدد الفرق الالمانية في ايار ١٩٤٠ عشرين بعد المائة . ولم تسق القيادة الالمانية على بولونيا سوى خمس فرق مصفحة . فلما زحف الالمان على فرنسا كانت تدعمهم عشر فرق مصفحة . وقد اثبتت محاكمة نورمبرغ بصورة لا تدع مجالاً للشك ان المانيا لم تكن سنة ١٩٣٩ قادرة على احتمال الحرب على جبهتين . ولكن هتلر اعتمد في مغامرته على نفسية

رجال الحكومة في الغرب وقد كان لها وزن ثقيل في توجيه سياسته العسكرية . فقد قال ، وبذكر القارىء هـذا القول : « بلوت تشمبرلن ودالاديه وحكمت عليهما في مونيخ . انهما جبانان ولن يقدما على الهجوم . »

ولقد حسب قواد فرنسا العسكريون ان حرباً طويلة لا بد ان تنتهي بهزيمة المانيا (وهو حساب صحيح في نتيجته) . وعلى هذا الاساس رأوا ان الطريقة المثلى هي الانتظار . ولكنهم لم يدخلوا في حسابهم حقيقة خطيرة وهي ان الحرب الطويلة لا بدّ مـن ان تكتسح اولاً فرنسا ، وان اعتصامهم بالانتظار يجعل المانيا طليقة اليدين فتسحق بولونيا وتكدس الاسلحة اللازمة لسحق فرنسا بعدها .

كان لفرنسا فرصة سانحة للنصر : ايلول ١٩٣٩ . ولكن انّى لها ان تقدم على اغتنامها والجيش الفرنسي لم يكن معداً في الواقع للهجوم بل للدفاع ؟ وكذلك قل عن الروح الفرنسية .

وتم لهتلر ما اراد في بولونيا في اربعة عشر يوماً ، لا في اربعة اسابيع كما كان يتوقع ، واستولى على فارسوفيا بعد ان حطم جيوش بولونيا . « ولم يكن من قبل ، (على ما قال كايتل في نورمبرغ) ينظر نظرة جد الى اعلان فرنسا وانكلترا الحرب على المانيا وما تأكد من ذلك الا في اواخر ايلول ١٩٣٩ . »

وما ان فرغ من بولونيا حتى قرر ليسحقن العدو في الغرب كما سحقه في الشرق . وكان القادة الالمان مشدوهين من سرعة الانتصار في بولونيا ، وحتى هتلر نفسه شعر بمفاجأة الحملة

البولونية . ولئن تكن بعض بوادر الضعف قد ظهرت احياناً على المشاة الالمان لقلة تدريبهم (الوثيقة ٧٨٩) فقد فرضت الدبابات الالمانية نفسها في كل مكان وما استطاع احد مقاومتها . واعطت طرق استخدام الفرق المصفحة ، التي امر بها هتلر نفسه ، اطيب الثمرات على الرغم من جرأتها المتناهية ومـــن بعض الصعوبات المادية التي اعترضتها كصعوبة مدها بالوقود مثلاً . ونجحت سياسة هتلر العسكرية نجاحـاً مزدوجاً فاختصرت الوقت واقتصدت بالدم الالماني ايضاً .

وقد درست هيئة القيادة الفرنسية الحملة البولونية درساً عميقاً ووصفها المكتب الثاني (مكتب الاستعلامات الفرنسي التابع للقيادة العليا) حـق الوصف ، ورسم صورة صحيحة لأساليب الحرب الالمانية وجهاز الجيش الالماني . ولكن المكتب الثالث رأى ان ما حدث في الشرق لا يمكن ان يتكرر في الغرب بالنظر الى الفرق بـين جيش يقوده رجال مشهود لهم بالمقدرة العسكرية (الجيش الفرنسي) وجيش كالجيش البولوني لم يكن على رأسه قادة مدربون ، وبين جيش حسن العدة وجيش لا يملك اعتـدة حديثة ، وبالنظر الى الفرق العظيم بين ساحة حرب سهلة مكشوفة كالساحـة البولونية ، وميدان قتال محصن ومغلق بخط ماجينو والتحصينات الاخرى كالميدان الغربي .

وبينما كان المكتب الفرنسي الثالث يدلي بهذه الآراء الخاطئة الضالة والمضللة في كانون الاول ١٩٣٩ ، كان هتلر قـــد قرر الهجوم على فرنسا منذ زمن بعيد . ومما قاله براوشيتش عن هذا

القرار في نورمبرغ : « لم تكن الاعمال الحربية في بولونيا قد انتهت ، لما استدعاني هتلر وحدثني عن اعتزامه الانقضاض على فرنسا في مستقبل قريب وطلب الي ان أعد العدة . »

ولم تكن هناك خطة معينة للحملة على فرنسا . ولا عجب ، فقد كان كل شيء في هذه الحرب مرتجلا تقريباً . وبينما اتبعت الجيوش الالمانية في هجومها على فرنسا سنة ١٩١٤ مخططاً صرف كبار ضباط هيئة القيادة الالمانية في وضعه عشرات السنين ، لم يستغرق رسم خطة الهجوم على فرنسا سنة ١٩٣٩ اكثر من اسابيع معدودة . وفي التاسع من تشرين الثاني ١٩٣٩ وقع هتلر امره ذا الرقم ٦ المتعلق بتوجيه الحرب (الوثيقة ٦٢ ج من ملف نورمبرغ) وهذه خلاصته :

« اولاً – اذا ثبت في مستقبل قريب ان انكلترا وفرنسا التي تأتمر امرها ، غير مستعدتين لانهاء الحرب ، فانني عازم على المبادرة الى مهاجمتها في اقرب موعد .

« ثانياً – ان الانتظار طويلا سيحمل بلجيكا وربما هولندا ايضاً على الخروج من حيادهما لتنضما الى انكلترا وفرنسا ، وسيتيح لاعدائنا تعزيز قواهم العسكرية باطراد ويحمل الدول المحايدة على الشك في انتصار المانيا وربما دفع ايطاليا الى اجتناب الانضمام الينا في الحرب .

« ثالثاً – وعلى هذا اصدر اوامري التالية لادارة دفة الاعمال العسكرية في المستقبل :

« آ – تستعد القيادة العامة الاستعداد الكافي للهجوم على

الجناح الشمالي من الجبهة الغربية عبر اراضي اللوكسمبورغ وبلجيكا وهولندا ، على ان يبدأ الهجوم في اقرب موعد وباكبر القوى الممكنة .

« ب – الغرض من هذا الهجوم هو سحق القسم الاعظم من الجيش الفرنسي المعد للقتال والاستيلاء من فرنسا الشمالية وبلجيكا وهولندا على الاراضي اللازمة لانشاء قاعدة المانية نهاجم منها انكلترا بحراً وجواً ، ولضمان اكبر حماية ممكنة لمنطقة الرور الحيوية للرايش .

« ج – يتوقف موعد هذا الهجوم على اعداد الفرق المصفحة والآلية باقصى قوتها ، وعلى حالة الطقس .

« فعلى جميع القادة ان يطلعوني في اقرب فرصة على نياتهم ، وان يبلغوا قيادة الجيش البري العليا دقائق استعدادهم وتطوره .
التوقيع : ادولف هتلر . »

واثار هذا القرار بالهجوم على الجبهة الغربية نزاعاً عنيفاً بين هتلر والماريشال براوشيتش . ولم يكن الانتصار الساحق الخاطف في بولونيا قد ازال الاختلاف بين الفوهرر وقواده .

روى الجنرال غودريان في شهادته امام قضاة نورمبرغ القضية التالية : « بعد مدة قصيرة من انتهاء الحملة البولونية ، تحدث الفوهرر الى كبار ضباط اركان الحرب فقال ما خلاصته : « انني واثق كل الثقة بقواد الطيران . فماريشال الرايش غورنغ عضو في الحزب . وانا واثق بالقواد البحريين ، فالاميرال ريدر ممن اركن اليهم . ولكنني لا اثق كل الثقة بقواد الجيش البري . »

فاحست بالاهانة ، وشعر بهـا زميلي الماريشال فون رونشتيد وطلبنـا اليه ، بوصفه اقدم الجنرالات ، ان يستوضح الفوهرر المقصود من كلماته . فتمنع رونشتيد . واثر موقفه هذا في مانشتين فانسحب . فقررت ان اطلب بنفسي مقابلة الفوهرر . فاستقبلني وانصت الي بكل هدوء ، وقـال لي انني لست في عداد من عناهم في حديثه ، وانه انما قصد اولاً قـائد الجيش الاعلى الماريشال فون براوشيتش . وبيّن لي هتلر اسباب عدائه لهذا القائد . ففهمت انه يكرهه لانـه ، على غرار بلومبرغ وفريتش وبيك ، ما فتىء يسدي اليه نصـائح يستشف منها الضعف والاحجام ، ويعترض على آرائه واعماله . »

وهكذا اختلف هتلر وبراوشيتش مرة اخرى في صدد الخطة الواجب اتباعها حيال فرنسا . وقد قـال كايتل في نورمبرغ ان قيادة الجيش كانت تعترض على الهجوم في الغرب . وقـال براوشيتش : « نصحت لهتلر ان يعتصم بالدفاع على الجبهة الغربية وان يفيد من فترة الهدوء في الشتاء ليحاول الوصول الى حل للنزاع بالطرق السياسية . وكنت منذ ١٩٣٨ قد لفتُ نظره الى ان الجيش والشعب الالمانيين لا يريدان الحرب . »

ومن المدهش حقاً ان يبدي كبير قواد الجيش الالماني هذه الروح المسالمة بعد الانتصار العظيم في بولونيا . فالمعروف عن كبار الجنود الالمان غير هذا . ولكن الحقـائق هي الحقائق . وقد وصف غورنغ في نورمبرغ قواد الجيش بقوله : « كانوا يخـافون مخـاطر الحرب . ولم يستطيعوا قط ان يمحوا من نفوسهم اثر

هزيمة ١٩١٨ . وكانوا الى هذا يخشون جانب الفرنسيين . ولو نزلنا على رغبتهم لوصل الجيش الفرنسي الى برلين . لقد كان اركان قيادة الجيش العليا جماعة من المسالمين بالنسبة الى القيادات العليا الاخرى . »

والواقع هو ان الجنرالات الالمان لم يجدوا في انفسهم القدرة على دحر الجيش الفرنسي . وكانوا ، على الرغم من انهم احسن من القواد الفرنسيين ، لا يدركون مدى اهمية الدبابة — هذه الخيالة الحديدية الهائلة ، ولا الطائرات — هذه المدفعية الطائرة الجبارة . ولم يبدلوا آراءهم العسكرية على ضوء هذا التطور الخطير في فنون الحرب الحديثة ، وظلوا يعطون للدفاع والتحصينات اهمية فقدتها منذ سنة ١٩١٨ . وكانوا ، الى هذا ، لا يثقون بقوة الجيش المرتجل الذي عهد اليهم امر قيادته ، ولم يدركوا مغزى الثورة التي حققها هتلر في الفنون الحربية فكانوا بالنسبة اليه قادة من عهد تيمورلنك !

قال هالدر في نورمبرغ : « دعانا الفوهرر في منتصف احدى ليالي تشرين الاول ١٩٣٩ ، انا وبراوشيتش ، واستقبلنا في قاعة الخارطات العسكرية في المستشارية ، وطلب الينا عرضاً جامعاً للحالة في الغرب . ولم اكد اتلفظ بالكلمات الاولى حتى قاطعني وصرفنا فجأة . »

ولم تكن هذه المقابلة القاسية سوى مناوشة سبقت المقابلة الصاخبة التي جرت بين هتلر وبراوشيتش في الخامس من تشرين الثاني . ولم يشهد هذا الحادث احد . الا ان جميع من كانوا

قريبين من مكتب الفوهرر سمعوا زئير هتلر . وقد روى هالدر للمحكمة مـا حدث بعد انتهاء المقابلة فقال : « لمـا خرج براوشيتش ، كانت الصفرة تصبغ سحنته ، وكان يرتجف وتصطك اسنانه حتى انه لم يستطع ان يروي لي مـا حدث ، واسرع في الانصراف . ولم اعلم ببعض مـا جرى الا بعد حين ، ففهمت ان براوشيتش حاول مرة اخرى حمل الفوهرر على تأجيل الهجوم في الغرب ، فانقض عليه هتلر وانتشل منه الاوراق التي كان يحملها ومزقها وداسها وهو يبرق ويرعد ، ثم طرد الماريشال من حضرته . »

وقال براوشيتش نفسه يصف ما حدث : « كان موقفاً يندى له الجبين خجلاً . فقد احتدم هتلر غيظاً لما قلت له انني لا املك المدفعية الكافية لدك الحصون الفرنسية ، وصرخ في وجهي . ثم انه انقطع عن الاجتماع بي طوال ستة اسابيـــع ، فبعثتُ اليه بكتاب استقالتي ، فرفضه وامرني بان ابقى في منصبي . »

وفي اليوم ذاته ، الخامس من تشرين الثـــاني ، حدد هتلر اليوم الثاني عشر من تشرين الثاني موعـداً للهجوم على فرنسا ، متحدياً قيادة الجيش كما قال هالدر ، لان الامر أُلغي بعد يومين . وسنعالج هذا بعد قليل .

واراد الفوهرر ان يعطي هذه القيادة درساً في احترام بلاغه العسكري ، ويحذرها من الاسترسال في الشك بمقدرتـه وسداد آرائه ، فجمع قواد الجيش بدون استثناء في الثالث والعشرين من تشرين الثاني عند الظهر في المستشارية . ولما طلع عليهم كان

اشبه بالنمر الهائج . وقد روى هالدر مـــا حدث في الاجتماع قال : « عوى الفوهرر في اولئك القواد الذين فتحوا بولونيا في اقل من اسبوعين . ونعتنا باننـــا متمسكون بآراء عتيقة ظهر بطلانها وعقمها في الحرب الماضية . وقال ان شرف الفروسية ، الذي كان حياً في نفوسنـــا ، لم يبق له اي معنى في نظره ، واننا اعطينا الدليل القـــاطع على خطإ تفكيرنا في صدد الحملة البولونية التي انتهت كما توقع هو . واشار الى معارضتنا اياه في مشروعـــاته التي كللت بالنجاح في رينانيـــا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا ، واكد انه وحـده منشىء الجيش الالمـاني الجديد رغم انف القيـــادة ، وان الفضل له وحده في الانتصار على بولونيا . وقال : « واراكم اليوم تختلقون اعذاراً واسبابـاً جديدة لتثنوني عن عزمي وتحبطوا مشروعي بالهجوم على الغرب . ولكنني ماض في تحقيق خططي . وما جمعتكم اليوم الا لاكرر على مسامعـــكم بعض المبـــادىء الاساسية لادارة دفة الحرب . »

وفي خطـاب هتلر هذا الذي تضمنه محضر الاجتماع (الوثيقة ٧٨٩ من وثائق نورمبرغ) مقطع يتعلق بروسيا الغاه القضاة ، ونبذات اخرى خففوا من وطأتها ، لان فيها تهجماً على الاتحاد السوفياتي وهو احدى الدول الكبرى التي حاكمت الزعماء النازيين وحكمت على معظمهم بالاعدام . وقد ذكرت بعض فقرات من المقطع المذكور في الفصل الاول لما وصفت هتلر . وهذه خلاصة ما قاله هتلر عن روسيا في خطابه :

« ليست روسيا اليوم خطراً علينا . فقد اضعفتها احداث عديدة . ثم ان ثمة ميثاقاً يربطها بنا . ولكن المواثيق لن تدوم اكثر مما تقتضيه مصلحة الروس . ان لروسيا مطامع ابعد من تعزيز مركزها في البلطيك . فهي تناضل لتوسيع نفوذها في البلقان ، ثم في اتجاه الخليج الفارسي . وهذا من اهدافنا ايضاً . ولكننا لا نستطيع معارضة روسيا الا متى فرغنا من الغرب . وتوافقونني على ان روسيا مبتعدة اليوم عن حلبة السياسة الدولية . فاذا دخلت فيها فلا شك في انها ستحقق الوحدة السلافية . »

وادرك القواد الالمان منذ ذلك اليوم ان القتال سيكون طويلاً ، وان اهداف هتلر ابعد مما كانوا يتصورون . وكان المهم يومذاك الفراغ من الغرب . واكد هتلر ان حياد بلجيكا ليس عقبة ، وقال : « ليس ، في الحقيقة ، للحياد البلجيكي ثمة اثر لان البلجيكيين لم يتحصنوا الا ضد المانيا . وعندي الدليل الدامغ على انهم متفقون سراً مع فرنسا وانكلترا . »

اما هولندا فكان رأي الفوهرر فيها مختلفاً عن رأيه في جارتها بلجيكا . قال براوشيتش في هذا الصدد : « اعلن هتلر في المؤتمرات العسكرية الاولى انه سيراعي سلامة الاراضي الهولندية ، ما عدا منطقة مايشتراخت التي يأمل ان يصل الى اتفاق بشأنها مع الملكة ويلهلمينا . ولكنه في تشرين الثاني ١٩٣٩ قال ان احتلال مناطق اخرى هولندية تمتد حتى خط غيبر ضروري لسلامة الهجوم في الغرب . ثم لم يلبث ان ادخل في خطة هجومه

الاستيلاء على ما اسماه بالقلعة الهولندية ، اي هولندا باسرها . »

وبعد ان اختير الميدان ، بقي رسم الخطـــة العسكرية . فكلف هتلر هيئة قيادته العليا الخاصة باعدادها . فاقتبست هـذه خطـة الحملة الالمانية سنة ١٩١٤ التي كادت تكتب الفوز لجيش غليوم الثاني . ولكن الحالة كانت قد تبدلت سنة ١٩٣٩ عما كانت عليه سنة ١٩١٤ ، ولم يبق الهجوم على فرنسا عن طريق بلجيكا مفاجأة . وحشدت فرنسا قواتها في الشمال واحتلت زهرة الفرق الفرنسية والبريطانية المنطقة الواقعة بين موبوج والبحر . وعلى هذا ، كان تكرار خطة شليفن لا بد من ان يؤدي الى اشتباك بين الجيش الالمـاني والجيش الفرنسي البريطاني وجهاً لوجه ، لا الى حركة التفاف كما حدث سنة ١٩١٤ . اما خطة هتلر القاضية بخرق الجبهة من قلبها بهجوم عن طريق لوكسمبورغ فقد كانت كفيلة بان تأخذ القيادة الفرنسية على حين غرة .

قال كايتل : « أسرتنا ، في الحقيقة ، انا وجودل ، جرأة خطة الفوهرر وبساطتها . »

ولم يدع اي جنرال الماني في نورمبرغ او في غير نورمبرغ انه واضع خطة سيدان . واعترف جميع القادة الالمان بان هتلر هو الذي ابتدعها . ومـمـا قاله غورنغ في نورمبرغ : « كانت طريقة هتلر في ادارة دفة الحرب عـلى الوجه التالي : يصدر اوامره العامة . وعندما يتلقى اقتراحات القيادات العليا يحورها ويدمج الصالح منها ، فيجعلها خطة موحدة ، ثم يشرحها لمن في عهدتهم تنفيذها . اما خطة الحملة على الغرب فقد كانت من وضعه

هو . قد كان يستشير القيادات ، الا ان الفكرة الاستراتيجية الرئيسية كانت فكرته وحده . فهو الذي قال بالزحف في الجنوب لتوحيد الجبهة في النهاية . وهو مبتدع الكلابة التي اطبقت على الجيش الفرنسي . فلقد كان حجة في الفن العسكري . اما هيئة قيادة الجيش فقد كانت خطتها بسيطة تقضي بفتح جبهة قتال على نهر الموز . وكان لهتلر وحده ايضاً الفضل في انزال المظليين خلف الخطوط المعادية واستخدام الفصائل المنقولة بالطائرات في غاند اولاً ، ثم الاستيلاء على جسور الموز ومورددريك ودووردريخت وروتردام . وأعد هتلر اخيراً بنفسه خطة الاستيلاء بحركة مفاجئة على قناة الير وحصن ابن ايمايل . »

درس هتلر منذ حداثته ، باهتمام واقبال نادرين ، حملات كبار القادة العسكريين كمولتكه وشليفن ولاسيما كلوزويتز ، وتعمق في تحليل الخطط الحربية التاريخية وفي مقدمتها خطط فريدريك الثاني . وساعده حضور الذهن الذي امتاز به على ادراك مغزى الحملات واغراضها ونتائجها . وكان الوحيد بين الزعماء الالمان الذي عرف مبلغ ضعف الخصم ، وهبوط مستوى رجاله العسكريين حتى المعرفة ، فافاد منها . وقدر اهمية الدبابة والطائرة في الحرب الحديثة ، التقدير اللائق بها . وليست مناورة سيدان التي تعتبر من بدائع الفن العسكري الا نتيجة لهذه الدروس العميقة والآراء الناضجة ، ولهذه المقدرة الخارقة في رجل لم يتلق ثقافة عسكرية ولو بسيطة .

وسرد كايتل وجودل وغورنغ في نورمبورغ بعض دقائق

التدابير التي اتخذت لتطبيق خطة هتلر . ويستخلص مما قالوه ان قلب الجيش الالماني نقل من منطقة لباج الى منطقة سيدان . وعززت الفرقة المصفحة الوحيدة المرابطة امام لوكسمبورغ بفيلق غودريان وبعناصر اخرى مصفحة ، فشكل المجموع ثلاث فرق ونصف فرقة . ونقل القسم الاعظم من الاسطول الجوي الالماني من شمالي بلجيكا الى وادي الموز الاوسط . وجرت في غضون الشتاء تبديلات مكررة في الجهاز الهجومي ، ولكنها لم تخرج عن النطاق الذي حدده الفوهرر وهو تعزيز القلب في مقابلة لوكسمبورغ وسيدان . قال جودل : « فاصبحت قواتنا في جنوبي خط لباج – نامور تفوق قواتنا في الشمال خمسة اضعاف . » (في ايار من العام ١٩٤٠ ، اي بعد الهجوم ، كان في الجيب الذي احدثه الجيش الالماني في سيدان تسع فرق المانية مصفحة ، بينما لم يكن في هولندا سوى فرقة مصفحة واحدة) .

وعين هتلر مدينة ابفيل هدفاً للهجوم ، على ان ترحف اليها المصفحات الالمانية ، ومن ورائها مباشرة الفرق المصفحة الاربع التي لا يملك الجيش الالماني غيرها ، دون ان تنتظر للالتحاق بها فرق المشاة التي تتبعها .

الا ان هناك خطراً كان يهدد الخطة بالفشل . وقد اوضحه جودل بقوله : « لو ان الجيش الفرنسي انتظر في مكانه ثم تحول فشن هجوماً معاكساً نحو الجنوب بدلاً من الاشتباك مع الالمان في بلجيكا ، لكان فشل الخطة محتملاً . »

ولكن هتلر اغضى عن هذا الاحتمال لانه كان يدرك ان

الجيش الفرنسي عاجز عن القيام بمناورة ليقاتل على جبهة معكوسة . واعد هتلر في الوقت ذاته عملاً كان ، في الحقيقة ، ثورة على التقاليد العسكرية المعروفة حتى ذلك الحين . فقد كلف الفرقة السابعة المعدة للانتقال جواً ، وهي نخبة جيوش الانقضاض ، بان تنقض ، عند بدء الهجوم ، على مدينة غاند الواقعة في قلب جهاز الدفاع الفرنسي الانكليزي البلجيكي . وكان على هذه الفرقة ان تستولي على المدينة لتجعل منها مركزاً للمقاومة ونواة تقذف العدو بالنار من جميع الجهات ، فتلقي البلبلة في صفوفه . ولم يكن المظليون يومئذ قد استخدموا الا في بولونيا بكميات ضئيلة . فاعتمد هتلر على اثر المفاجأة الذي سيحدثه في العدو هبوط فرقة كاملة عليه من السماء . وكان مصيباً في ذلك لان القيادة الفرنسية لم تفكر مطلقاً بعمل كهذا ، او ، على الاقل ، بهذا الشكل الواسع : جيش يتساقط من السماء ! من كان يصدق ؟

وكان القواد الالمان اول من اذهلتهم خطة هتلر . قال غورنغ : « تهافت علي القواد من الجنرالات الى قواد الفرق يسألونني ان اتوسط لدى هتلر ليبدل خطته . وتوقعوا كوارث ، وكانوا يظنون ان الجيش الفرنسي قوي جداً ، وان الجنرال غاملان داهية عسكري . ولكن رأيي كان بخلاف ذلك . وكنت واثقاً بان الجيش الفرنسي ضعيف الى اقصى حدود الضعف . »

وكان اكثر ما دهش له كبار القادة ذاك الزحف السريع في وديان فرنسا الشمالية الذي امر به هتلر . وكانت تبدو لهم

جنونيـة فكرة انطلاق الفرقة المصفحة باقصى سرعتها ، دون ان يدعمها من خلف جيش من المشاة او مدفعية ثقيلة . والغريب في هذا ان الجنرالات الالمان كخصومهم الفرنسيين لم يفيدوا علماً من الحملة البولونية ينير امامهم سبل الحرب الحديثة واساليبها الجديدة . وقد ساقهم خوفهم من العواقب الى الاستنتاج الذي وصل اليـه اركان القيادة الفرنسية العليا وهو ان مـا حدث في الشرق لن يتكرر في الغرب . وتصور القادة الالمان جيوشهم وقـد ارتد اليها الفرنسيون بهجوم معاكس فقطعوها عن مؤخرتهـا وعزلوها واحدقوا بها ليبيدوها . وعلى هـذا رفعت هيئة قيادة الجيش مذكرة الى الفوهرر تطلب اليه فيهـا تحوير خطته على شكل يدع للمشاة الوقت الكافي للحاق بالفرق المصفحة بعـد ان تخترق هذه جبهة الموز . فالقاها الفوهرر في سلة المهملات .

وكان هتلر تواقاً الى الاسراع في العمـل وشن الغارة فور حشد الجيش في المراكز المعينة لينتهي من حملته قبل عيد الميلاد . وساعد انتظام شبكة الخطوط الحديدية الالمانية على نقل الجيوش بسرعة فائقة من الفيستول الى الرين . وفي مطلـع تشرين الثاني كان الهجوم على فرنسا معداً اتم العدة . وفي اليوم الخامس وقع الفوهرر امر الهجوم محدداً اليوم الثاني عشر موعداً له . وقـد تضمنت وثائق نورمبرغ نصوص هـذا الامر والاوامر التي سيأتي ذكرها . وهذه خلاصته عن طريقـة العمل ومواعيده : يصدر الفوهرر امره بالهجوم في اليوم ج ٦ قبل ثمانٍ واربعين ساعة . الا ان الغاء هـذا الامر محتمل باشارة بسيطة حتى يوم ج ١ في

الساعة الثالثة والعشرين ، اي ان الموعد كان معيناً على شكل يمهل القيادة العليا خمس ساعات او ستاً لاتخاذ قرارها بالهجوم قبل الساعة ٥ . ولكن هتلر اشترط شرطاً واحداً وهو ان يكون واثقاً من ان الطقس يكون صحواً لمدة اسبوع على الاقل . وقد صرح كايتل امام قضاة نورمبرغ بان رئيس دوائر الارصاد الجوية كان يزور الفوهرر ظهر كل يوم في مكتبه ليقدم اليه تقريراً عن احوال الطقس .

وحدث ان كان خريف ١٩٣٩ ممطراً . وفي السابع من تشرين الثاني كانت المراصد الجوية تنذر بهطول امطار غزيرة في اوروبا الغربية . فالغى هتلر الامر الذي كان قد اصدره قبل يومين والقاضي بالهجوم في الثاني عشر ، واوجب موعد الهجوم ثلاثة ايام على الاقل ، وحدد اليوم التاسع موعداً لاصدار قراره الجديد . وفي الموعد المضروب كانت الاحوال الجوية اسوأ من قبل ، فاصدر امره بتأجيل الهجوم ، وعاد فأجله الى العشرين ، ثم الى السابع والعشرين ، واخيراً الى التاسع والعشرين من تشرين الثاني . وحلّ كانون الاول دون ان يتحسن الطقس . وتتابعت اوامر التأجيل في الرابع والسادس والثاني عشر والسابع والعشرين من كانون الاول .

وهكذا وقف بوجه هتلر عدو جبار لا يملك وسيلة لمقارعته . ولكن الايام والاسابيع التي انقضت لم تذهب سدى لان مصانع الحرب الالمانية اكملت عدة الجيش الالماني ، ولان تشكيل الفرق الجديدة كان متواصلاً بسرعة متناهية حتى ان دائرة الاستعلامات

الفرنسية اتهمت الضابط المكلف احصاء قوات العدو بانه يخترع ارقاماً خيالية لفرق المانية لا وجود لها في الحقيقة .

وكان هتلر ، مع ذلك ، يتميز غيظاً حتى اصبح الاقتراب منه استنزالاً لجام غضبه . وكان رئيس دوائر الارصاد الجوية المسكين ، كلما حان موعد تقديم تقريره ، يسير الى مكتب الفوهرر بخطى ثقيلة كأنه يحمل على عاتقه غضب السماء والطبيعة !

واخيراً انقشعت الغيوم صباح التاسع من كانون الثاني ١٩٤٠ ، واطل « الجنرال بارومتر » بوجه صبوح مشرق ، وتحسن الطقس . وكان الشتاء قاسياً ، ولكنه مؤات للهجوم لانه يجمد الانهر والوحول ، ويقشع الضباب ، ويشل حركة الجيش الفرنسي في مراكزه الدافئة .

وفي الحادي عشر من كانون الثاني اذاعت هيئة القيادة العليا الامر التالي موقعاً بامضاء كايتل : « في العاشر من كانون الثاني ١٩٤٠ امر الفوهرر قائد الجيش الاعلى ، بعد مؤتمر عقده مع قادة الطيران والجيش ورئيس اركان الحرب العام ، بما يلي :

« اليوم آ والساعة ز : اليوم آ هو الاربعاء السابع عشر من كانون الثاني ١٩٤٠ . الساعة ز هي خمس عشرة دقيقة بعد بزوغ الشمس في ايكس لا شابيل ، اي في اليوم آ عند الساعة الثامنة والدقيقة السادسة عشرة . وستعطى كلمتا السر رين او ايلب حسب الاحوال الجوية في اليوم آ ١ عند الساعة الثالثة والعشرين على الاكثر . »

وكلمة « رين » كانت تعني الهجوم . اما كلمة « ايلب » فمعناها التأجيل .

وهكذا قرر هتلر شن الهجوم على الجبهة الغربية في السابع عشر من كانون الثاني ١٩٤٠ في قلب الشتاء . ولكن حادثاً هاماً وقع على حين غرة . ففي الثاني عشر من كانون الثاني اضطرت طائرة استكشاف المانية للهبوط في بلجيكا . وكان فيها قائد الماني برتبة مقدم يحمل اوراقاً سرية وخارطات رسمت عليها مناورات الجيش الالماني السادس المكلف بالهجوم على فرنسا وطريقة هبوط الفرقة الجوية السابعة على مدينة غاند . وقد ارتكبت القيادة الالمانية هذا الخطأ العظيم فتركت للمقادير وثائق عظيمة الاهمية كهذه في جيب قائد يحوم في الجو فوق ارض محايدة تشعر بالسيف الالماني مصلتاً عليها .

وكان غضب هتلر عندما أبلغ النبأ مما يصعب وصفه . قال كايتل انه شهد يومئذ اعنف عاصفة عرفها على الاطلاق . فثار الفوهرر وتوعد خونة هيئة القيادة . وانتهى الامر بان جمع قواده ودرس معهم القضية . وسرد غورنغ في نورمبرغ تفصيل تلك الفترة ، فقال : « لم نكن نعلم هل وجد طيارونا الوقت الكافي لاحراق الوثائق التي كانوا يحملونها ، وهل اطلع البلجيكيون ومن ورائهم الفرنسيون على خطتنا في الهجوم . ولكن كان علينا من قبيل الحرص ان نفترض شر الافتراضات . وكان امامنا طريقان : اما الهجوم حالاً قبل ان يتمكن العدو من احباط خطتنا الحربية ، او تأجيل العمل لتحوير ما يحتمل ان يكون

قد وقع من مناهجنا العسكرية في ايدي الاعداء . »

وتردد هتلر بين الاقدام والحرص . واستدعى رئيس دوائر الارصاد الجوية وسأله أيستطيع ان يحدد له بشكل لا يقبل الجدل ، اسبوعاً صحواً . فاجابه بالنفي ، مؤكداً ان ضبط الاحوال الجوية في هذا الفصل من السنة بصورة اكيدة مستحيل. وكان هذا الجواب فصل الخطاب ، واعلن هتلر تأجيل الهجوم الى الربيع .

اما الوثائق الالمانية فلم يجد الطيارون الوقت لاتلافها فصادرتها السلطات البلجيكية واحالتها الى هيئة القيادة الفرنسية . وبعد ان درستها هذه ، قررت انها خدعة . ولعلّ الجرأة العظيمة في خطة الهجوم هذه وتحديد موعدها في الشتاء القارس زادا القيادة الفرنسية اعتقاداً بان في الامر خدعة مفضوحة . واعتقد من فحصوا الوثائق ان الغرض من هذه اللعبة استدراج الجيش الفرنسي الى بلجيكا للتغرير به من جهة وحمله على خرق حياد بلجيكا واظهار فرنسا بمظهر المعتدي من جهة ثانية .

ولما حل السابع عشر من كانون الثاني ولم يقع الهجوم الالماني ، لم يراود احداً في فرنسا وبلجيكا اي شك في ان الوثائق كانت كاذبة مضللة .

ولكنها كانت في الواقع حقيقية ، وكان خطأ الحلفاء عظيماً اذ اهملوها .

الالمان يسبقون الانكليز الى النروج

في العشرين من شباط ١٩٤٠ استدعى هتلر من كوبلانس الى برلين الجنرال فون فالكنهورست الذي كان يقود الجيش الالماني الحادي والعشرين . ولما سأل قضاة نورمبورغ هذا القائد عما جرى في تلك المقابلة قال : « لم اكن اعرف سبب هذه الدعوة . ووصلت الى المستشارية في الساعة الحادية عشرة من الحادي والعشرين من شباط ، فاستقبلني هتلر وكان كايتل وجودل حاضرين . وكنت سنة ١٩١٨ قد اشتركت في غزو فنلندا من البحر ، فذكرني الفوهرر بهذا ، وسألني ان اقص عليه ما جرى يومذاك . ورحت اشرح له ذلك ، الى ان استوقفني واقتادني الى منضدة بسطت عليها خارطة اوروبا الشمالية وقال : انني افكر في القيام بعمل مماثل وهو احتلال النروج . فقد بلغني ان الانكليز عازمون على غزوها واريد ان اسبقهم الى هناك ، لان استيلاءهم عليها يوصلهم الى البلطيك حيث لا نملك قوات ولا تحصينات ساحلية ، فيصبح في استطاعتهم ان يلتفوا علينا ويزحفوا على برلين فيحطمون عمود جبهتينا الفقري . ثم ان احتلالنا النروج يضمن لاسطولنا البحري حرية العمل في خليج ويلهلمشافن ، ويحمي ما نستورده من الفحم الاسوجي . وعلى هذا اصبح غزو النروج ضرورياً لمواصلة الحرب ، بل حاسماً في النتيجة . ولست

اری افضل منك لقيادة هذه الحملة . »

وقال جودل في نورمبرغ : « فقبل فالكنهورست هذه المهمة بارتياح ظاهر . وكان كايتل هو الذي ارشد هتلر الى هذا الجنرال . وصرفه الفوهرر على ان يعود بعد الظهر ليطلع على تفصيل الخطة . وفي الساعة الخامسة عاد فالكنهورست وجلس وهتلر وكايتل وجودل الى طاولة الخرائط . فاعلمه الفوهرر بان الخطة من وضع هيئة القيادة العليا التي يترأسها ، وان الحملة ستكون مؤلفة من خمس فرق ، وانها لن تغزو غير الموانىء لاحتلال السواحل لا النروج بكاملها ، ولمحاربة الجيش النروجي ، وطلب اليه ان ينظم خططه على هذا الاساس . »

وقد تضمنت مذكرات جودل عدة معلومات عن تحضير خطة غزو النروج ، منها ان تحضيرها بدأ في الخامس من شباط ، وان هتلر طلب في السادس والعشرين من الشهر ذاته الى الجنرال واوليمونت ان يدرس الاحتمالين الآتيين : الاول غزو النروج بعد الهجوم على فرنسا ، والثاني غزوها اولاً . وفي الثالث من آذار ، كما جاء في مذكرات جودل ، قرر البدء بالحملة على النروج . واطلع فالكنهورست رئيسه فون براوشيتش على المهمة التي كلف بها ، فاجابه بان لا شأن له بهذه الخطة ، وان مهمته منحصرة في تقديم خمس فرق وتجهيزها بالعتاد اللازم ! وهكذا لم يستشر هتلر براوشيتش ولا هالدر رئيس اركان الحرب العامة . وفي العشرين من اذار ابلغ فالكنهورست الفوهرر انه انهى استعداده للعمل ، فاعاد هذا فحص الترتيبات ، ثم حدد

التاسع من نيسان موعداً للنزول الى سواحل النروج .

وكان هذا العمل محفوفاً بالاخطار ، دقيقاً غاية الدقة ، وصعب التنفيذ . فالاسطول الانكليزي يحمي البحر . وما كان بالامر السهل ارسال سفن حربية الى مرافىء برغن وتروندهيم ونارفيك ، وهي بعيدة كل البعد عن الشواطىء الالمانية .

ورسمت الخطة على اساس ارسال سفن حربية منفردة تحاول المرور في غفلة من رقباء البحر ، ثم تتسلل الى مقربة من اهدافها المعينة . وكان ابعدها مرفأ نارفيك . وقد كلفت عشر مدمرات سريعة مهمة احتلاله . وكان عليها ان تجتاز الساحل النروجي بكامله دون ان تسترعي انتباه السفن البريطانية التي كانت تجوب تلك الاصقاع .

وفي اول نيسان جمع هتلر في برلين كبار الضباط الذين عهد اليهم ادارة دفة الحملة ، وبسط امامهم الخطة مفصلة على الخرائط ، وعين لهم مراكز نزول كل منهم . واستغرق الاجتماع ثماني ساعات متواصلة درست فيها الخطة بعناية فائقة .

وفي الثاني من نيسان عند الساعة الثالثة صباحاً ابحرت اول مدمرة المانية الى نارفيك . وتتابعت السفن في الايام السبعة التالية ، وازداد خطر اكتشافها . وكثر القلق لما اعلم الاميرال ريدر الفوهرر في الخامس من نيسان ان من المحتمل ان تكون غواصة انكليزية قد اكتشفت احدى سفن الغزو الالمانية . وفي الثامن بث الانكليز الغاماً في مياه النروج الاقليمية . وظنت القيادة الالمانية العليا ان السر قد افشي . ولكنه ظل في الحقيقة

مصوناً . وكانت الخطة محكمة فنجحت كل النجاح . وكان خبر غزو النروج مفاجأة كبرى . وما دهش الانكليز لامر بقدر دهشتهم لما بلغهم ان عشر مدمرات المانية منتصبة امام نارفيك زاخرة بالجنود . وظنت الاميرالية البريطانية ان في الامر التباساً في الاسماء وان تلك السفن كانت امام لارويك بالقرب من اوسلو العاصمة . وبينما الجيوش الالمانية تجتاز حدود الدانيمرك وتنزل الى اليابسة على الساحل النروجي ، كان وزيرا المانيا المفوضان في الدانيمرك ونروج يطلبان الى الحكومتين قبول الامر الواقع ، ويؤكدان ان الغاية من هذا العمل منع الانكليز من استباق المانيا اليه . ونجح المسعى الديبلوماسي في كوبنهاغ وقبلت الدانيمرك بالاستسلام ، ولكنه فشل في اوسلو . وقد عزا فالكنهورست ، في اعترافه امام قضاة نورمبرغ ، رفض الحكومة النروجية الى اصرار هتلر على فرض كويسلنغ رئيساً عليها . وقال : « ولما وصلت الى اوسلو في الساعة الخامسة بعد ظهر العاشر من نيسان صرح لي وزيرنا برور بانه سيطلب الى الفوهرر العدول عن فرض كويسلنغ ، فايدته . فاتصل ببرلين ، فكان نصيبه العزل بعد بضعة ايام . » وهب الشعب النروجي لمقاومة الالمان الغزاة ، فاوفد الفوهرر الى اوسلو تيربوفن وهو من زعماء ايسن المشهورين بالقسوة والصرامة في الادارة .

وكان نزول الجيوش البريطانية الى النروج في اندالسنيس وتقدمهم السريع في غودبراندسدال ثم غزوهم ليليانهامر ، مفاجأة للالمان ، ولكنهم دحروا الانكليز . وفي الثلاثين اتصل الجيش

الالماني الذي نزل الى تروندهيم بالجيش الزاحف من الجنوب ، وانتهت حملة النروج الجنوبية بانسحاب الانكليز . وقد وقعت في يد القيادة الالمانية وثائق تثبت ان البريطانيين كانوا عازمين على غزو النروج ، وان السفن المكلفة هذا العمل كانت قد ابحرت فعلاً لما تلقت الاميرالية البريطانية نبأ نزول الالمان الى السواحل النروجية . ولكن الالمان سبقوا الانكليز بثلاثة ايام فقط .

وبقيت نارفيك عقدة الحملة . فقد كانت الاعمال الحربية فيها موآتية للانكليز ، وانزلت المدرعة الانكليزية ورشيب بالمدمرات الالمانية ضُربات قاصمة . وكانت الفرقة النروجية السادسة معبأة تماماً تدعمها قوات انكليزية وقناصة فرنسيون وافواج من الفرقة الاجنبية وقوات بولونية . قال جودل يروي ما حدث في نارفيك : « في الرابع عشر من نيسان ، اقترح هتلر سحب فرقة « ديلت » الالمانية التي نزلت الى نارفيك من الجنوب . فاجبته بان هـذا العمل مستحيل بسبب وعورة الارض . واستقدمنا من جامعة انسبروك خبيراً باحوال جبال النروج فايد رأيي . ففكر الفوهرر بسحب قواتنا من البحر ، ولكنه اقتنع ، بعد الفحص والتدقيق ، ان عملاً كهذا يؤدي الى ابادة فرقة « ديلت » على بكرة ابيها . وفي السابع عشر اصدر اليها امراً بالثبات حتى آخر رمق . »

وقال فالكنهورست : « كانت فرقـة ديلت في موقف حرج جداً . وقـد أدى اهمال البحرية الى تحطيم المدمرات الالمانية العشر امام نارفيك ومصرع قائدها بونت . فاقترحتُ ان يقوم الاسطول البحري بمحاولة لأنقاذ جنودنا ، ولكن

الاميرال ريدر رفض اقتراحي . وكان وصول سفن النقل الى نارفيك مستحيلاً ، فأضطررنا للاعتماد على الطائرات في تموين فرقة ديبلت ، وقد اكرهت على التراجع الى الحدود الاسوجية . وفي مطلع حزيران سيرتُ قسماً من الجيش للاخذ بناصرها فلاقى مصاعب جمة في ارتقاء المناطق الجبلية الوعرة . »

والواقع ان القوات الالمانية في نارفيك كانت صائرة الى الهلاك او الى دخول اسوج حيث ينتظرها الاعتقال . وكانت تتراجع على طول الخط الحديدي في اتجاه الحدود الاسوجية . ولم ينقذها سوى معركة دنكرك . وقد وصف فالكنهورست في نورمبرغ هذا التحول الفجائي في نارفيك فقال : « في التاسع من حزيران ابلغتني فرقة ديبلت انها تسمع دوي انفجارات من نارفيك . فظننت ان سفننا الحربية اسرعت الى نجدة الفرقة كما طلبت . ولكنني علمت بعدئذ ان الانفجارات لم تكن سوى اصداء الدمار الذي احدثه الفرنسيون والانكليز قبل ان يجلوا عن نارفيك . »

وفي اليوم ذاته تلقى الجنرال روج القائد الاعلى للقوات النروجية نبأ من مركز قيادته يعلمه بان الحملة الحليفة ركبت البحر تاركة البلاد . فابرق الى لندن مستوضحاً ، فاكد له الانكليز الخبر . وعادت فرقة ديبلت الى نارفيك بعد ان انقذتها مصفحات غودريان بغزوها الجبهة الغربية .

حملة هتلر على فرنسا

استغرقت الحملة على النروج جهـد هتلر ونشاطه طوال شهر قضاه في تحضير خطتها وتجهيزها . ولم يعد الى الحديث عن الحملة على فرنسا الا في الحـادي والعشرين من نيسان . وقد ذكر جودل في مذكراته : « ان الفوهرر اعلن عزمه على اعطاء الامر بتنفيذ الخطة (خطة غزو فرنسا) بين الاول والسابع من ايار ، وامر بان يبدأ الاستعـداد للعمل في الرابع من ايار ليكون كل شيء جاهزاً ، فتطبق الخطـة في اليوم الذي يلي صدور الامر بالهجوم . »

وكانت الاعمال التي تمت في الشتـاء قد زادت منهج الهجوم انتظاماً وعزز جـانب القوات التي كانت معدة للزحف نحو الغرب ، بفرق جديدة . وممـا قاله جودل في مذكراته بهذا الصدد : « في الثالث عشر من شباط تلقى الفوهرر من قيـادة الجيش تقريراً عن توزيع القوات الالمانية على جبهـة الاردين . فاثار مجدداً قضية قلب الهجوم المعـد لتحمل النصيب الاكبر من العمل . واسترعى انظار القواد الى ان دبابات عديدة كلفت العمل في مناطق ثانوية بينما تستطيع تأدية خدمات جليلة لو عينت لمراكز أهم ، وقضى بان يؤخذ من الفرق المصفحة التابعة للجيش الرابع فصائل لتسند الجيشين الثاني عشر والرابع عشر . »

وعلى هذا قرر هتلر ان يعدل منهج الحشد ، وان يقوي الجيوش المرابطة امام سيدان معللاً قراره بان العدو لا يتوقع ان يتلقى الضربة الكبرى في هذا القطاع ، وان الوثائق التي وجدت مع الطيارين الالمان الذين هبطوا في بلجيكا لا بد ان تكون قد زادت العدو اعتقاداً بان هدف الالمان غزو الساحل الهولندي – البلجيكي .

وانصب اركان الحرب على العمل . وكان جناح الجيش الالماني الزاحف مؤلفاً من مجموعة الجيوش « ب » بقيادة الماريشال فون بوك ، ومكلفاً العمل في شمالي لياج ، ومن مجموعة الجيوش « آ » بقيادة فون رونشتيد وكان عليها الخروج الى فرنسا من طريق لوكسمبورغ . وسحبت الفرقتان المصفحتان الاولى والخامسة من مجموعة الجيوش الاولى ، وضمتا الى مجموعة الجيوش « آ » ، وسحبت من الاحتياطي الفرقة المصفحة التاسعة وضمت بدورها الى هذه المجموعة .

وادت هذه التدابير التي وقعها هتلر في ١٨ شباط الى حشد عناصر المانية ضعيفة امام صفوة الجيوش الفرنسية البريطانية المرابطة من موبوج حتى البحر . ولكنها جعلت الجيوش الالمانية ، على جبهة الاردين تجاه الموز ، قوية جداً تضم خيرة الفرق الالمانية من مشاة ومصفحات .

قال جودل في مذكراته : « رفعت الى الفوهرر تقريراً عاماً بيّنت فيه اننا بهذا الترتيب نحشد اربعة اخماس جيوشنا جنوبي خط لياج – نامور ، وخمساً واحداً في الشمال . ولفتُ

نظره الى ان حركة اختراق جبهة سيدان قد تنقلب علينا اذا تحول الينا العدو بهجوم معاكس . ولكنه سفّه رأبي مؤكداً ان العدو لن يكون له الوقت الكافي للتحول الينا على جبهة الاردين ، وان الضربات المفاجئة في بلجيكا ستجعله يبقي قواته حيث هي على الجبهة الشمالية . ولكنني لم اقتنع .

والواقع ان هتلر كان يبني رأيه هذا على الاعمال الحربية التي امر الجناح الشمالي من الجبهة الالمانية الهجومية بالقيام بها . وقد طبق (وهو الذي اخذ الفن العسكري عن كبار العسكريين ، وهو المبدع في هذا الفن) المبدأ القائل : كن شجاعاً حيث انت ضعيف .

وهكذا كان مقرراً ان يبدأ القتال بضربات شديدة مفاجئة يسددها الجناح الشمالي للجيش الالماني في هولندا وبلجيكا ، بينما تكون مصفحات غودريان زاحفة بصمت في جبهة الاردين ومتغلغلة في تلك الاراضي دون ان يعترضها معترض . وقد وضع هتلر بنفسه هذه الاساليب العسكرية الفنية المدهشة . ويذكر القارىء انه عدل في شهر كانون الثاني عن انزال فرقة جوية في غاند . الا انه ابدل الهدف ، فامر بهبوط الفرقة في هولندا لتحتل الجسور الكبرى على نهر الموز في دوردريخت ومايدريك ويقيم نواة هجوم في لاهاي وروتردام . وتلقت الفرقة السابعة التي يقودها فليغر الامر بالاستيلاء على ممرات قناة البير وحصن ابين ايمايل الذي يعتبر اساس تحصينات لياج ، والذي شبهه الفرنسيون بتحصينات خط ماجينو . وكانت خطة الاستيلاء على الحصن

محكمة اشتركت فيها القاذفات المنقضة والسابحات الجوية ناقلة الجيوش وجنود التخريب .

وتحقق ما توقعه هتلر . وكان الهجوم الجوي على هولندا وسقوط تحصينات ايبن ايمايل في ساعات معدودة ، مما زاد القيادة الفرنسية اعتقاداً بان الهجوم الالماني على فرنسا سيقع من طريق هولندا ، فاسرعت بتعزيز جيوشها في الشمال وظلت ثلاثة ايام منشغلة عن زحف الجيش الالماني المصفح في منطقة سيدان . وكانت المرحلة الاولى من هذا الهجوم الساحق ترمي الى تحطيم اكبر قسم من الجيش الفرنسي والاستيلاء على سواحل بحر الشمال . اما المرحلة الثانية فكان الغرض منها سحق قوة فرنسا المقاتلة تماماً .

وكان هتلر يعتمد على مساعدة ايطاليا العسكرية . وقد قابل موسوليني في ممر برينر في شهر آذار ، وعاد مرتاحاً لنتيجة المقابلة اذ اكد له موسوليني ، بحضور شيانو ، انه مستعد للعمل . وكان مقرراً ان تتدخل ايطاليا بعد الانتصارات الالمانية الاولى ، فتنتقل ثماني عشرة فرقة ايطالية عبر الرين وتلتف حول منطقة الفوج الفرنسية بثغرة بلفور وتنقض على لانغر . وعهدت القيادة العليا الى الجنرال فون ستولبناغل . وكان كل شيء معداً للهجوم العام . ولكن الاحوال الجوية كانت على حالها من التقلب ولم تستطع مصلحة الارصاد تسجيل ايام الصحو الثمانية التي طلبها هتلر . وتململ الغازي من هذه العقبات الطبيعية التي لا تحارب وحاول معاندتها . وفي الخامس من ايار وقع امراً حدد به موعد الهجوم

لليوم الثامن ، ولكنه الغى الامر بعد ساعات لأن النشرة الجوية انبأت بقرب هطول الامطار . وكانت هذه المرة الثالثة التي يلغي فيها امراً بالهجوم منذ تشرين الثاني ١٩٣٩ . وفي الثامن من الشهر ذاته شعر هتلر بالقلق على سره . ومما جاء في مذكرات جودل عن هذه الفترة قوله : « تردنا من هولندا اخبار تبعث على القلق كالغاء المأذونيات في الجيش ، واخلاء المدن والمراكز الصناعية الكبرى ، ونصب الحواجز في الطرق ، وانشاء التحصينات . ويوافينا بعض عملائنا باشاعات مؤداها ان الحكومة البريطانية طلبت من هولندا السماح لها بمرور الجيوش الانكليزية باراضيها وان الهولنديين رفضوا ، وبانباء تدعي ان القيادة الهولندية اتخذت تدابير عسكرية على الساحل وعلى الحدود الشرقية ، استعداداً لصد هجوم الماني . ومن الصعب معرفة هل الهولنديون متفقون في هذا الاستعداد مع البريطانيين ام انهم عازمون على الدفاع عن حيادهم ضد كل معتد . اما الاحوال الجوية فقد تحسنت بعض الشيء بوجه عام ، ولكن المراصد تنبىء بضباب في الايام المقبلة . »

وطلب براوشيتش تأجيل الهجوم الى العاشر على اقل تقدير . وكان هتلر في اشد اطوار نشاطه وعصبيته ، فلم يرق له هذا الطلب ، ولكنه وافق عليه بعد بحث طويل . وفي التاسع من ايار اصدر الفوهرر امره النهائي بالهجوم . وكان امراً بسيطاً طبع بالآلة الكاتبة على وريقة كغيرها من الاوراق الرسمية . . . وريقة كلماتها معدودة نتج عنها انهيار فرنسا ، وسقوطها طوال خمس

سنين تحت اقدام المنتصر ... وهذا نص الامر :

« القيادة العليا رقم ٢٢ – ١٨٠/ ٤٠ .

« قرر الفوهر القائد الاعلى ما يلي :

« اليوم آ ...... ١٠/ ٥ .

« الساعة ز ...... ٥ و ٣٥ دقيقة .

« تعطى الكلمة المتفق عليها « دانتزيغ » او « اوغسبورغ »

« الى مختلف وحدات الجيش في الساعة ٢١ والدقيقة ٣٠ .

« رئيس القيادة العامة للجيش الالماني : كايتل . »

وفي مساء اليوم ذاته غادر الفوهرر برلين في قطاره الخاص .

وكانت بعدئذ ايام زاخرة بالجليل من الاعمال ، والخطير من الاحداث سجل جودل في مذكراته اهمها . فكتب في الحادي عشر يقول ان الهولنديين يقاومون مقاومة اليائس وان جميع الجسور في منطقة مايستريخت ما عدا جسر غمرب قد دمرت ، وان فرقة سبونيك (الفرقة السابعة) تصطدم بمقاومة عنيفة . ولكن الفرقة الجوية تسيطر على الموقف بعد ان احتلت جسور نهر الموز سليمة ، وحصون ابين امايل . وتسير الاعمال الحربية سيراً حسناً . وسجل جودل ايضاً ان القوات الالمانية عبرت قناة البير . وبعد ثمان واربعين ساعة تحول الاهتمام الى جبهة الموز من نامور الى سيدان . وتدل مذكرات جودل على ان هتلر كان يدير دفة الهجوم ، وان اول ما امر به تعزيز الزحف نحو ابفيل وتنفيذ خطته الحربية بحذافيرها .

وفي الثامن عشر اصدر الفوهرر اوامر صارمة بسحب القسم الاعظم من القوات المصفحة من مجموعة الجيوش « ب » وضمها الى احتياطي المجموعة « آ » . وفي اليوم ذاته امر هتلر براوشيتش بتحويل الفرقتين المصفحتين الثانية والتاسعة والعشرين اللتين كانتا مشلولتي الحركة في الجنوب ، وطلب تأسيس جبهة دفاعية من الوحدات الثانوية على نهر الاين ، ثم جدد امره بتسيير جماع الفرق الآلية والمصفحة في اتجاه الغرب بدون التفات الى اي اعتبار آخر .

وفي العشرين من ايار كتب جودل : « تعمل الآن جميع فرقنا المصفحة ، الا التاسعة ، في الثغرة التي احدثناها في سيدان . وقد اصبح من الثابت ، خلافاً لما كنا نخشى ، ان القسم الاعظم من القوات الفرنسية البريطانية لم يستطع الانكفاء والخلاص ، وانه باق شمالي الصوم (في الشمال) ما لا يقل عن عشرين فرقة من جيوش العدو . »

وفي المساء تلقت القيادة العليا خبر استيلاء الالمان على ابفيل ، فكان سرور الفوهرر عظيماً ووصفه جودل بانه تعدى حد الوصف . ولا غرو ، فقد بلغ هتلر هدفه في اقل من عشرة ايام ، واثبت هذا الفوز صواب منهجه الفني وانتصار آرائه في السياسة العسكرية . وبدأ يفكر في النصر وقال : « ستجري مفاوضات الهدنة في غابة كومبيان ، كما حدث سنة ١٩١٨ ، وستنقل حافلة القطار ، التي تشهد المفاوضات ، الى برلين . ويجب ان تعيد معاهدة الهدنة الى المانيا جميع الاراضي التي سلبت منها منذ

اربعمائة سنة . اما انكلترا فسيكون لها الصلح متى ارادت بشرط ان تعيد الينا مستعمراتنا القديمة . »

وكان الانتصار من السرعة بحيث لم يحتج الجيش الالماني الى معونة ايطاليا . فالغى هتلر خطة الهجوم الايطالي على لانغر ، كما الغى ، اجتناباً لخسائر لا فائدة منها ، الهجوم الذي كان مقرراً ان يشنه الجيش الالماني العاشر على خط ماجينو .

وفي اليوم التالي شدد الفوهرر اوامره الى براوشيتش وطلب ان يبدي المشاة سرعة اعظم في اللحاق بالفرق المصفحة . واعلن ان معركة الشمال تعد منتهية ، وان الوقت قد حان لاعداد المعركة الثانية الرامية الى اخضاع فرنسا واكراهها على القاء السلاح . فاقترح براوشيتش خطة تقضي بحشد جماع القوات الآلية والمصفحة التي تشكل ست عشرة فرقة ، على اقصى الجبهة لاجتياز العاصمة باريس من الغرب ودحر القوات الفرنسية نحو السين واللوار ، بينما تعبر ثماني عشرة فرقة المانية اسفل نهر الرين على حين غرة . ودرس هتلر الاقتراح فرفضه وامر بان يجري الهجوم في الوسط في مقاطعة شمبانيا وتشترك فيه الجيوش التاسع والرابع والسادس والثاني عشر تدعمها فرقتان مدرعتان وعشرون فرقة مصفحة من قسم الاحتياط . فاذا قاومت باريس اغفل المهاجمون الدخول اليها ولفوا حولها ، واذا استسلمت دخلوها ومضوا في زحفهم .

وهكذا هُزم براوشيتش وخططه مرة اخرى امام هتلر ولم يكن النصر قد خفف من وطأة حقد الفوهرر على القائد الالماني .

وفي الرابع والعشرين من ايار انبه لأنه سحب الجيش الرابع من المجموعة « آ » وضمه الى المجموعة الثانية « ب » . وحازت قوات المجموعة « آ » التي اخترقت جبهة سيدان ، اعجاب هتلر ورضاه فزارها في مقر قيادتها في شارلفيل واثنى على همة رونشتيد وضباطه وحسن تنفيذهم خطته .

وفي الخامس والعشرين عرض براوشيتش ان تشن القوات المصفحة هجوماً عظيماً في منطقة فيمي — سان اومير — غرافلين للضغط على جيب المقاومة في دنكرك حيث كان الفرنسيون والانكليز ثابتين . فرفض هتلر هذا الاقتراح ايضاً بحجة ان المعركة القريبة تتطلب قوات مصفحة كبيرة ، وان من الضروري الاقتصاد في الدبابات ، وقال انه يترك القرار النهائي لرونشتيد . فانحاز هذا الى صف الفوهرر وعارض براوشيتش .

وكانت هذه غلطة ادت الى نجاة قسم من الجيوش الفرنسية والبريطانية التي كانت محصورة في مصيدة دنكرك ، من البحر . وقد اسف القادة الالمان لهذه الغلطة . ومما قاله غودريان : « كان من المؤسف حقاً ان توقفني القيادة عند بولوني . » وقال كايتل : « كنا نرجو اسر الجيش الانكليزي كاملاً . ولكن جيوشنا في ابفيل لم تكن كافية ولم تتدخل الجيوش الالمانية الزاحفة من الشرق بسرعة ، فبقيت للعدو ثغرة استطاع ان يتسرب منها . والحق يقال ان انسحاب الانكليز من دنكرك كان نجاحاً مدهشاً . فقد استطاعوا ان يحشروا الفي رجل في كل مدمرة وحملوا معهم بعض الفرنسيين ايضاً . ولكنهم لم ينقذوا من

معداتهم سوى المسدسات التي يحملونها . وكانت تلك المعدات كثيرة جداً ، وما رأيت من قبل اسلحة واعتدة حربية كالتي وجدناها مكدسة في دنكرك . »

والواقع ان هتلر انقاد مرة اخرى الى قلة صبره فاعتبر معركة الشمال منتهية قبل اوانها ، وحول باكراً القسم الاكبر من جيوشه لتحطيم الخط الدفاعي الضعيف الذي نجح الجنرال فيغان في مده على نهري الصوم والاين . وفي السادس والعشرين من ايار ، بينما كانت المقاومة الفرنسية – البريطانية تشتد في قطاع كاسيل لحماية اعمال نقل الجيوش المحاصرة في دنكرك بحراً ، عين هتلر اليوم الحادي والثلاثين موعداً للهجوم الجديد الرامي الى اخضاع فرنسا دفعة واحدة . ولكنه اضطر الى تأجيل هذا الموعد خمسة ايام بسبب البلبلة التي احدثها في الفرق المدرعة تقدم غير منقطع استمر ثلاثة اسابيع . وكان الفوز باهراً وحاسماً . وقد قال عنه كايتل : « كانت الحركة منتظمة كل الانتظام ، ولم يعترض سيرنا معترض حتى ان فرقنا المصفحة ، لما وصلت الى ابفيل ، كانت تملك كمية احتياطية من الوقود . « وقال جودل : « لم اكن ، كجندي ، قد حسبت حساباً للمشاكل الداخلية التي اضعفت فرنسا . وقد دهشت دهشة عظيمة للمقاومة الضعيفة التي لاقيناها من الجيش الفرنسي . »

لماذا لم يغز هتلر انكلترا ؟

كثرت الاسئلة عن السبب الذي اقعد هتلر ، بعد انتصاره في فرنسا ، عن غزو الجزر البريطانية . فقد كانت انكلترا لا تملك اية وسيلة برية للدفاع ، ومعظم ما كان لديها من الفرق المنظمة ارسلته الى فرنسا . ولم يكن لديها في ايار ١٩٤٠ اكثر من عشر فرق . وكانت قد ارسلت بعد هزيمة دنكرك آخر فرقة مصفحة كبيرة تملكها (وهي فصيلة مؤلفة من دبابات خفيفة) الى مصب السين حيث حطمها الالمان في معركة واحدة .

وقيل يومئذ ان الانكليز لم يساعدوا فرنسا مساعدة عسكرية كافية في عراكها ضد المانيا . والحقيقة هي انهم لم يكونوا يملكون اكثر مما ارسلوا من الرجال والعتاد . وقيل انهم جلوا عن دنكرك قبل الاوان . والواقع انهم ركبوا البحر متأخرين . ولو كانت القيادة البريطانية ادركت حقيقة الموقف في فرنسا لكانت امرت بالرحيل يوم بلغها خبر الثغرة الهائلة التي احدثها الالمان في سيدان ، اي بين ١٧ ايار و ١٨ منه . فقد كان الدليل قاطعاً على ان الهجوم الالماني اعنف واقوى من ان تقاومه الجيوش الفرنسية والبريطانية وان هذه صائرة الى الهلاك حتماً . وكان جهل الانكليز بالفنون العسكرية وبحقيقة الموقف واعتمادهم على القادة الفرنسيين من الاسباب التي ادت الى فقدانهم

جيشهم وان يكن صغيراً . وفي حزيران ١٩٤٠ لم يكن في الجزر البريطانيـة سوى بعض الافواج المفككة والحرس الوطني .

ولم يكن هتلر يجهل ذلك . ولكنه لم يغتنم هـذه الفرصة الفريدة لسحق انكلترا في عقر دارها . ومـا ان وصل الى المانش حتى ارتد الى الجنوب قبل ان يتحول الى الشرق حيث لاقى الهزيمة والموت . وكانت هذه اكبر غلطة ارتكبها الغازي الالماني ، وما يزال العالم يفتش عن اسبابهـا . وقد أثيرت هذه المسألة الكبرى في نورمبرغ واثبتت وثائق المحاكمة امراً عجيباً يصعب تصديقه ولكنه الحقيقة لا مجـال لنكرانها ، وهو ان ادولف هتلر لم يفكر قبـل حزيران ١٩٤٠ بغزو المملكة البريطانية .

لقد فكر هذا العقل الجبار بكل شيء ووضع كل الخطط للفتح والتوسع الا واحدة وهي غزو الجزر البريطانية . وتطلع هتلر الى ابعد الاهداف وبلغ به الامر حد التفكير في فتح اميركا الجنوبية واثارة حرب اهلية في اميركا الشماليـة بواسطة الالمان المقيمين في العالم الجديد ، ولكنه مـا فكر يوماً في الدخول الى لندن دخول الفاتحين .

كان واثقاً من ان انتصـاره في القارة الاوروبية يعني الانتصار على انكلترا ، وظن ان الانكليز سيفاوضون للصلح بعد هزيمة فرنسا . وقـال لجودل في العشرين من ايار : « سيكون لانكلترا السلم متى ارادت . » واعلن جودل باعترافه في نورمبرغ : « كان الفوهرر مستعداً لعقد الصلح مع

انكلترا على رمال دنكرك . »

ولم يكن هتلر ينوي سحق الامبراطورية البريطانية . ولعل السبب في ذلك اعتقاده بان وجودها ضروري لابعاد قسم من العالم عن الشيوعية ، ورغبته في التحالف معها للتوسع نحو الشرق . وكان يرى ان احتلال كاليه كان كافياً لسيطرته على الغرب . وكان يعلن ان انكلترا مكشوفة من الجو والبحر ، وان انزال جيوش الى اراضيها لم يكن ضرورياً لاكراهها على الاستسلام . قال هتلر ببيان يزخر بالحقد على انكلترا القاه في الثالث والعشرين من ايار ١٩٤٧ (وقد ذكر في وثائق نورمبرغ) :

« لو كنا نملك في الحرب الماضية بارجتين ومدرعتين اكثر مما كان لدينا ، ولو بدأت معركة جوتلند في الصباح ، لانهزم الاسطول البريطاني والقت انكلترا السلاح . وبالامس لم يكن دحر الاسطول كافياً ، بل كان انزال جيوش الى الجزر البريطانية ضرورياً لان الانكليز كانوا يستطيعون ايجاد غذائهم . ولكنهم اليوم عاجزون عن ذلك . ومتى سدت بوجه بريطانيا طرق تموينها بالاغذية والزيت ، اضطرت الى الاستسلام . »

ولو كان هتلر ارحب صدراً واكثر صبراً لكان ، قبل اشعال نار الحرب ، جد في بناء اسطول بحري قوي مغتنماً فرصة انحطاط البحرية البريطانية بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخها . ولم يكن الفوهرر ليجهل ضعف الانكليز في هذا الميدان وقد قال ، كما يذكر القارىء : « ليس في الاسطول الانكليزي

سوى سفينتين حديثتين صالحتين للقتال وهما رودني ونلسون . والسفن الوحيدة الجديدة التي يملكها هي من طراز « واشنطن » ، ولكن معظمها فاقد كثيراً من صفاته الحربية . »

الا ان بناء اسطول حربي كبير يقتضي وقتاً طويلاً . ولم يكن لهتلر هذا الوقت ، فاكتفى بما يملك من الوسائل التي اعتبرها فعالة كالالغام الممغنطة والغواصات والطيارات . وقد قال لقواده في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ١٩٣٩ : « ان هذه الوسائل كافية لتنزل بانكلترا ضربات قاضية لو كان لدينا قاعدة احسن للاعمال البحرية . واللغم الجديد الممغنط الذي اخترعناه ذو اهمية كبرى . واذا ثابرنا على بث الالغام في مياه انكلترا الساحلية اخضعناها . وسنستخدم الطائرات في بث هذه الالغام . ولكن السلاح الجوي الالماني محتاج الى قواعد اقرب الى الجزر البريطانية ، ولن نجد هذه القواعد الا باحتلال بلجيكا وهولندا . »

وقد تضمنت ارشادات هتلر في العاشر من تشرين الاول ١٩٣٩ ، هذه العبارة: « من اهداف الهجوم في الغرب ايجاد قاعدة للاعمال البحرية والجوية المقبلة ضد انكلترا . » ولم يشر هتلر الى اعمال برية ضد الانكليز ، مما يدل على ان فكرة انزال جيوش الى سواحل انكلترا لم تخطر له في بال .

وفي حزيران ١٩٤٠ لم تكن لدى القيادة الالمانية العليا في ملفاتها اية خطة او شبه خطة لغزو الجزر البريطانية . ولم تطرح هذه القضية على بساط البحث الا بعد هزيمة فرنسا ، لما تأكد

هتلر من ان انكلترا ترفض المفاوضة لانهاء الحرب . على ان نقل جيوش الى انكلترا عمل صعب ودقيق واخطاره كبيرة ، ويقتضي حشد اعتدة هائلة واعمالاً تمهيدية عظيمة وسرية . وقد اقتضى نزول بعض الفرق الالمانية الى النروج اسابيع عديدة قضتها القيادة في الاستعداد والعمل المتواصل ، وكان طبيعياً ان يستدعي اجتياح السواحل البريطانية استعداداً متواصلاً طوال شهور عديدة . ولم يبدأ العمل الا في تموز ، فجاء بعد اوانه من حيث الفصل والسنة والتاريخ . ومن اقوال جودل في هذا الباب : « كان طبيعياً ، ونحن لا نملك السيادة على البحار ، ان نكون اسياداً مطلقين في الجو ، اي ان نبدأ بتحطيم السلاح الجوي البريطاني . »

واثبتت الغارات والمعارك الجوية التي وقعت في ايلول ان الالمان لم يستطيعوا سحق سلاح انكلترا الجوي ولاسيما طائرات القنص والمطاردة البريطانية . فاضطروا للعدول عن شن الغارات على لندن في وضح النهار . وعلى هذا اصبح غزو انكلترا مستحيلاً اكثر فاكثر ، فعدل الفوهرر عنه الى الابد في الثاني عشر من تشرين الثاني ١٩٤٠ ، كما اكد جودل في نورمبرغ . ولم تكن تجمعات السفن الالمانية في مصبات اسكو وفي موانيء الغزو كما سميت يومذاك ، سوى خدعة ، وما كان قلق الانكليز العظيم في ربيع ١٩٤١ ليبرره مبرر .

وقد اعلن هتلر نفسه رأيه في هذا الصدد في المؤتمر الالماني ــ الايطالي الذي عقد في الحادي والعشرين من كانون الاول

١٩٤١ والذي تتضمن وثائق نورمبرغ محضره ، بقوله :

« انني اقف من انكلترا اليوم موقف رجل ليس في بندقيته سوى طلق واحد . وأظل قوياً ما دمت محتفظاً بهذا الطلق . اما اذا اطلقته واخطأت الهدف فان موقفي يصبح حرجاً . فاذا حاولنا نقل قواتنا الى الجزيرة البريطانية واخفقنا ، فستحل بنا خسارة مادية من الفداحة بحيث يشعر الانكليز بالطمأنينة مدة طويلة فيستخدمون في ميادين حربية اخرى ، ولاسيا البحر المتوسط ، القوات التي يرون انفسهم اليوم مضطرين للاحتفاظ بها في جزرهم . وعلى هذا تروننا ماضين في التظاهر بالاستعداد للهجوم لنكره الانكليز على شل حركة قواتهم ، ونبقيهم تحت كابوس الرعب . »

القت محاكمة نورمبرغ ضوءاً على مرحلة خطيرة من مراحل الحرب العالمية الثانية ، واثبتت الادلة الدامغة ان انكلترا لم تكن قط مهددة بخطر غزو حقيقي . ولا شك في ان هتلر كان له حظ كبير في النجاح لو غزا انكلترا في صيف ١٩٤٠ بعد تلك الضربة الشديدة التي انزلها بفرنسا ، وبعد البلبلة الخطيرة التي احدثها في صفوف الانكليز في دنكرك وما كان لها من اثر في نفس الشعب البريطاني . ولكن أنّى له ان يفعل ذلك وقد وصل الى المانش وليس في جيبه ولا في رأسه اية خطة لمثل هذا العمل الحاسم ؟ ولعل معترضاً يقول ان الغازي الالماني كان يستطيع اعداد خطته في الشتاء . وهذا الاعتراض وجيه . والواقع ان هتلر لم يكن عاجزاً عن تحضير خطة لغزو انكلترا .

فقد كان له من سعة التفكير وخصب الخيال والوسائل والاقدام ، ما يكفي لرسم مشروع من طراز جديد يعتمد في نجاحه على السرعة الخاطفة والمفاجأة وقوة السلاح الجوي الالماني . ولكنه بدلاً من ان يرسم خطة لغزو انكلترا كنتيجه طبيعية لاحتلاله فرنسا ، نظم خطة لاحتلال النروج واعتبر هذا الاحتلال ضرورياً للمضي في الحرب الجوية – البحرية ضد الانكليز . وقد يقال يوماً ، وقد يجد المؤرخون العسكريون في تسلسل الاحداث الحربية وارتباطها واثر بعضها في البعض الآخر ، ان اوسلو ونارفيك انقذتا لندن وليفربول ، وان غزو النروج خلص الجزر البريطانية من مخالب الرايش الثالث .

قال جودل : « في الثاني عشر من تشرين الثاني ١٩٤٠ ، عدل هتلر عن غزو انكلترا . وفي اليوم ذاته وقع الامر ١٨ (الوثيقة ٤٤٤ من وثائق نورمبرغ) المتعلق بمتابعة الحرب . وهذا نص المقطع الاول الخاص بفرنسا : « ان الغاية من سياستي تجاه فرنسا هي التعاون معها باحسن الطرق الفعالة لمواصلة الحرب ضد انكلترا . وسيكون دور فرنسا في الوقت الحاضر دور الدولة غير المحاربة . فيترتب عليها قبول التدابير العسكرية التي يتخذها الرايش في اراضيها ولاسيا مستعمراتها الافريقية ، ومساعدة الالمان في هذه التدابير حتى باستخدام وسائل دفاعها . واول واجب ملقى على عاتق فرنسا اليوم هو حماية ممتلكاتها (افريقيا الغربية والاستوائية) ضد انكلترا والحركة الديغولية

سواء بالدفاع او بالهجوم . وبذا تساهم فرنسا في الحرب ضد انكلترا بالشكل المطلوب منها . اما المحادثات مع فرنسا التي بدأت في اثناء مقابلتي والماريشال بيتان ، فتستمر على يد وزارة الخارجية الالمانية وبمعونة هيئة القيادة العليا للجيش الالماني ، خارج نطاق اعمال لجنة الهدنة . وستصدر اوامر مفصلة بعد انتهاء هذه المحادثات . » وهكذا اتخذ هتلر اساساً لسياسته حمل فرنسا على الاشتراك في حرب فعلية ضد بريطانيا .

وتضمن الامر ١٨ فقرات تتعلق بروسيا وليبيا والبلقان سيمر ذكرها في فصول آتية . ولكن القسم الاعظم من هذه الوثيقة كان خاصاً باسبانيا وجبل طارق لان هتلر وضع نصب عينيه هدفاً جديداً وهو الاستيلاء على جبل طارق . وهذا هو النص : « جرت مساع سياسية لحمل اسبانيا في مستقبل قريب على خوض غمار الحرب . والهدف من تدخل المانيا في اسبانيا هو طرد الانكليز من غربي البحر المتوسط . ولبلوغ هذا الهدف سنحتل جبل طارق ونغلق المضيق ونمنع بريطانيا من وضع قدمها في اية نقطة من اسبانيا او البرتغال او جزر الاطلنطيك . » ورسم هتلر مراحل احتلال جبل طارق فحددها باربع . وقضت المرحلة الاولى بالاستكشاف وجمع الوسائل ، واوصت بان يدرس ضباط بثياب مدنية ضواحي جبل طارق ويتخذوا ، بالتعاون السري مع الاسبانيين ، التدابير اللازمة لمنع الانكليز من توسيع الجبهة البرية امام الجبل .

اما المرحلة الثانية فهي المفاجأة . وقد اوصى هتلر بان تقوم

قاذفات المانية من المطارات الفرنسية في افريقيا الشمالية بهجوم مفاجىء على الاسطول البريطاني الراسي في جبل طارق . وفي الوقت ذاته تعبر القوات الالمانية ، المحتشدة في جنوبي فرنسا ، جبال البيرينه وتدخل الى اسبانيا .

والمرحلة الثالثة تقضي بالاستيلاء على جبل طارق بهجوم بري مباشر . وفي حال سعي الانكليز الى اجتياح البرتغال ، احتلال لالمان لهذه البلاد . اما المرحلة الرابعة والاخيرة فقد تضمنت فكرة استيلاء الالمان على مراكش الاسبانية واغلاق مضيق جبل طارق . واوصى الفوهرر في ارشاداته بتزويد الحملة باكبر عدد من القوات الآليـة نظراً لحالة الخطوط الحديدية الاسبانيـة السيئة . وامر ايضاً بحشد اكبر عدد من الغواصات في المتوسط لمهاجمة السفن الانكليزية بعد طردها من جبل طارق بالهجوم الجوي العتيد . وطلب ان تكون القوات البرية المهاجمة كافية للاستيلاء على الجبل بدون معونة الجيش الاسباني . واعلن اخيراً ان ايطاليا لن تساهم في الهجوم . ومضى هتلر في الامر ذي الرقم ١٨ يقول : « سيصبح لجزر الاطلنطيك ، ولا سيما جزر كاناري والرأس الاخضر ، بعد احتلال جبل طارق ، اهميـة كبرى لمواصلة الحرب البحرية سواء للانكليز او لنا ، فعلى قادة السلاح الجوي والبحري ان يدرسوا خير الطرق لتعزيز الدفاع الاسباني عن جزر كاناري ولاحتلال جزر الرأس الاخضر . واوصى ايضاً ان يُدرس امر احتلال جزر ماديرِ واصور من جميع وجوهه ، حسناته وسيئاته ، ويُرفع الي تقرير بنتيجة هذا الدرس . »

قال جودل في اعترافاته لمحققي نورمبرغ : « كانت فكرة احتلال جزر كناري والرأس الاخضر ، من آراء الفوهرر المفضلة . وكثيراً ما عالجها وفاتح بامرها القواد . ولكن قادة الجو والبحر كانوا يعارضون هذا المشروع لاعتقادهم الراسخ بان بعد المسافة وقوة انكلترا البحرية يجعلان الاحتفاظ بتلك الجزر صعباً غاية الصعوبة . »

وكان احتلال جبل طارق سهلاً في الحقيقة لان جبل طارق لم يبق عظيماً الا بالاسم . وما كان لهذه القلعة العتيقة ان تقاوم قنابل الشتوكا الالمانية التي دكت حصون ايبن ايمايل البلجيكية المدرعة في ساعات معدودة ، وما كان لها وهي اللسان الصغير المجرد من كل دفاع حديث ، حتى من مطار ، ان تقاوم هجوماً المانياً ساحقاً . لقد كان مقضياً على هـذا المسمار الاخير الذي كانت بريطانيا تتمسك به كآخر صلة لها بالقارة . ودل استيلاء اليابانيين على سنغافورة بتلك السرعة الخاطفة على ضعف هـذه القواعد الصغيرة الضيقة .

قال غورنغ في نورمبرغ : « لو احتللنا جبل طارق لاتيح لنا تعزيز الدفاع عن افريقيا ، ولما استطاع الحلفاء النزول اليها كما فعلوا . » وقال كايتل : « لو استولينا على جبل طارق لما كنا انتصرنا في الحرب ما دام الانكليز محتفظين بالبحر المتوسط الشرقي وبقاعدتهم في الاسكندرية ، ولكن ذلك كان يحسن مركزنا تحسيناً ظاهراً . »

اما لماذا لم تنفذ الخطة فقد اجاب جودل عن هذا السؤال في

نورمبرغ قائلا : « لم نذهب الى جبل طارق لسبب واحد وهو ان الاسبانيين لم يوافقوا على ذلك . » وقبل ثلاث سنين يوم لم يكن جودل واحداً من متهمي نورمبرغ ، قال لزعماء الرايش (الوثيقة ١٧٢ من ملف نورمبرغ) : « لم نصب هدفنا الثالث في الغرب ، وهو ضم اسبانيا الى صفوفنا وبالتالي وصولنا الى جبل طارق ، بسبب معارضة الاسبانيين او بالحري اعتراض وزير خارجيتهم الجزويتي سيرانو سونر . »

وهناك اخيراً شهادة رئيسية هي خطاب لهتلر نفسه في صدد جبل طارق مسجل في محضر المؤتمر الالماني الايطالي المعقود في الحادي والعشرين من كانون الاول ١٩٤١ (الوثيقة ١٣٤) وهذا نصه : « ان منع قواتنا الجوية على سفن العدو المرور في مضيق صقلية ، ترضية بسيطة قليلة الاهمية بالنسبة الى استيلائنا على جبل طارق . ولقد اتخذنا التدابير اللازمة ونظمنا خطة الهجوم على هذه القاعدة البريطانية بشكل متقن جعل نجاحنا مضموناً . ولو قبضنا على جبل طارق لأستطعنا السيطرة على افريقيا ونقل قوات هامة اليها ووضع حد لمداورة فيغان وتحفظه وتمنعه من معونتنا . واذا استطاعت ايطاليا ان تحمل فرانكو على خوض غمار الحرب بجانبنا ، فانها تسجل للمحور فوزاً عظيماً وتبدل الوضع تماماً في البحر المتوسط بعد وقت قصير . »

وكان اكثر الحاحاً لما وجه حديثه الى موسوليني وقال له : « اذا استطعت ان تستخدم علاقاتك الشخصية بفرانكو لحمله على تبديل رأيه ، فانك تسدي الى حلفنا خدمة جليلة . » ولن

تؤرخ هذه المرحلة الخطيرة من الحرب العالمية الثانية تأريخاً كاملا الا متى عرفت المفاوضات التي لا بد ان تكون قد جرت بين مدريد ولندن وربما بين مدريد وواشنطن في ذلك الحين ، والوعود التي كالتها الدولتان لفرانكو ، وتهديدهما اياه . ولا شك في ان الوعود كانت كثيرة ، وان التهديد كان شديداً حتى اضطرت اسبانيا الى الانصياع له على الرغم من الجيش الالماني الجبار المنتشر عند سفوح جبال البيرينه على الحدود الفرنسية — الاسبانية .

قال جودل : « في اواخر ايلول قابل الفوهرر الجنرال فرانكو على الحدود الفرنسية ولكنهما لم يتفقا . » وهذه المقابلة هي المعروفة بمقابلة « هانداي » التي قطع هتلر نصف الطريق اليها ، وكان من عادته ان يستدعي اتباعه من رؤساء الدول الصديقة اليه . وقد سبق امر هتلر ذو الرقم ١٨ الذي اسلفت تبيانه ، هذه المقابلة بشهر . ومن هذا يتضح ان هتلر لم ييأس وانه حاول ان يحمل فرانكو على تغيير رأيه ، ولكنه اخفق . ولعل تدخل الانكليز والاميركيين هو الذي أعطى دكتاتور اسبانيا القوة لمجابهة زعيم الرايش بالرفض . وبعد ، ففي هذه القضية شيء من عدالة القدر . فقد زاد هتلر ، قبل ثلاث سنين ، الحرب الاهلية في اسبانيا اضطراماً لانه وجد فيها وسيلة لمضاعفة التوتر في البحر المتوسط . ويذكر القارىء انه صرح في الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٧ لقادته بان ليس من مصلحة المانيا ان ينتصر فرانكو انتصاراً تاماً سريعاً . وقد استنتج غورنغ من هذا ان من

الواجب تخفيض المساعدة الالمانية للوطنيين الاسبانيين بل الغاؤها ، وايده الفوهرر في ذلك . وبذا سلك الالمان مسلكاً واقعياً . وحذا فرانكو بعد ثلاث سنين حذوهم في قضية جبل طارق .

وهناك سؤال لا بد منه وهو : لماذا خضع هتلر لمعارضة فرانكو ولم ينفذ خطته بالقوة وقد كان بوسعه احتلال اسبانيا المضعضعة في ايام قليلة ؟

لم تعط وثائق نورمبرغ جواباً شافياً عن هذا السؤال . وقد يكون هتلر احجم عن عمل يوقفه من نظر العالم موقفاً زرياً ، موقف دكتاتور يهاجم دكتاتوراً ساعده بنفسه على تسلم ازمة الحكم . وقد يكون اشفق ان يكلف غزو جبل طارق حرباً جديدة وان يشغله عن اعمال حربية اهم في الشرق ويستنزف من قواه ما هو بسبيس الحاجة اليه في خططه المقبلة ...

واياً كان السبب ، فالحقيقة هي ان رفض فرانكو جرّ على الالمان عواقب وخيمة في الاحداث التي وقعت بعدئذ في افريقيا الشمالية . وقد قال كابتن باسى : « لو استولينا على جبل طارق ، ولو لم يترك الفوهرر لفرنسا اسطولها البحري وقواتها في المستعمرات وممتلكاتها فيما وراء البحار ، لتبدل وجه التاريخ . »

٧

موسوليني انقذ موسكو

في السابع والعشرين من تشرين الثاني ١٩٤٠ كان هتلر في مونتوار حيث قابل بيتان ولافال . وكان قبل ايام قد اتصل بفرانكو في هانداي ... واخرجه من اهتمامه بامر جبل طارق خبر عظيم الشأن تلقاه من روما يعلن ان ايطاليا على وشك غزو اليونان . وكان الخبر صحيحاً ، والحرب على الابواب في البلقان . وفي هذا خطر على سياسة المانيا التي كانت ترجو دوام السلم في الشرق فترة اخرى واجتناب القتال على جبهتين . واسرع بهتلر الى فلورانس قطاره الخاص المصفح بعد ان ابرق الى الدكتاتور الايطالي يضرب له موعداً للقاء . وتقابل الرجلان في صبيحة اليوم التالي الثامن والعشرين من تشرين الاول . وبادر موسوليني زميله معلناً ان الجيوش الطليانية زاحفة وان الهجوم بدأ منذ ست ساعات ، واكد له ان ايطاليا ستفرغ من هذه المهمة في بضعة ايام . ولو لم يجمع ثلاثة ، ممن شهدوا هذه المقابلة ، على رواية ما دار فيها لما صدقها احد . فقد اعلن غورنغ في نورمبرغ انه يذكر ان قطار هتلر الخاص وصل الى فلورنس بين التاسعة والعاشرة صباحاً وان موسوليني كان في المحطة لاستقبال حليفه . وقال كايتل ان هتلر وصل مبكراً . ولكن الدكتاتورين لم يجتمعا فوراً . وقال كايتل : « سافرت جواً من مونتوار الى

برلين حـــاملاً امراً من الفوهرر . ثم عدت الى مونيخ حيث استطعت ان اركب قطار هتلر الخاص . وكانت الساعة السادسة من صباح اليوم التالي لمـــا وصلنا الى فلورانس . ولم نلتق بموسوليني الا في الساعة الثامنة ، فحيانا وقال : « اننا نزحف ! »

ولا قيمة لهذا الاختلاف في تحديد المواعيد والعبارات لان غورنغ وكايتل اتفقا على القول : « وصلنـــا متأخرين بثلاث ساعات وكانت الجيوش الطليـانية مشتبكة بالقتال . » ووصف كايتل ما حدث يومئذ بانه كارثة . وكانت في الحقيقة كذلك ، فبينما كان الحليفان يناديان على رؤوس الاشهاد باتفاقهما التـــام ومتانة محورهما الفولاذي الثابت الاركان ، كان كل منهما يضع خططه الخاصة وينفذها على هواه في غيبة الآخر . وكان هتلر لا يثق بالساسة والقادة الطليان . وقد قال كايتل ان الفوهرر كان يرى ان كل ما يعرفه موسوليني يعرفه شيانو ، وان كل مـــا يعلمه هذا تعلمه لندن . » ولذا لم يكن يطلع حليفه الا على ما لا بد منه . وكان هتلر يدخل في روع موسوليني انه يعد العدة لغزو انكلترا في حين انه كان قـــد عدل عن ذلك منذ زمن بعيد . وفي الحادي والعشرين من كانون الثاني ١٩٤١ اطلعه على كل شيء الا على استعداده للهجوم على روسيـــا . ولم يطلع الدوتشي على بدء الهجوم الا من اذاعات الراديو لان الرسالة التي بعث اليه بها الفوهرر في هـــذا الصدد وصلته متأخرة . وكان موسوليني بدوره ماضياً في سياسته الخاصة المتخفية . قال جودل : « لا يستبعد ان يكون الطليان قد قدموا موعـد هجومهم على

اليونان بضعة ايام لانهم علموا اننا اذا اطلعنا على خططهم سنعارضها . »

وهكذا وجد هتلر نفسه امام امر واقع ، فعاد الى برلين . وساهمت وعود موسوليني بانهاء الحملة على اليونان باقصر وقت في تهدئة الفوهرر وقبوله بما حدث ولو على مضض . ولكنه بعد اسبوعين ، لما وجد ان الامور تجري في مجرى سيء ، بعث الى الدوتشي برسالة تضمنتها وثائق نورمبوغ تحت رقم ٢٧٦٢ ، تثبت ان الهجوم على اليونان كان مفاجأة للالمان ، وهذا نصها :

« لما طلبت اليك ان نلتقي في فلورانس سافرت وفي نيتي ان اطلعك على آرائي قبل ان تشتبك ايطاليا في الحرب مع اليونان ، وقبل ان يبدأ هذا النزاع الذي لم اكن مطلعاً الا على شكله بوجه عام دون تفصيله وموعد اثارته وطرق قيادة دفته . وكنت اريد اولاً ان اطلب اليك تأجيل هذا الهجوم اذا امكن ، الى فصل آخر من السنة اكثر ملاءمة ، الى ما بعد انتخاب رئيس الجمهورية الاميركية . وكان في نيتي ان اسألك الا تقوم باي عمل قبل ان نحتل جزيرة كريت بعمل مفاجيء خاطف . وكنت اخيراً انوي ان اقترح عليك استخدام فرقة المانية من المظليين وفرقة محمولة جواً . »

ودارت الدائرة على الجيش الطلياني « الباسل » . وبعد خمسة عشر يوماً من بدء القتال في البانيا كان الطليان يقاسون الصعوبات . وبعد شهرين امسوا في حالة حرجة . وبعد بضعة شهور كانت حالتهم تدعو الى اليأس . وادرك هتلر قبل ذلك

بزمن بعيد ان لا بد له من التدخل لانقاذ حليفه . وفي الثاني عشر من تشرين الثاني ، اي بعد اسبوعين من بدء الهجوم الايطالي ، طلب الى قائد الجيش الاعلى ان يعد العدة للتدخل في اليونان واحتلال القسم الواقع منها في شمالي بحر ايجه .

وفي كانون الثاني ١٩٤١ عرض الجنرال غوزوني رئيس اركان حرب الجيش الايطالي الحالة على هتلر وضباطه . فذكر ان في البانيا احدى وعشرين فرقة ايطالية ، وان القيادة سترسل ثلاث فرق اخرى ، وهي تفكر في شن هجوم على جنب العدو الشمالي في اتجاه كوريكا بعشر فرق . وتمنى غوزوني ان تدعم مؤخرة الفرق الايطالية قوات المانية في البانيا . وردّ هتلر على غوزوني ، في الخطاب الذي القاه في الجلسة الاخيرة للمؤتمر الالماني الايطالي (الوثيقة ١٣٤) ، بان اقتراحه في صدد مساعدة الالمان للطليان في غير محله . وشرح السبب قائلاً : « اذا بقيت القوات الالمانية التي تطلبونها في البانيا ، اي خلف جبهة القتال ، مكتوفة الايدي بينما يشتبك الجيش الالماني في قتال عنيف ، ترك ذلك اثراً سيئاً في قوى مقاتليكم المعنوية . واذا اشتركت القوات الالمانية في القتال ، خشينا ان تمتد الحرب قبل الاوان الى الجنوب الشرقي ، وان تنضم تركيا الى الانكليز وتضع مطاراتها تحت تصرفهم . »

وقد وجد المحققون في نورمبرغ على هامش الخطاب عبارة رمزية مدونة بقلم رصاص ، ربما كانت بخط هتلر نفسه . وعند فحصها وحلها تبين انها : « اسطنبول — كونستنزا — ٣٨٠

كيلو متراً . » ومعلوم ان كونستنزا مرفأ روماني . والواقع ان الفوهرر كان يخشى خطراً على الزيت الروماني ، وان هذا القلق ظل يساوره طوال الحرب . ولا عجب ، فقد كان البترول الروماني من اهم العوامل الفعالة في مواصلة الحرب . وكانت المانيا تتردد في فتح جبهة جديدة قبل الاوان . ولكنها كانت تدرك ان الحرب التي اثارها موسوليني ستؤدي الى عودة انكلترا الى القارة ، فراحت تستعد للتدخل الذي لم تر منه بداً . ووضعت خطة لهذا التدخل اطلق عليها اسم خطة ماريتا .

وفي الثالث عشر من كانون الاول ١٩٤٠ اصدر هتلر ارشاداته في امر رقمه ٢٠ (الوثيقة ١٥٤١) وهذا مطلعه : «لم تعط معركة البانيا بعد النتيجة المطلوبة . وقد اصبح ضرورياً على اثر الحالة الخطرة في البانيا ، احباط محاولة الانكليز انشاء قواعد جديدة مغتنمين فرصة نشوب الحرب في البلقان ، لان ذلك يصبح خطراً مزدوجاً على ايطاليا وعلى آبار البترول الرومانية . » وانحازت بلغاريا الى المحور وسمحت بمرور جيوش المانية باراضيها . وفي الثامن من شباط وضع الماريشال الالماني فون ليست ومندوب اركان حرب الجيش البلغاري خطة للتعاون (الوثيقة ١٧٤٦) . وتسربت قوات المانية كذلك الى البلقان عبر الاراضي المجرية والرومانية .

وكان مطلع الربيع كارثة للطليان اذ هاجمهم اليونانيون بعد ان جفت الوحول واجتاحوا البانيا ، فسجلوا نصراً عظيماً احرزته امة لا يزيد سكانها على ستة ملايين ، على امة تتعدى الخمسة

والاربعين مليوناً . ولكن شاء القدر ان ينقلب انتصارهم ضدهم اذ اثار عليهم الالمان . ولم يكن هؤلاء يهتمون للطليان كما يهتم الحليف لحليفه لأن ايطاليا ظلت كما هي : خفيفة الوزن كعدو ، خطرة كحليف ! ولكن مراكزها الطبيعية كانت عظيمة الاهمية ، فرأت المانيا نفسها مضطرة لانقاذها .

وحدث الانقلاب في يوغوسلافيا ، واسقط الثوار حكومة ستويادينوفيتش الموالية للالمان والتي عقدت معهم ميثاقاً قبل ايام . ولعل هزائم الطليان اعطت العناصر المعادية للمحور قوة واملاً . فقرر هتلر حسم هذه المشا كل دفعة واحدة . وفي مؤتمر اركان الحرب العام خطب في القواد (الوثيقة ١٧٤٦) قائلاً : « لن ننتظر تصريحاً محتملاً من الحكومة اليوغوسلافية الجديدة بالولاء لنا . ولن نقوم باي مسعى سياسي . ولن نقبل بالتأكيدات والادعاآت اليوغوسلافية . سنهاجم متى جمعنا القوات والوسائل اللازمة للهجوم . ومن المهم ، من الوجهة السياسية ، ان يكون الهجوم عنيفاً لا رحمة فيه ، وان يتم تحطيم قوة يوغوسلافيا العسكرية بسرعة خاطفة . » وكان الانقلاب الداخلي في يوغوسلافيا عذراً او وسيلة للتدخل الالماني . « ولكن السبب الحقيقي (كما قال كايتل في نورمبرغ) لتدخلنا في البلقان كان ضرورة انقاذ ايطاليا من المأزق الحرج الذي زجت بنفسها فيه ومن الكارثة التي كانت تهددها . » وقال غورنغ : « زاد الانقلاب في يوغوسلافيا حالة ايطاليا سوءاً وجعل تدخلنا لازماً . » وهكذا كان هجوم موسوليني على اليونان ، بدون مشورة

هتلر ، مـــن الاسباب الرئيسية التي ادت الى تدخل المانيا في البلقان وما نتج عنه .

وانقضت الجحافل الالمانية على البلقان وارتاح الفوهرر للنصر المدهش الذي احرزته . وراحت المصفحات الالمانية ، يقودهـا رجال حقنوا بمواد كيمائية تغنيهم عن النوم خمسة عشر يوماً (!) تجتاح البلاد بسرعة لم يشهدها التاريخ من قبل ، وما اغمض رجال المصفحات الالمـان اعينهم ليناموا ملء اجفانهم الا بعد ان استولوا عـــلى البلقان برمته وسحقوا الجيوش اليوغوسلافية واليونانية والانكليزية . وشهدت هذه في ميناء « بيره » اليوناني « دنكرك » ثانية . واستولى الالمان على جزيرة كريت بجيوش طارت من الدانوب رأساً اليها . وظللت اجنحة طيارات القذف الالمانية شرقي البحر الابيض المتوسط ، وامتدت الغارات الى الاسكندرية ، وخيم الخطر على الطرق البحرية المؤدية الى قناة السويس . ومكنت المانيا لنفسها في اوروبا ، وسيطرت عليها ، وقال العالم ان الجيش الالماني لا يغلب .

ولكن هذا النصر الجديد الساحق لم يخف حقيقة ربما كانت سبباً في تبديل دورة الزمن ومجرى التاريخ ، وهي ان هتلر اضطر الى تأجيل تنفيذ خطة الهجوم على روسيا المعروفة بخطة « باربروس » ستة اسابيع . وكانت هـذه الخطة جاهزة تقريباً في اول نيسان ١٩٤١ . وكان ينتظر ان يباشر تنفيذهـــا في الخامس عشر من ايار . فلم يبدأ الا في الثاني والعشرين مـن حزيران .

وكانت جيوش الماريشال ليست التي فتحت البلقان معـــدة لتشكيل الجناح الايمن من الجيوش المهيأة للزحف الى روسيا . وعينت مراكز هجومها في رومانيا ، ولكنها حولت عن هدفهـا لتنقذ الجيش الايطالي وتطرد الانكليز . وبينما كانت تقوم بدورتها من بلغراد فنيخ فسلانيك فاثينا فقانه ، كانت جيوش الماريشال فون ليب والماريشال فون بوك والماريشال رونشتيد المعدة للهجوم على روسيا ، مكرهة على الانتظار . وقد اظهر كايتل عواقب هذا التأخير ، في نورمبرغ ، فقال : « لولا تدخلنا في البلقان لبدأ الهجوم على روسيا قبل زمن طويل . فسبب لنا هـــذا التأخير اضراراً كبيرة . ومن الثابت ان هجومنا مسبقاً كان افضل لنا بكثير . وكان يجب الا يقع بعد اوائل حزيران . وبعد ان تأكدنا ان لا بد من الحرب في الشرق ، اجمعنا عـلى ضرورة الاسراع في الهجوم وشنه في ايار . كنتُ سنة ١٩١٧ ضابط اركان حرب في شمالي روسيا ، وكانت الثلوج ما تزال مكدسة في تباشير نوار . اما في القرم وفي حوض الدونتز بل في روسيا الجنوبية نفسها ، فقـد كان الطقس موآتياً للاعمال الحربية منذ شباط او اذار . »

وظن بعضهم ان هتلر تعمد ألا يعبر نهر نيمن الا في مثل اليوم الذي عبره فيه نابوليون لينقض على الدب الروسي . ولكن هـذا خيال صرف لان هتلر حسب لكل امر حساباً ، واتقن التنظيم ، ودقق في البحث ، وادرك ان الهجوم على روسيا يجب ان يبـــدأ فجر فصل الربيع متى اصبحت الطرق صالحة للسير

والقتال . واخذ بعين الاعتبار المسافات والمسالك الرديئة . الا ان تطور الموقف الحربي في البلقان والمأزق الذي زج موسوليني بالمحور فيه ، بدلا المواعيد وبلبلا الحسابات . وكانت نتائج ذلك خطيرة ، اذ لو بدأ الهجوم على روسيا قبل ستة اسابيع من وقوعه لكان الجيش الالماني بلغ اهدافه حتماً قبل حلول الشتاء ، واحتل موسكو بدون شك . وسيظهر بعد حين ان مصير هذه المدينة كان معلقاً على ايام معدودة . وما كان لمقاومة الروس المستميتة ان توقف مصفحات غودريان لو لم يداهم الالمان الشتاء على حين غرة فيقصم ظهورهم .

ولا شك في ان احتلال موسكو لم يكن يعني انتهاء المقاومة السوفياتية ولا كان يبدل نتيجة الحرب او يكتب النصر للالمان في روسيا ، ولكنه كان يغير مجرى الحوادث تغييراً هاماً ، ويجنب المانيا هزيمة منكرة سأظهر في الفصول الآتية عواقبها الوخيمة ، وخسارة جيش كامل . ولو احتل الالمان موسكو في تشرين الاول ١٩٤١ لدامت الحرب على الارجح سنتين آخرين .

اجل ، لقد انقذ موسوليني موسكو بهجومه على اليونان ، وكلف ذلك المحور غالياً . وليست هذه هي الخدمة الوحيدة التي ادتها ايطاليا ، عن غير قصد ، الى الحلفاء .

البحارة الطليان انقذوا السويس

من اخطاء هتلر الكبيرة تقديره ايطاليا اكثر من قدرها الحقيقي . ولعل صداقته للدوتشي كانت اصل هذا البلاء . وقد عرف القارىء من الفصل الاول ، الخاص بشخص الدكتاتور الالماني ، قوة هذه الصداقة وطبيعتها . واغتر هتلر بزميله الطلياني وعمي عن حقيقة ايطاليا فكان احدى ضحايا الخداع الموسوليني . روى كايتل في الثلاثين من نيسان ١٩٤٥ لقضاة نورمبرغ ما يلي :

« كان هندنبورغ يقول لهتلر ان موسوليني يستطيع ان يفعل كل شيء الا ان يبدل طبيعة الطليان . ولكن الفوهرر لم يكن يومذاك مقتنعاً بهذا القول . فقد خدعه ما شاهده في ايطاليا سنة ١٩٣٦ . فقد اراه موسوليني في نابولي مائة غواصة . واذكر اننا تمنينا يومئذ لو كان لدينا خمس هذا العدد . وشاهدنا في جنوبي كابري مدرعات ايطالية حديثة سريعة تقطع ثماني وثلاثين عقدة او اربعين في الساعة . واستدل الفوهرر من هذا على ان موسوليني رفع مستوى ايطاليا العسكري الى مكان رفيع . ولكن الايام اظهرت خلاف ذلك . ولما حضر هتلر في روما سنة ١٩٣٨ عرضاً عسكرياً ايطالياً تبدت له الحقائق . ولم يخف على اعين قادتنا العسكريين النابهين ان القوات الايطالية لم تكن جيوشاً منظمة ، بل اطارات جيوش . ولم يكن

يكملها سوى جنود احتيـــاطيين سيئي الدربة يدعون الى حمل السلاح عند التعبئة العامة . امـــا المدفعية فلم يكن فيها قطعة حديثة ، وكانت جميع المدافع قديمة العهد ترقى الى الحرب العالمية الاولى . وقد نقلت على سيارات شحن كي يُخفى بطء حركتها . وما ارتحت لهذا العرض ولا ارتاح الفوهرر له ، واستخلص من ذلك ان الجيش الطلياني البري مما لا يعتمد عليه في الملمات . غير انه احتفظ برأيه في البحرية والطيران ، وظل على اعتقاده بانهما ، في حالة نشوب حرب ، سيكونان قوتين لا يستهان بهما . »

لم يرحم القـــادة الالمان في نورمبرغ ، سواء منهم المتهمون والشهود ، في اعترافاتهم ، ايطاليا ، ولا كتموا شعورهم بالحقد عليها . ومما قاله جودل : « اصبحت الآن ادرك مغزى ما قاله غاملان : اذا ظلت ايطاليا معتصمة بالحيـاد فانني في حاجة الى اربع فرق . اما اذا انحازت الى صفوفنا فانني اصبح في حاجة الى اثنتي عشرة فرقة . »

وفي ايلول ١٩٤٠ شنت ايطاليا هجوماً عاماً في افريقيـــا الشماليـــة . وكانت ترمي الى فتح مصر والوصول الى قناة السويس . وعرضت المانيا عليها المساعدة وكانت جميع قواتهـــا حرة طليقة من اي قيد ، فرفضت لانها اعتبرت حرب افريقيا حربها ، وما رضيت ان يشاطرهـــا احد هذا الشرف ... قال جودل : « تأخر تدخلنا في افريقيـــا بسبب عناد الطليان وكبريائهم الفارغة . ولما مني غرازياني بهزيمتـــه الاولى رضيت ايطاليا ، بعد جهد ، ان نرسل اليها قواتنا . فعبر رومل البحر

المتوسط على رأس وحدة مصفحة ، ووصفت حركته باستكشاف آلي بسيط مراعاة لكبرياء الطليان . وكانت بداية الحملة الالمانية المعروفة . »

وقال كايتل مؤيداً اقوال جودل : « لم يقم رومل في البداية بغير عمل استكشافي . ولم يتلق فرقة كاملة الا بعد ستة اسابيع . وكان الطليان من شدة الاعتداد بالنفس بحيث لم يطلبوا منا قوات اخرى . ورفض بادوليو فرقتين المانيتين مصفحتين عرضناهما عليه . ولما قابلته في انسبروك ، زعم ان الدبابات لا تصلح للعمل في ليبيا . ولكن الحقيقة اثبتت خلاف ذلك تماماً ودلت على ان تلك الاراضي اصلح الميادين للدبابات . »

وسرعان ما تحطمت الكبرياء والكرامة الايطاليتان على صخور الهزائم . وما حل كانون الثاني من العام ١٩٤١ حتى امسى الطليان يستجدون المساعدة استجداء . فقد فشل هجومهم على مرسى مطروح فشلاً ذريعاً ، وارتد عليهم الانكليز ودخلوا القيروان ، وطوقوا طبرق ، وهددوا طرابلس . وفي العشرين من كانون الثاني ابلغ الجنرال غوزوني هيئة القيادة الالمانية ان ايطاليا ستحاول الاحتفاظ بالقسم الغربي من القيروان ، ولكنها ستنقل جهازها الدفاعي الى طرابلس ، وطلب مساعدة الجيش الالماني . وقد جاء في محضر اجتماع اركان القيادتين (الوثيقة ١٣٤) ما يلي : « يرغب الطليان كل الرغبة في ان ترسل المانيا الفرقة الخامسة الآلية الخفيفة الى افريقيا . وعلى هذا اصبح محتملاً ان تبدأ اعمال نزول الالمان الى طرابلس الغرب

بين الخامس عشر والعشرين من شباط . ولكن نقل المعدات الحربية قد يبدأ قبل هذا التاريخ . »

الا ان هتلر رفض ذلك في اليوم التالي . ومما قاله : « ان الاعمال تثقل كواهلنا ولا تسمح لنا بان نرسل قوات عظيمة الاهمية الى ميادين قد لا يعطي عملها فيها ثمرات هامة . ولذا لن نرسل اليكم فرقة مصفحة كاملة ، بل فصيلة دفاعية قوية يمكن نقلها بسرعة لتشترك في القتال قبل ان يبلغ الحر اشده . وهذه القوات مجربة وقديرة وواثقة من فعل اسلحتها في دبابات العدو ، وما اطلقت عليها اسم « قانصات الدبابات » الا لان عملها سيكون السعي الى اكتشاف الدبابات واقتناصها كما يفعل الصياد تماماً . وفي استطاعة هذه الفصيلة ، بما تملك من دبابات واسلحة مضادة للدبابات ، ان تحطم كل سيارة انكليزية مصفحة وكل دبابة قد تعترضها . » والقى هتلر ، استاذ الفن العسكري الحديث ومبتكر الاساليب الحربية الفنية ، على القادة الطليان درساً في طرق استخدام الاسلحة ، وطلب اليهم ان يتعمقوا في دراسة اساليب القتال الحديثة ويتمثلوا بالالمان ، واوصاهم بانشاء مدفعية قوية مضادة للطيران وبالاعتماد على الالغام ، واقترح عليهم استخدام غواصاتهم لبث الغام في مياه طبرق .

وازداد عجز الطليان ظهوراً في الشهور التالية حتى اخذت المانيا تتوقع خسارة افريقيا الشمالية تماماً . وقال هتلر في مؤتمر الثاني من شباط (الوثيقة ٨٧٢ من وثائق نورمبرغ) : « من الممكن احتمال خسارة افريقيا الشمالية من الوجهة العسكرية .

ولكن صداها المعنوي في نفوس الطليـان سيكون عظيم الاثر . وتستطيع انكلترا حينئذ ان تهدد ايطاليا وتكرهها على توقيـع المدنة . ولا يخفى ان ذلك يؤثر في موقفنا تأثيراً سيئاً اذ تصبح القوات الانكليزية في البحر المتوسط حرة طليقـة . ولا تنسوا ان جنبنا ضعيف في فرنسا الجنوبية . ثم ان مغادرتنا افريقيـا تسمح للانكليز بتحرير اثنتي عشرة فرقة يستخدمونهـا في سوريا مثلا ، وفي هذا خطر علينا . وعلى هذا ينبغي لنا ان نفعل كل ما في وسعنا للحيلولة دون وقوع ذلك ، وان نسند ايطاليا . »

وامر هتلر الفريق العاشر الجوي بحماية نقل القوات الايطالية وضرب خطوط المواصلات الانكليزية . وامر القيادة العليا البرية باعداد العدة لارسال فرقة المانية مصفحة الى افريقيا (الفرقـة التي رفض قبل اسبوعين ارسالها الى غوزوني) . وهكذا حدث في ليبيا ما حدث في البلقان وادى ضعف ايطاليا العسكري الى اشتراك قوات المانيـــة مطردة الزيادة في ميادين البحر المتوسط ، واصبحت ايطاليا عبئاً ثقيلاً عـلى المانيا . وسارت الاحداث في مجراها ، ودارت معركة افريقيا الشمالية التي امسكت المانيا بزمامها بسرعة خاطفة بين مد وجزر ، واستخدم الطرفان اسلحة جديدة كالدبابة البريطانية ماتلدا والمدفع الالماني « ٨٨ » ، فكان لها اثر كبير في تبديل الاوضاع فجأة في صحراء واسعـة شاسعة . وفي حزيران ١٩٤٢ عاد رومل الى الهجوم بعد ان تراجــع الى طرابلس الغرب ، وفاجأ الانكليز ودحرهم . وعبر الالمان القيروان بسرعة تضاهي سرعة القطار السريع واستولوا

في يوم واحد على طبرق التي اعتصم بها الانكليز وحصنوها لتقاوم سنة كاملة . ودخل جيش رومل ارض مصر . وكانت تلك الايام من اكثر ايام الحرب خطراً على الانكليز . ووقف تشرشل في مجلس العموم البريطاني ، وهو يكاد يفقد الثقة ، واعترف بالهزيمة بعبارات ما كان لمجلس غير المجلس البريطاني ان يسمعها ويحتفظ بالصبر ويجدد الثقة برئيس الحكومة . ولم يحاول ان ينتحل اعذاراً ، ولم تكن هناك اعذار ، ولم يكن في اقواله بارقة امل . قال : « كانت جيوشنا اكثر عدداً من جيوش المحور : مائة الف رجل من قوات الامبراطورية ، مقابل تسعين الفاً ، بينهم خمسون الف الماني . وكانت مدفعيتنا اكثر من مدفعية العدو بنسبة ثمانية ضد خمسة . وكان لنا التفوق في الجو . وقد اكرهنا سقوط طبرق على التراجع الى مرسى مطروح . وكنا قد تركنا بيننا وبين العدو مسافة مائة وعشرين ميلاً من الاراضي الصحراوية وظننا اننا نأمن العوادي عشرة ايام او خمسة عشر يوماً . ولكن لم تنقض خمسة ايام (٢٦ حزيران) حتى رأينا رومل يفاجئنا في عقر دارنا بدباباته وآلاته الجهنمية . اننا اليوم امام اكبر هزيمة منينا بها منذ انهيار فرنسا . ولست ادرك حقيقة ما جرى ولا افهم كيف حدث . »

وكانت فلول الجيش البريطاني ، اي اقل من خمسين الف رجل ، عاجزة عن وقف زحف رومل . واصبحت طريق القاهرة مفتوحة . وكان ضياع مصر من ايدي الانكليز شبه اكيد . وبدا ان حوض المتوسط الشرقي الذي تهدده القواعد

الالمانية الايطالية في كريت والدوديكانيز من الجهة الاخرى ، قد وقع في ايدي الالمان . ولم تتلقَ الامبراطورية البريطانية يوماً ضربة كتلك الضربة . وكانت كارثة القيروان حلقة مكملة لسلسلة هزائم الانكليز في الشرق الاقصى . فبعد ان جردهم اليابانيون من سنغافورة ، اوشك رومل ان يستولي منهم على قناة السويس . » فكيف نجت القناة ولمَ اوقف رومل هجومه ؟

لقد حلت محاكمة نورمبرغ هذا اللغز . فلما سئل كايتل عن سبب توقف رومل اجاب قائلا : « هم الطليان اولاً واخراً . قدرنا احتياجات رومل من الذخيرة والعتاد والسلاح بخمسة وستين او سبعين الف طن في الشهر ، يضاف اليها عشرون الف طن للطليان . وكان ادنى ما تحتاج اليه جيوش المحور في افريقيا ثمانين الف طن . ولكن اقصى ما استطاعت البحرية الطليانية نقله الى افريقيا لم يتعد الثلاثين الف طن . وقد بعثتُ برسائل عديدة الى هتلر وموسوليني والححت كثيراً ، ولكن بدون جدوى . وسافرت الى بحر برينر مرتين واتصلت ببادوليو مراراً ورجوته رجاء حاراً ان يستخدم مدرعاته السريعة وغواصاته وسفنه السريعة الراسية في الموانيء الايطالية لنقل الاعتدة الحربية اللازمة لجيوشنا في افريقيا الشمالية . وكان عند الطليان ثلاثون غواصة كبيرة جداً مشلولة الحركة لانها كانت من الثقل بحيث لم يستطع اي ضابط ايطالي ادارة حركتها . وطلبت من بادوليو ان يجرد هذه الغواصات من جميع اسلحتها ومن كل ما يمكن الاستغناء عنه لنستخدمها في النقل فقط . فلم يجبني الى

طلبي . وكان من الجنون ان نرسل قوات جديدة الى افريقيا لاننا لم نكن نستطيع تموينها . لقد كان روميل ضحية افلاس تام في جهاز نقله وخطوط مواصلاته . »

وكان موسوليني يجيب على الحاح الالمان بعناد شديد : ان خير وسيلة لتحسين الحالة في البحر المتوسط هي الاستيلاء على تونس ، اي انه اتخذ من حاجة روميل الى المؤن ، حجة للمطالبة بتونس لايطاليا ما دام الالمان سيستولون على مصر مطمع انظار الطليان منذ زمن بعيد . ورفض هتلر تلبية طلب الدوتشي اذ خشي إن هو استولى على تونس فخرق بنود معاهدة الهدنة مع فرنسا ، ان يحمل الامبراطورية الفرنسية باسرها على الانضمام الى حركة ديغول . وعرف الفوهرر يومئذ الطليان حق المعرفة . قال جودل في هذا الصدد : « كنا قد رسمنا خطة للاستيلاء على جزيرة مالطة . وكان الاستعداد على اتمه ، ولم نشك في النجاح بعد انتصارنا الباهر في جزيرة كريت . وكانت البحرية الالمانية تلح في الاسراع بتنفيذ الخطة (تثبت هذا القول مذكرات الاميرال ريدر) ، ولكن الفوهرر رفض ان يقدم للماريشال كيسلرنغ فصائل المظليين والفرق المنقولة جواً التي طلبها لدعم هجومه على مالطة ، لانه لم يبق يثق بالطليان الذين لم يكن بد من مساعدتهم لاحتلال الجزيرة . »

وهكذا انقذت البحرية الطليانية السويس ومالطة كما انقذ هجوم موسوليني في البلقان موسكو . وهاتان خدمتان عظيمتان اسدتهما ايطاليا ، عن غير قصد ، الى الحلفاء . ومهما تفعل ايطاليا

فهي دائماً تمشي في ركاب المنتصر . وهذا ما حداها في تموز ١٩٤٣ الى الاستسلام والانضمام الى الحلفاء . وقد تحدث الجنرال جودل في تشرين الثاني ١٩٤٣ الى زعماء الرايش (الوثيقة ١٧٢) عن هذا الحدث الخطير الذي القى في ايدي الحلفاء مقاليد البحر المتوسط باجمعه ، فقال : « تعرفون جميعاً كيف خانتنا ايطاليا . ولا شك بانكم قرأتم ذلك في الصحف . ولكن الحالة اكثر خطراً مما وصفتها الصحف . فقد وجدت القيادة الالمانية العليا نفسها امام مشكلة من اصعب المشاكل التي جابهتها . وقد اتضح للفوهرر منذ اللحظة الاولى ان عزل الدوتشي واعتقاله معناهما استسلام ايطاليا على الرغم من ان بعض الذين لم يبلوا الحقائق السياسية رأوا في هذا الحدث تحسيناً لموقفنا في البحر المتوسط ولتعاوننا العسكري مع الطليان . وهناك اشخاص عديدون لم يدركوا يومئذ مغزى عمل الفوهرر السياسي والعسكري الرامي الى اسقاط الحكومة الايطالية الجديدة وتحرير موسوليني . ولا غرو فقد كان الامر يقتضي اطلاع اقل عدد ممكن من الشخصيات الالمانية على ذلك . وكان علينا من جهة ثانية ان نتخذ الوسائل العسكرية اللازمة لوقف تقدم العدو على الجبهة الغربية من ابعد مكان ، اي من صقلية . ولم يكن لدينا اقل شك في ان العدو سيسعى الى نقل جماع قوته الى نقطة ما في غربي ايطاليا . وكان توزيع سفنه واختياره السواحل التي سينزل اليها ، خير دليل على نياته . وكان من واجبنا ، والحال ما ذكرت ، ان نستولي على اكبر مساحة من الاراضي الايطالية للحيلولة دون نزول

العدو الى ايطاليا الشمالية ودون وقوع قواتنا المرابطة في الوسط والجنوب تحت طائلة الاعداء . وكان ضرورياً ابقاء هذه القوات كيلا يتاح للطليان عذر يحتجون به لخيانتنا . وقد بلغ من خبث هؤلاء الخونة انهم بالغوا في اظهار ودهم لنا واخلاصهم ، حتى ان بعض ضباطنا الذين اتصلوا بهم شكوا في احتمال خيانتهم . ولا عجب فان الضباط الالمان ما كانوا يصدقون ان خيانة كهذه ممكنة ، او يتصورون ان الدناءة تبلغ بالانسان الى هذا الحد . وقد زادت الحالة سوءاً حتى انني ، لاول مرة في هذه الحرب ، لم اعرف بماذا اشير على الفوهرر . واعددنا العدة للعمل في حالة استسلام ايطاليا . وكانت الفرق التي امر الفوهرر بنقلها من الغرب الى ايطاليا الشمالية متوقفة عن العمل ، بينما كانت قواتنا في الجبهة الشرقية تطلب المعونة . وتجاه هذا الموقف الدقيق ، قرر الفوهرر حل العقدة بانذار سياسي وعسكري . وفي صباح السابع من ايلول ظهر اسطول الغزو المعادي امام سالرنو ، وبعد ظهر اليوم التالي انتشر في العالم خبر استسلام ايطاليا . وحتى بعد هذا الخبر لم تستطع القيادة الالمانية التدخل لان الطليان رفضوا الاعتراف بصحة الخبر الذي اذاعته المحطات اللاسلكية . ولم نقرر تنفيذ خطة الهجوم على ايطاليا ، ولكننا امرنا القوات بالاستعداد للطوارىء . وفي الساعة التاسعة عشرة والدقيقة ١٥ اكدت السلطات الطليانية ان استسلام ايطاليا حقيقة ، فوقفنا مشدوهين امام افظع خيانة عرفها التاريخ . اما ما حدث بعد ذلك فهو مأساة ومهزلة معاً . وستذاع تفاصيلها في المستقبل .

وكان رد فعل جيوشنا وقيادتنا عنيفاً . »

اجل كان عنيفاً . فقد جرد الالمان الطليان الذين كفوا عن المقاومة في جميع الميادين ، بدون رحمة . وتضمنت الوثائق المربوطة بمحضر المؤتمر الذي عقده جودل تفصيلات وارقاماً يتضح منها ان ثمانين فرقة ايطالية جردت من السلاح وعوملت كاسيرة حرب . وبلغ ما جمعه الالمان ١٢٥٥٦٠٠ بندقية ، و ٣٨٣٨٣ مدفعاً رشاشاً ، و ٩٩٨٨ مدفعاً ، و ٩٧٠ دبابة ، و ٤٥٥٣ طائرة ، و ٢٨٧٥٠٠ طن من الذخيرة ، و ١٥٥٠٠ سيارة ، و ٦٧٦٠٠ حصان ودابة ، و ١٩٦٠٠٠ طن من الحديد ، و ٣٤٠٠ طن من الزئبق ، و ٢٢٥٢٠٠٠ غطاء صوفاً ، و ١٣٩٠٠٠ قميص ، و ٣٥٢٠٠٠ متر من الجوخ ، وطائفة اخرى من الالبسة والاعتدة المختلفة . وزادت هذه الغنائم الجيش الالماني بحبوحة . وكان ذلك في الواقع الفائدة الوحيدة التي افادها الالمان من الطليان .

وهكذا تفكك المحور الذي اكره الغرب على التراجع في مونيخ وقبول مطالب الالمان والطليان ، وساهم في اثارة الحرب العالمية ، وقضى الحلف الذي حمل القاذفات الايطالية الى سماء لندن ثم القلاع الجوية الاميركية الى سماء جنوى . . . وكانت خيبة امل هتلر عميقة ، وشعر بأسف وألم عظيمين لموت الفاشستية شقيقة الاشتراكية الوطنية البكر . ولم يكد يصدق ان الشعب الايطالي استطاع في لحظة ان يدك اركان نظام كان وبياً حتى الامس القريب . . . قال جودل : « بعد اعتقال

موسوليني وانهيار الفاشستية روبت للفوهرر ان شوارع روما كانت مغطاة بملايين الشعارات الفاشستية التي كان عمال التنظيف يكنسونها . فرفع كتفيه بازدراء وقال : « ليس سواك من يصدق اراجيف كهذه ! »

مهمة رودلف هيس

ليس في هذا الفصل وثائق المانية تتكلم ، بل مستندات انكليزية تضمنتها الوثيقة ٦١٤ من ملف نورمبرغ . وهي تروي اعجب قصة في الحرب العالمية الثانية ، اعني بها رحلة رودولف هيس ، ممثل الفوهرر في الحزب الاشتراكي الوطني ووزير الرايش وثالث رجل من رجال حكومة هتلر ، الى انكلترا !

في العاشر من آذار ١٩٤١ ، وكان يوم السبت ، وفي الهزيع الاول من الليل ، كان الدوق هاملتون عضو البرلمان البريطاني وقائد سلاح الجو الملكي الانكليزي ، في مركز قيادته في تورنهاوز بايكوسبا . فابلغه معاونوه ان طائرة من طراز مبسر شميدت ١١٠ عبرت ساحل نورثومبرلاند في تمام الساعة ٢٢ والدقيقة ٨ . فقال لهم الدوق ان هناك خطأ في تشخيص الطائرة اذ لم يحدث قط ان غامرت طائرة المانية بالوصول الى هذا المكان البعيد لانها لا تستطيع ان تحمل وقوداً يكفيها للعودة . وعلى هذا مضت مراكز المراقبة تتابع الطائرة في سيرها . وفي الساعة ٢٢ والدقيقة ٥٦ اكتشفها المراقبون على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم في شمالي شرقي اندروسان . ثم لاحظوا انها تتجه نحو الجنوب فالشمال فالغرب . واستنتجوا ان الطائرة تهيم . وسددت جميع المدافع المضادة للطائرات في اتجاهها ، ثم

انطلقت طائرة قنص من طراز بولتون ديفيـان وانقضت بسرعة على الطائرة الالمانية . وفي الساعة ٢٣ والدقيقة ٣ كانت هـذه تهبط في جنوبي غلاسكو ، ولم تكن الطائرة البريطانية القـانصة بعيدة عنها باكثر من اربعة اميال . وفي اللحظة ذاتها اعلنت مراكز المراقبة ان طائرة سقطت وانها تحترق . وابلغت الطائرة البريطانية انها سليمة وانها لم تشتبك بالعدو . وكانت الطائرة الغريبة قد سقطت من نفسها . وتلقى اللورد هاملتون اخبـاراً جديدة تعلن ان الطائرة سقطت على بعد ميلين من ايغليشم بالقرب من ميرنزرود (وهي منطقــة هاملتون) وانهــا ميسر شميدت ١١٠ . وانتفض هاملتون لما سمع السلك ينقل اليه ان الطيار القى بنفسه بالمظلة ، وانه اعتقل ويدعى الفرد هورن ويؤكد انه مكلف بمهمة خاصة ، ويطلب ان يتحدث الى الدوق هاملتون . وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التـالي (الاحد) وصل اللورد هـاملتون الى معسكر ماريهلز في غلاسكو حيث كان الطيـار العجيب اسيراً . واطلع اللورد على مـا وجد في ثيـاب الاسير فـاذا هي صورة طفل وبعض الادوية وبطاقتــا زيارة باسمي الدكتور كارل والبرتخ هوشوفر . وعادت بهاملتون الذاكرة الى ماضٍ بعيد وشعر بان اسم هوشوفر ليس غريباً عنه ...

ودخل الى غرفة السجن يرافقه ضـابط الحرس وترجمان ، فوجد رجلاً نحيف البنية ، غائر العينين ، بادي الحيرة والارتباك . قال الاسير : اريد ايها الدوق ، ان احدثك على انفراد . فوافق وخرج الضابط والترجمان ... وسأل الرجل هاملتون وهو يحدق

فيه : ألست تعرفني ؟
– كلا .
– لقد رأيتني في برلين اثناء الالعاب الاولمبية العام ١٩٣٦ وتناولت طعام الغداء عندي .
وظل اللورد هاملتون هادئاً لا يتعرف الى الرجل ، الى ان قال هذا : انا رودولف هيس ... وفقد هاملتون السيطرة على نفسه وهتف بدهشة عظيمة : رودولف هيس ؟
– اجل . وقد جئت بمهمة انسانية .
ولم يصدق الدوق . وكيف يصدق ان رودولف هيس يأتي الى انكلترا ؟ كان الامر اغرب من ان يصدق .
قال هيس : اكد لي صديقي هوشوفر انك قادر على فهم مقترحاتي وآرائي . وقد حاول ان يجمع بيني وبينك في لشبونة . أتذكر الكتاب الذي بعث به اليك في الثالث والعشرين من كانون الاول الماضي ؟
فاجاب هاملتون : لم اكن اظن ان المقابلة كانت معك .
– هذه هي رابع محاولاتي منذ كانون الاول للوصول اليك . وقد اضطررت في المرات الثلاث الاولى لان اعود من حيث اتيت بسبب سوء الاحوال الجوية . ولم ار ملائماً ان ازور انكلترا بينما الانكليز يحرزون انتصارات متتابعة في ليبيا لئلا يؤول ذلك ببادرة ضعف اصاب المانيا . اما اليوم وقد اصلحنا موقفنا في افريقيا الشمالية وفي اليونان ، فانني مسرور بان اكون هنا . ويثبت لك صدقي انني ، انا وزير الرايش ، جئت

بنفسي وركبت هذا الخطر العظيم ، كما يدلك على رغبة المانيا في عقد الصلح معكم . والفوهرر واثق من انه سيربح الحرب عاجلاً او بعد سنة او سنتين او ثلاث سنين .

وكانت دهشة هاملتون تزداد باطراد وهو ينصت الى هذا الوزير الذي هبط عليه بهذه المفاجأة العظيمة . ومضى هيس يقول :

– ارجو منك اذاً ان تتصل بزعماء حزبك وتتبادلوا الآراء في مشروعي لعقد الصلح بين دولتينا .

– لم يبق في هذه البلاد مذ نشبت الحرب سوى حزب واحد .

هيس – ساعرض عليك اقتراحات هتلر . انه يرجو اولاً ان يتم بيننا صلح يجعل الحرب مستحيلة بين دولتينا بعد اليوم .

هاملتون – وكيف يكون ذلك ؟

هيس – من الشروط الاساسية طبعاً ان تعدل انكلترا عن سياستها التقليدية وهي معارضة الدولة التي هي اقوى دول اوروبا .

هاملتون – اذا عقدنا الصلح اليوم ، وقعت حرب ثانية بعد سنتين .

هيس – علامَ هذا الظن ؟

هاملتون – كان ممكناً قبل نشوب الحرب حلّ المشاكل بطرق سلمية . اما وقد فضلت المانيا القتال في وقت كنا فيه اكثر الناس اهتماماً بانقاذ السلم ، فلست ارى كيف يمكننا

الوصول اليوم الى اتفاق .

ولم تكن اجوبة هاملتون مشجعة ، فسكت هيس . وبعد ، فهو لم يكن يفهم جيداً ما يقوله اللورد هاملتون ، وكان يعبر عن آرائه بالانكليزية بصعوبة ظاهرة . فاقترح هاملتون ان يستأنف البحث بعدئذ بحضور ترجمان . وقال هيس :

— لي ثمة رجاء آخر . اريد ان تطلب الى الملك ان يعطيني عهداً بانني جئت الى انكلترا بدون سلاح ومن تلقاء نفسي . وارجو ان تبرقوا الى روتيشر ١٧ هرزوغشتراسه بان الفريد هورن في صحة جيدة لتطمئن عائلتي . وكم اود لو استطعتم كتمان اسمي عن الصحف .

ولم يكن للدوق هاملتون ان يتعهد بشيء فليس ذلك من اختصاصه . فخرج وسافر حالاً الى لندن ليطلع الحكومة على هذه الزيارة العجيبة المفاجئة . وفي اليوم التالي الثالث عشر من ايار وصل الى معسكر ماريلز المستر كيركباتريك احد موظفي وزارة الخارجية البريطانية . وكان اول ما فعله ان تثبت من هوية الغريب لانه كان موظفاً في برلين ويعرف رودولف هيس ، فاقرها .

وبدأ هيس يتململ في سجنه ويشكو من اللقاء الجاف الذي قوبل به ، ومن انه يعامل كالاسرى وهو ما جاء الا كمفاوض . وكان سجيناً في غرفة صغيرة يقف على بابها خفير . وطلب ان ترد اليه الادوية التي وجدت معه ، كما طلب بعض الكتب للقراءة ومنها كتاب « ثلاثة رجال في سفينة » لجيروم ك .

جيروم . ورغب الى سجانه ان يأتي اليه بقطعة من طائرته على سبيل الذكرى . ثم روى رحلته مفصلة فقال انها كانت قاسية وانه طار من اوغسبورغ في الساعة ١٧ والدقيقة ٤٥ . ولما صار على مقربة من السواحل البريطانية وجد ان الظلام لم يخيم عليها تماماً ليتاح له اجتيازها بدون ان يتعرض للخطر ، فظل ساعة يحوم فوق بحر الشمال . ثم عدل عن الهبوط في دونجينال كما كان ينوي في البداية . ووصف هيس ما انتابه من المواجس قبل ان يقدم على القاء نفسه بالمظلة ، وقال انه اغمي عليه عندما هبط ، وشكر للفلاح الذي انقذه وعني به . ولكنه لم يكن يتوقع ان يكون مصيره السجن في غرفة في غلاسكو . ثم فصل الغرض من رحلته وهذا فحوى ما قال :

خطرت لهيس فكرة السعي للصلح بعد ان قرأ كتاباً لادوارد الثامن عن السياسة الخارجية . وادرك من هذا الكتاب خطأ انكلترا الاساسي وهو معارضتها منذ زمن بعيد للدولة الاقوى في اوروبا . واعتبر انكلترا المسؤولة عن حرب ١٩١٤ لانها ما فتئت منذ ١٩٠٤ تعاضد فرنسا ضد المانيا . وبرر هيس سياسة الفوهرر فقال انه لم يضم النمسا بالقوة الا لانه اصطدم بمعارضة انكلترا وفرنسا ، ولم يثر قضية تشيكوسلوفاكيا الا لان الوزير الفرنسي بيير كوت صرح بان من الوجب جعل تشيكوسلوفاكيا قاعدة جوية ضد المانيا ، وان مؤتمر مونيخ ارضى هتلر ولكن تشمبرلن اعلن بعد اسبوعين ان فترة السلم التي اتاحها مؤتمر مونيخ ستعطي انكلترا الفرصة لانهاء تسلحها ، ففهم

هتلر انه خُدع بمسايرة انكلترا . ثم لما عمدت فرنسا وانكلترا الى تسليح ما بقي من تشيكوسلوفاكيا لم ير الفوهرر بداً من ضم تلك البلاد باسرها الى الرايش .

ومضى هيس يقول ان هتلر كان واثقاً بل كان لديه الدليل القاطع على ان بولونيا ما كانت لترفض الحلّ الذي اقترحته المانيا لو لم تشجعها انكلترا على المقاومة . وعلى هذا يكون الانكليز مسؤولين ايضاً عن حرب ١٩٣٩ . اما في صدد النروج فقد ثبت لهتلر ان انكلترا كانت ستسبقه اليها . واكد هيس ان الفوهرر كان واثقاً من ان الانكليز سيجتاحون بلجيكا وهولندا للهجوم على المانيا والاستيلاء على منطقة الرور الغنية بالفحم ، فحال دون ذلك .

ولا شك في ان كيركباتريك الذي انصت الى تصريح رودولف هيس قد عجب ان يأتي الوزير الالماني من المانيا ليلقي على مسامع الانكليز هذا البيان الاتهامي . ولكن هيس انتقل الى اساس مهمته فاعلن ان انكلترا خسرت الحرب . واعطى لدليل على ذلك بقوله : « اصبح انتاج الطائرات في المانيا عظيماً وهو في ازدياد مطرد ويفوق النتاجين الانكليزي والاميركي مجتمعين ، فضلاً عن ان الطيارات الاميركية ضعيفة لا يخشاها سلاح الطيران الالماني . وعبثاً تسعى بريطانيا الى استباق المانيا في الميدان الجوي . وقد بلغت الاضرار التي نزلت بمصانعها مبلغاً عظيم الخطر . ولن يقف الامر عند هذا الحد لان سلاح الرايش الجوي عازم على تسديد ضربات اشد الى انكلترا .

وجدير بي ان اذكر الحقيقة التالية : لما بدأ الانكليز بقصف المدن الالمانية في ايار ١٩٤٠ ظن الفوهرر انها سحابة وتنقشع ، وصبر لسببين : الاول اشفاقه على العالم من حرب جوية فتاكة لا هوادة فيها ، والثاني رغبته في اجتناب تدمير المدنية والآثار الانكليزية . ولما عيل صبره ووجد ان الانكليز ماضون في غاراتهم ، امر بقصف المدن الانكليزية . »

وتحدث هيس عن الحرب البحرية فقال ان الغواصات تصنع في المانيا والبلاد المحتلة بدون عدد ولا حصر ، وترسل قطعاً مفككة بواسطة الانهر والاقنية الى مراكز خاصة لتركيبها ، وان الخطر كل الخطر على الملاحة البريطانية من نشاط الغواصات . واكد ان المانيا قوية ثابتة الاركان موحدة في الداخل ، وان لديها من المواد الاولية كميات كبيرة ، وان فتوحاتها زادتها قوة وعززت اجهزتها الاقتصادية والعسكرية ، وقال ان الشعب الالماني يثق بالفوهرر ثقة تامة . ثم انتهى الى القسم الثالث والاخير من بيانه وهو اقتراحاته فقال :

« انني اشفق على العالم ان يطول امد الحرب فتزداد هذه المذبحة البشرية وحشية واتساعاً . وقد جئت في غيبة من الفوهرر لاقنع الشخصيات الانكليزية بانه ما دامت انكلترا عاجزة عن احراز النصر ، فمن الحكمة ان تعقد الصلح حالاً . وانا اعلم الناس بهتلر لانني اعرفه معرفة حقيقية ومنذ زمن بعيد . وقد بدأت علاقتي به قبل ثماني عشرة سنة في حصن لاندسبرغ . واؤكد لكم صادقاً انه لم يحفظ لانكلترا حقداً ولا تطلع قط الى

السيطرة على العالم . وهو يرى ان مصالح المانيا لا تخرج عن نطاق اوروبا وان امتداد الرايش الى خارج القارة الاوروبية يبدد قواه ويسبب خرابه . وبعد ، فانه لا يتمنى مطلقاً ان تنهار الامبراطورية البريطانية . »

وقد ذكر كيركباتريك في تقريره ان هيس تلطف اليه لما بلغ هذا الحد من بيانه فخاطبه بعبارة : « أتسمعني ياصديقي العزيز ؟ » وقال هيس ان للاميركيين الانانيين مطامع في الامبراطورية البريطانية وانهم ينوون ابتلاع كندا . ثم عاد الى حديثه فصرح بان هتلر اعلن بحضوره قبل عشرة ايام ان ليس له مطالب مبالغ فيها من بريطانيا واوضح قائلاً : « ان الحل الذي جئت اقترحه عليكم هو ان تطلق انكلترا لالمانيا يدها في اوروبا ، فيطلق لها الالمان حرية العمل في امبراطوريتها بشرط واحد وهو ان تعيد الينا مستعمراتنا القديمة التي نحتاج اليها كموارد للمواد الاولية . »

وشعر المستر كيركباتريك بان القضية وصلت الى عقدتها ، فسأل : أتعتبرون روسيا داخلة في اوروبا ام في آسيا ؟

هيس — في آسيا .

— في هذه الحالة ، وما دام هتلر لا يطلب ان نطلق له يديه في غير اوروبا ، أفلا تكون له حرية الهجوم على روسيا ؟

هيس — ان لالمانيا مطالب من روسيا يجب ان تحقق اما بالمفاوضة او بالحرب . اما ما يشاع اليوم من ان المانيا ستهاجم روسيا فليس صحيحاً .

جرى هذا الحديث في الثالث عشر من آب ١٩٤٠ وكانت خطط القيادة الالمانية العليا تقضي بان يتم الاستعداد لتنفيذ «خطة باربروس» (اي الهجوم على روسيا) في الخامس عشر من آب ١٩٤٠ ولم يتأجل التنفيذ بضعة اسابيع الا بسبب الحملة البلقانية .

ولكن سوء نية رودولف هيس ليس اكيداً اذ قد يكون ، وهو ليس بجندي ، جاهلاً خطط القيادة العليا . ولئن يكن امين سر الفوهرر في آرائه وفي شؤون الحزب ، فهو لم يكن مستودع خططه الحربية ، خصوصاً وان هتلر ، كما اسلفت القول في الفصول السابقة ، كان يريد ان يجعل من هجومه على روسيا مفاجأة عظمى في التاريخ ، وكان يحيط خطته بالكتمان الشديد .

وسأل المستر كيركباتريك رودولف هيس عن ايطاليا وعما اذا كان يعرف مطالبها فاجاب بالنفي . ولما قال له ان القضية هامة ، اكد هيس انه لا يعتقد ان مطالب الطليان تتعدى حد المعقول .

كيركباتريك — لم يستحق الطليان ، في الواقع ، شيئاً .

هيس — هذا محتمل . ولكنهم اسدوا الينا مساعدات كبيرة . وبعد ، فانكم في العام ١٩١٩ كافأتم رومانيا التي هزمت هي ايضاً .

واستغرقت المحاورة ساعتين وربعاً واوقفها كيركباتريك عند هذا الحد وهمّ بالانصراف فاستوقفه هيس قائلاً : « فاتني امر عظيم الاهمية على ما اظن . وهو ان الاقتراحات التي عرضتها لك الساعة لانصيب لها من النجاح الا اذا جرت المفاوضة في

صددها مع حكومة غير الحكومة البريطانية الحاليـة . ويأبى الفوهرر ان يفاوض تشرشل الذي حاك وجماعته خيوط الحرب منذ ١٩٣٦ . »

وجرت مقابلتان اخريان بين كيركباتريك وهيس في اليومين التاليين (١٤ و ١٥ ايار) وكان الوزير الالماني اقل حماسة لانه شعر بان موظف الخارجية البريطانية ليس من مرتبته وان ليس لموظف بسيط ان يفاوض وزيراً . وقد اعرب مرات عديدة عن رغبته في ان يقابل رجالاً مسؤولين بشرط الا يكونوا من الجماعة التي يعتبرها المحرضة على الحرب ضد المانيا . واعلن انـه بوصفه وزيراً للرايش لا يرضى بان يطرح عليه سيل من الاسئلة ، وانه ما جاء الى انكلترا ليدلي باعترافات امام محققين ، بـل ليفاوض مفاوضة الند للند . وطلب سكرتيرة وترجماناً وضارباً عـلى الآلة الكاتبة ومعاونين خبيرين في قضايا الشرع الدولي هما الدكتور شيملبرير وكورت ماس اللذين كانا معتقلين في معسكر لرعايا الاعداء المدنيين في هويتون بالقرب من ليفربول .

وعلى الرغم من امتناع هيس عن المضي في مفـاوضة الموظف المستر كيركباتريك ، فقد اضاف بعض الايضـاحات الى بيـانه الاول وقال ان من شروط الصلح ايضـاً ان يجلو الانكليز عن العراق . ولما لفت كيركبـاتريك نظره الى ان العراق ليس في اوروبا (عطفاً على طلب المانيا ان تطلق لهـا انكلترا حرية العمل في اوروبا) اجابه قائلاً : « ولكن العراقيين حـاربوا في صفوفنا ضـدكم . والفوهرر مصرّ على ان يؤخـذ موقف العراق

هذا بعين الاعتبار عندما توقع معاهدة الصلح . »

وعاد الى حديثه عن الاميركيين فقال : « كن واثقاً من اننا لو وقعنا الصلح الآن لثارت ثائرة الاميركيين لان الهدف الذي يسعون الى بلوغه هو ان يرثوا الامبراطورية البريطانية . انكم تعتمدون على الولايات المتحدة وهذا هو املكم الوحيد في قتالكم اليائس . ولكنكم على ضلال ولا تزنون الامور بميزانها الحقيقي . اننا نتوقع ان تتدخل الولايات المتحدة ، ولكننا لا نخافها . ولسنا بجاهلين قيمة نتاج اميركا من الطائرات ، ولا قيمة طائراتها في الحرب . وقد اسلفت لك القول ان الرايش يستطيع التفوق على اميركا وانكلترا مجتمعتين في هذا الميدان . »

وكان اهم ما امتازت به احاديث هيس مع الموظف البريطاني في الرابع عشر والخامس عشر من ايار ، لهجته التهديدية . فقد قال : « يجب ان تضعوا نصب اعينكم ان المانيا ستربح الحرب بفضل الحصار . ولعلكم لا تقدرون عدد الغواصات التي نبنيها . ان من المأثور عن الفوهرر حبه للكثرة في صنع الاسلحة الفتاكة . وسنعلنها عليكم حرب غواصات لم تذوقوا مثلها في تاريخكم . وسيدعم هذه الحملة البحرية حملة جوية تشنها طائرات من طراز جديد لم تعرفوه ، فنضرب على انكلترا حصاراً تاماً ونفصلها عن العالم حتى تستسلم . وعبثاً تتصورون ان في استطاعتكم اذا استسلمتم في جزركم ان تواصلوا الحرب في امبراطوريتكم . فقد حسب الفوهرر لكل شيء حسابه . وسيرفض طلباً قد تقدمه انكلترا للتسليم . ولن نرفع الحصار عن الجزر البريطانية الا متى

عانيتم انتم سكان هذه الجزر الموت بعد ان تقطع عنكم الموارد من جميع الجهات .

كيو كباتريك – ولكن اذا كان الامر مقتصراً على حياة الشعب البريطاني المادية ، فلسنا بحاجة الى شحن واسع النطاق .

هيس – هذا هو الخطأ بعينه . وكونوا واثقين بان الحصار سيصبح عما قريب من الضيق بحيث تعجزون عن خرقه ولو بسفينتين فقط في اليوم .

وهكذا بلغ من اغراق هيس بالتهويل انه هدد بجعل الجزر البريطانية رهينة لا يفك اسرها الا باستسلام الامبراطورية البريطانية باجمعها . وختم بيانه قائلاً : « ان رحلتي هذه تتيح لكم آخر حظ في مفاوضة لن تخرجوا منها مغبونين ، وفي اجتناب الهزيمة . فاذا اهملتم الفرصة اعطيتم الدليل القاطع على انكم لا تريدون الوفاق مع المانيا . ويحق لهتلر عندئذ بل يغدو من واجبه ان يحطمكم تماماً وان يخضعكم بعد الحرب لسلطانه . هذه آخر كلمة اقولها لكم ، فافعلوا ما طاب لكم . »

في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ١٩٤٥ سأل توماس ج . دود القاضي الاميركي المحقق ، الماريشال كايتل في نورمبرغ عما اذا كان يعرف رودولف هيس معرفة حقة وعما يعرفه عن رحلته الى انكلترا ، فاجابه قائلاً : « عرفت هيس مفكراً عاقلاً يمتاز بهدوئه ورصانته . ولم يكن شرس الطباع ، وكان حساساً جداً ويحب الفنون الجميلة ويخبرها . وما لاحظت عليه يوماً اعراضاً

تدعو الى الظن بانه مصاب بخلل في عقله . ولذا لا ادرك كيف فقد ذاكرته . ولعل لقب هيس (ممثل الفوهرر) خلق بعض الالتباس في فهم حقيقة وظيفته . فهو لم يكن يمثل الفوهرر الا في الحزب الاشتراكي الوطني . وكان مطلعاً على الاختلافات بين الحزب والجيش ، وكثيراً ما سعى الى التوفيق بين الجهتين وحل المشاكل بالطرق الحبية . ولما خلفه معاونه مارتان بورمان اختلفت الاوضاع تماماً . وكان هيس طياراً في الحرب العالمية الاولى وما خفي عليه الدور الخطير الذي يمثله السلاح الجوي في حرب حديثة . وكان بطل بث الالغام بواسطة الطائرات . واذكر انني سمعت الفوهرر يقول يوماً : « يدعي هيس ان في استطاعتنا تسميم الموانىء الانكليزية بانزال الالغام عليها بالمظلات . فينبغي لنا ان ندع له مجال امعان النظر في فكرته وتحقيقها . انني احب المبتكرين فهم وحدهم المعول عليهم . » وانني واثق بان هيس حصل من غورنغ على اذن بالحصول على الطائرات التي يحتاج اليها ، وانه كان حراً في الدخول الى جميع مصانع الطائرات وميادين التجارب والتدريب الجوي . وقد طار الى انكلترا من مطار مصانع ميسر شميدت في اوغسبورغ واستصحب بعض صفائح اضافية من الوقود واعلن ان في نيته القيام برحلة بعيدة الى هولندا وبحر الشمال . ولم يكن في هذا العمل ما يدعو الى الشك . ولما علمنا ان هيس وصل الى انكلترا تملكتنا الدهشة وكدنا لا نصدق الخبر . وثارت ثائرة الفوهرر فكان كالنمر الهائج يقطع غرفته ذهاباً واياباً وهو في اشد حالات

الغضب والحيرة . وكان يردد القول : « لا بد ان يكون هيس قد فقد صوابه واختل عقله . والدليل على هذا كتابه الذي تركه لي قبل سفره . فانني اكاد انكره وكأني به لم يخطه بيده . » ولا شك في ان هذا الكتاب فقد لانني اعرف انكم لم تجدوه . وقد يكون الفوهرر مزقه في ساعة غضبه . وكان هيس يقول فيه انه يعتبر استمرار الحرب كارثة محتومة على المانيا وانه ذاهب الى انكلترا ليحاول وضع حد لها معتمداً على علاقاته الودية ببعض وجوه الانكليز النافذي الكلمة . وقد امر هتلر باعتقال البروفسور ميسر شميدت . ولكن التحقيق اثبت انه لم يكن عالماً بخطة رودولف هيس ولا راوده الشك في نياته . وثبت ايضاً ان زوجة هيس نفسها لم تكن تعلم شيئاً عن عزم زوجها على السفر الى انكلترا . »

وتثبت اعترافات كايتل ما ذكرته الوثائق البريطانية عن رحلة هيس . على ان هناك ناحية ما تزال موضع ريبة وهي : هل كان هتلر يجهل حقاً نيات رودولف هيس وموعد سفره ؟ لقد غضب هتلر ودهش امام معاونيه لما بلغه خبر سفر هيس . ولكن من ذا الذي يثبت انه لم يصطنع هذه الدهشة وذاك الغضب ؟

لقد تكلم هيس في انكلترا بلهجة الواثق بما يقول والكفيل بما يقترح . وعرض على الانكليز اقتراحات رسمية لا آراء بسيطة ، اي انه كان مكلفاً مهمة رسمية . ولما كانت الطاعة اساس القانون النازي فلا بد ان يكون هيس قد نفذ اوامر هتلر بالسفر دون ان يوحي لاحد انه مسافر بامر الفوهرر ، ان كان

هذا قد امره فعلاً بذلك . ومما يزيد هذا الحدس رسوخاً ان هتلر كان على وشك غزو روسيا ، وشعر حتماً بالخطر العظيم الذي يعرض نفسه وبلاده له بفتح جبهة جديدة والمقاتلة في ميدانين معاً . ولا يستبعد ان يكون قد سعى الى مصالحة انكلترا بالوعد تارة وطوراً بالوعيد وهو المعروف بمهارته ووعيه . وبعد ، فان المسعى لم يكن في غير موضعه لان انكلترا كانت تحارب بمفردها . وكانت لندن ترزح تحت كابوس السلاح الجوي الالماني وتتحطم تحت ضرباته القاصمة ، وزالت كوفنتري تقريباً من العالم بعد غارة واحدة ، وكانت المدلاندز ، قلب التسلح الانكليزي النابض ، تتلقى الضربة تلو الضربة . وبلغ من كثرة التعطل عن العمل بسبب اشارات الانذار المتتابعة في الليل والنهار ، ان امسى انتاج بريطانيا الحربي من العدم على قاب قوسين . وفي البحار منيت السفن البريطانية بخسارة عظيمة لا تعوض ، وانهكت البحريةَ الانكليزية جيوشٌ من الغواصات الالمانية الفتاكة . وما كانت بعض السفن لتنجو من الغواصات حتى تقع تحت طائلة السلاح الجوي الالماني ينسفها في الموانىء .

كانت انكلترا جزيرة صغيرة اجتاحها الخراب تقف بوجه قارة بامرها تأتمر امر رجل واحد وتعمل من اجل مرضاته . ولئن يكن هيس قد هدد الانكليز في وسط جزيرتهم ووصف لهم حالتهم التعسة وهددهم بالويل والثبور اذا رفضوا اقتراحاته ، فهو لم يكذب ، ولا صور الحالة على غير حقيقتها . ففي ربيع ١٩٤١ تحولت اوروبا – ولم يكن حينئذ من جبهة قتال برية

بعد ان انهزم الانكليز امام الالمان في كل مكان – الى مصنع جبار للغواصات والطيارات قاذفات الدمار يرسلها بعشرات الالوف وبسرعة مرعبة . وما كان احد يظن ان انكلترا ستنجو من الخراب العام والابادة التامة .

في تلك الايام السوداء التي لم تكن تلمع فيها بارقة امل للانكليز ، جاءهم من يعرض عليهم صلحاً شريفاً . هبط عليهم هيس وما كانت مهمته بسخيفة او جنونية ، بل كان حظها من النجاح عظيماً . ولكن الانكليز ابوا الا ان يمضوا في القتال ورفضوا هذا العرض المغري ... ومذ اغلق باب غرفة معسكر مارهيلز باراكز خلف المستر كير كباتريك ، لم ير رودولف هيس ، ثالث رجل في الرايش ، وجه انكليزي غير وجه سجانه . وفي العاشر من حزيران كتب هيس ، بعد ان عيل صبره ، مذكرة كرر فيها وعوده وتوعداته ، ورفعها الى الحكومة البريطانية ... واعلن انطوني ايدن وزير خارجية انكلترا في مجلس العموم : « ابلغنا رودولف هيس بصراحة اننا لا نرضى بان ندخل في مفاوضة اياً كان نوعها مع هتلر او حكومته . وقد عاملنا هيس منذ هبوطه الى هذه البلاد كاسير حرب وسنظل نعامله كذلك حتى تنتهي الحرب . »

الحملة على روسيا

لما انقض الجيش الالماني على بولونيا في ايلول ١٩٣٩ لم يترك على الحدود الفرنسية سوى خمس فرق . ولما حشد الرايش جيوشه في تشرين الاول ١٩٤٠ استعداداً لضرب روسيا ، لم يترك في الاراضي التي غزاها اكثر من خمس فرق .

وكانت الجيوش السوفياتية والجيوش الالمانية مرابطة على جانبي الخط الفاصل الذي حدده ريبنتروب ومولوتوف على الخريطة قبل شهر لما اقتسما بولونيا . وكانت هذه القسمة رمزية ، فقد جرت قبل قرن ونصف قسمة مماثلة بين بروسيا وروسيا وربطت الدولتين برباط الود قرناً كاملا . اما صفقة ١٩٣٩ فلم تعمر . فما كادت تمضي عليها سنتان حتى كانت بين المانيا الهتلرية وروسيا الستالينية حرب جهنمية لم يشهد لها التاريخ مثيلًا . وتتضمن ملفات محكمة نورمبرغ عن تينك السنتين مائة وخمساً وثمانين وثيقة سياسية وعسكرية مستخلصة من محفوظات الامبرالية الالمانية ، وهي تظهر تطور العلاقات الالمانية الروسية من سيء الى اسوإ حتى انتهت الى الحرب . واولى هذه الوثائق مؤرخة الخامس والعشرون من نيسان ١٩٣٩ وهو تاريخ توقيع معاهدة عدم الاعتداء في موسكو ، والاخيرة مكتوبة في الثاني والعشرين من حزيران ١٩٤١ يوم دخل الالمان الى روسيا . وفي البداية كان

الالمان مرتاحين كل الارتياح لتعاقدهم مع روسيا السوفياتية . وفي السابع عشر من ايلول ، وصف رئيس قسم الاعمال البحرية في الرايش دخول الروس الى بولونيا بانه حدث سيعود على المانيا باحسن النتائج . ومنذ الثالث والعشرين من الشهر ذاته اخذ الاميرال ريدر يبحث مع الفوهرر قضية استيراد غواصات من روسيا واحتمال استخدام ميناء مورمنسك الروسي كقاعدة للمدرعات الالمانية المساعدة ، لان مياهه لا تتجلد طوال السنة ولانه يصلح ملجأ ومرصداً ومركز انطلاق . وفي الخامس والعشرين من ايلول اعربت الاميرالية الالمانية عن ود صريح للاتحاد السوفياتي ، ورفع الملحق البحري الالماني في موسكو تقريراً اكد فيه انه لا يشك مطلقاً في صدق روسيا وودها للرايش . وبعد بضعة ايام اوصى الاميرال ريدر بالسعي الى التعاون مع البحرية الروسية . ولما سئلت وزارة الخارجية الالمانية رأيها في هذه التوصية ابدتها . وفي العاشر من تشرين الاول ابلغ الاميرال الفوهرر ان مدرعة المانية مساعدة دخلت ميناء مورمنسك وهي بكامل سلاحها فاستقبلها الروس بحفاوة ، وان الحكومة السوفياتية تعرض على المانيا قاعدة ممتازة بالقرب من مورمنسك . وبدأ التعاون وكان ينبيء بثمار طيبة . واعلن ريدر ان مساعدة روسيا تسهل لالمانيا الحصول على قاعدة في النروج ربما كانت ميناء تروندهايم .

وفي اليوم التالي حدث ما عكر صفو العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والمانيا بعض التعكير . فقد وقعت روسيا وانكلترا

اتفاق مقايضة على الخشب الروسي مقابل المطاط والتوتيـــاء الانكليزيين . ولكن سرعان ما هضم الالمان هذا الاتفاق على امل الحصول بواسطة روسيا على كمية من المطاط والتوتياء . وذكرت الاميرالية الالمانية في تقرير بصدد الاتفاق ان الالمـان يستطيعون التدخل متى شاؤوا ما دام الخشب الروسي سينتقل من ميناء مورمنسك على سفن محايدة ، وما داموا يملكون حرية الدخول الى الميناء .

وفي السابع عشر من تشرين الاول اعلنت الحكومة الالمـانية ان اصلاح السفن الحربية الالمانية وتسليح المدرعـات المساعدة في الموانىء الروسية غير مرغوب فيها لاسباب سيـاسية وعسكرية . على ان الاستعداد للحصول على قـاعدة في الشمال ظل مستمراً . وطلب الملحق البحري في موسكو الكف عن التجسس على روسيا مراعاة لشعور السوفيـــات . وفي الرابع والعشرين ابلغ السفير الالماني حكومته ان الحكومة الروسية ستفي بتعهدهـــا للرايش ولن تسمح لسفن فرنسية او انكليزية بالمرور عبر المضائق ولا باتباع تركيا سياسة معادية لالمانيا . وبعد يومين رفع رئيس قسم الاعمال البحرية التقرير التالي : « تعتبر معونة روسيـــا الاقتصادية عظيمة الاهمية لنا . وقد اظهر الروس نحونا كرمـاً مماثلاً . » وفي الحادي والثلاثين من الشهر ذاته اعلن مولوتوف ان الصداقة الالمانية الروسية ستكون طويلة الامد . وحمل بعنف على انكلترا لمضيها في فرض الحصار البحري ، مخالفةً القوانين الدولية . وفي الثـاني من تشرين الثـاني زار مفوض الشعب

السوفياتي للشؤون البحرية المانيـا . واكد للاميرال ريدر الذي استقبله ان جوابه لن يكون كلمات ودية فحسب ، بل افعالاً . وكان اول هذه الافعال ان البارجة الالمانيـة بريمن التي التجأت في الثاني عشر من كانون الاول الى مورمنسك خرجت من مصب نهر ايلب . وكان ذلك تحدياً بل هزيمة للاسطول البريطـاني . واعلنت الاميرالية البريطانية يومذاك ان للروس الفضل في نجاة البارجة .

وكان الالمان ، عند نشوب الحرب ، قد اوقفوا بناء البوارج ليتفرغوا لصنع الغواصات ، فتركوا هياكل للبوارج في احواض بناء السفن . فعرض الروس عليهم شراءها ليكملوا صنعها بمعونة الخبراء الالمان . واختاروا هيكل البارجة لوتزوف وابراج بارجتين عظيمتين كانتا في طور البناء . فلم تعارض الاميرالية الالمانيـة واوصت باجابة الروس الى مطلبهم .

وفي الخامس والعشرين مـــن تشرين الثاني بعد ان درست الحكومة الالمانية الموقف من جميع وجوهه ، قررت ان موقف روسيا ما يزال مرضياً . وذكرت الاميرالية في احد تقاريرها ان ضغط روسيا يساعد عـــلى التزام دول اوروبا الشمالية والجنوبية الشرقية الحياد . ورأت ان موقف روسيا لن يتبدل على الارجح ما دام ستالين حياً ، حتى لو تبدلت سياسة الكرملين فـلا خطر على المانيا قبل وقت غير قصير لان توطيد اركان النظام الشيوعي في روسيا ضروري قبل ان يقدم ساسة موسكو على اية مغامرة حربية . وهكذا خرجت الاميرالية من فحص العلاقات الروسية ـ

الالمانية منذ عقد ميثاق عدم الاعتداء ، بنتيجة مرضية وقالت بضرورة المضي في التحالف مع الاتحاد السوفياتي . ولم تكن وزارة الخارجية الالمانية اقل منها تحمساً ، وشاركتها في هذا القرار الدوائر الاقتصادية . وكان الرأي السائد ان التحالف مع روسيا يخرق الحصار البريطاني ويجنب الرايش خوض غمار الحرب على جبهتين . ولكن تحت هذه الحقيقة التي تثبتها الوثائق الرسمية الالمانية ، كانت حقيقة اخرى اعمق لم يهملها هتلر الذي ما كان ليعدل عن اهدافه ، وهي التوسع نحو الشرق . وتوقع الغازي ان يصطدم هذا التوسع بمعارضة روسيا . وقد اعترف في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ١٩٣٩ امام قادته (كما يذكر القارىء) ان مطامع الروس في الخليج الفارسي والبلقان تقطع على المانيا حبل اهدافها السياسية . وقال لهم ان الروس لا يحترمون ميثاق عدم الاعتداء الا بقدر ما يعود عليهم من الفوائد ، ولوّح لهم بان اصطداماً بين المانيا وروسيا لا بد منه في النهاية . وكان هتلر قلقاً لما يجري خلف الستار الحديدي الذي ضربه الروس على القسم الذي استولوا عليه من بولونيا .

قال كايتل : « سرعان ما اصبحت الحالة حرجة في بولونيا . فقد كان الروس لا ينفكون يقومون بجولات جوية كشفية فوق منطقتنا . وكنا بدورنا نرسل اسراباً للاستطلاع من على ارتفاع عظيم . واظهرت الصور التي استطاع طيارونا التقاطها ان الروس حشدوا جحافل جرارة ، وشقوا طرقاً صالحة للاعمال الحربية ، وانصبوا على انشاء سلسلة من المطارات لا تبعث على الارتياح .

اما نحن فلم نكن نملك قوات تذكر في بولونيا لان معظم جيوشنا كان على الجبهة الغربية . وكانت علاقاتنا الاقتصادية بروسيا غير مرضية تماماً . ولم يحترم الروس بنود ميثاق موسكو وراحوا يبعثون الينا بوفود اقتصادية تطالبنا دائماً بالمزيد من التضحيات وتتسقط في الوقت ذاته اخبارنا وتستعلم عن استعداداتنا العسكرية واحوالنا جميعاً . وقد ضاق الفوهرر بهذا ذرعاً . »
ولكن لم يكن لهتلر غنى عن الصبر . فقد كان يحمل اعباء القتال في الغرب .

وكانت الحرب الروسية الفنلندية التي بدأت في الثلاثين من تشرين الثاني ، مستمرة . وقد خدعت العالم واظهرت له قوة روسيا العسكرية على غير حقيقتها ، لا لان الروس تعمدوا الظهور بمظهر المنكسر امام جيش صغير – كما ظن كثيرون وما يزالون يظنون – بل لان الميدان الذي اشتبكوا فيه بالقتال بناء على خطة مرتجلة ، لم يكن ذلك الميدان الذي أعد له جيشهم الجرار . ولم تساعد المانيا احد الطرفين المتحاربين ، ولكنها راقبت الحالة ودرستها لتستنتج منها ما يفيدها للمستقبل . وفي الحادي والثلاثين من كانون الاول ١٩٣٩ رفعت هيئة قيادة الجيش الالماني التقرير التالي في صدد قوة روسيا العسكرية : « الجيش السوفياتي في جملته آلة حربية جبارة . وكل ما فيه من القوة يرتكز على الكثرة . اما تنظيمه واجهزته واساليب قيادته فهي رديئة . ولئن تكن مبادىء القيادة جيدة فان هيئة القيادة نفسها فتية ، قليلة التجربة . وليست كفاءة جميع الجيوش متعادلة . والملاكات بحاجة

الى شخصيات عسكرية مدربة . والجندي السوفياتي قوي يحتمل المشقات ، ومن ابرز صفاته القناعة . اما قيمة الجيش الروسي الحربية في قتال جدي فهي دون الوسط . ولا تعدّ الكتل البشرية والآلية الروسية ، في اي حال ، خصماً يضاهي جيشاً مجهزاً بالاسلحة والاعتدة الحديثة تقوده ايدٍ مرنة مدربة . » وقد رأى الفوهرر في هذا الحكم ما يؤيد رأيه . وكثيراً ما كان يقول ان الجيش الروسي ضعيف بسبب الازمة الداخلية في الاتحاد السوفياتي وان روسيا لا تشكل خطراً جدياً لبضع سنين اخرى .

واطل العام ١٩٤٠ ولم يكن في اوروبا من ميدان للقتال الفعلي سوى فنلندا . وكانت العلاقات الالمانية السوفياتية في مرحلة جمود مع ميل طفيف الى الفتور . وجدير بالذكر ان تهديد فرنسا وانكلترا للاتحاد السوفياتي لم يؤد الى توثيق التفاهم السياسي بين الرايش الالماني وروسيا ، بل ان التعاون البحري بينهما بدأ يلفظ انفاسه منذ ذلك الحين . وكان المسؤول عن ذلك هتلر . فقد منع عن الروس تصميم البارجة الالمانية الكبرى بيسمارك الذي وعدتهم به المانيا . واوصى بالمماطلة في بيع هياكل البوارج الالمانية . ومما قاله في السادس والعشرين من كانون الثاني ١٩٤٠ : « اذا دارت الحرب لمصلحتنا بالسرعة المطلوبة فقد نستغني عن هذه الصفقة مع روسيا . » واعترض كذلك على بناء الغواصات لحساب المانيا في المصانع الروسية ، وقال ان مصنوعات روسيا قد تكون رديئة وان من الواجب ابعاد كل ظن عن الاتحاد

السوفياتي بان الرايش يشكو اقل ضعف .

وكانت الحملة الالمانية على النروج كفيلة بتعكير صفو العلاقات الالمانية – الروسية ، لان المانيا قطعت على روسيا الطريق الى اسكاندينافيا الشمالية حيث للسوفيات مطامح معروفة . ولكن موسكو لم تحرك ساكناً ، واعلنت ان لا شأن لها في الامر . وذكرت الوثائق الالمانية ان الروس اظهروا في هذه القضية فهماً محموداً . ومن اعجب ما اقترحته هيئة القيادة البحرية على الفوهرر (الوثيقة ٤٠١٠٣) الا يحتل الالمان ميناء ترومسوي مؤكدين لروسيا انهم يحترمون مصالحها في هذه المنطقة . وكان الفخ محكماً لان هتلر لم يخف عن قادته رغبته في احتلال الميناء عندما تحين الفرصة .

وفي العاشر من ايار ١٩٤٠ بدأ الهجوم على فرنسا . وفي الحادي والعشرين ، يوم وصلت مصفحات غودريان الى مدينة ابفيل الفرنسية ، بعث سفير الرايش في موسكو شونبرغ بتقرير الى حكومته يعلمها فيه بان الانتصارات الالمانية لم تحدث رد فعل سيئاً في نفوس الروس . على ان السفير كان مبالغاً في تفاؤله او لعله كان متأثراً بسياسة وزير الخارجية فون ريبنتروب الموالية للاتحاد السوفياتي . والواقع ان ستالين رسم سياسته على اساس حرب طويلة . فلما وجد ان الالمان يختصرونها بضرباتهم السريعة المدهشة شعر بخذلان وقلق . ولم تخف هذه الحقيقة على بعض المراقبين الالمان فاثبتوها بعد حين . فقد كتب رئيس قسم الاعمال البحرية في الخامس من حزيران ما خلاصته : « تقدر

روسيا الانتصارات العسكرية الالمانية حق قدرها . ولكنها تخشى ان يتحول الرايش اليها فيهاجمها بعد ان يحرز انتصاراً حاسماً في الغرب . ويخشى الروس في الوقت ذاته ان ينتصر الحلفاء . ويبدو واضحاً انهم لا يحبذون هذا النصر . اما اشتراك روسيا في الحرب اشتراكاً فعلياً فليس موضع بحث . وستالين عازم على الا يضحي بنفسه وبلاده في سبيل الحلفاء . وهناك حقيقة اخرى تضطره الى التزام الحياد وهي ضعف روسيا العسكري وبعدها عن الاستقرار الداخلي . وسياسة موسكو الرسمية تجاه المانيا ما تزال ودية . ولكن بوادر رغبتها عن التعاون مع المانيا في الحقل الاقتصادي ذرت قرنها . ويفكر الروس ، بدافع من قلقهم على مستقبل علاقاتهم بالرايش ، بالتوسع في بلاد البلطيك . » وبعد خمسة ايام بعث الملحق البحري بالسفارة الالمانية في موسكو ، بتقرير يعلن فيه انه يشعر بفتور ظاهر من الجانب الروسي نحو الرايش وان روسيا تخشى ان يهاجمها الالمان بعد انتصارهم على الدول الغربية .

على ان الوفاق كان تاماً في الظاهر . وفي التاسع والعشرين من ايار رفضت الحكومة الروسية استقبال مندوب اوفدته الحكومة البريطانية ليفاوضها على عقد معاهدة تجارية . وفي الشهر التالي سافر ريبنتروب الى موسكو ليفاوض الروس في توسيع نطاق البنود الاقتصادية التي تضمنها ميثاق ٢٥ آب . وعاد والفوز حليفه بعد ان نجح في توقيع اتفاق تبادل تجاري عماده مليار من الماركات . وبعد ثمان واربعين ساعة فقط ابرق السفير الالماني

شونبرغ الى برلين معلناً ان الروس سيحتلون مقاطعة بسارابيا الرومانية في اليوم التالي . وتم ذلك في اليوم المعين وصادف العشرين من حزيران اي يوم وقع الفرنسيون الهدنة . ولم يحدث احتلال الروس لبسارابيا ضجة كبرى . على ان الرومانيين تحولوا الى المانيا طالبين نجدتها ، فاوصتهم بقبول الامر الواقع . وسكت هتلر على مضض . ومما قاله ريبنتروب في نورمبرغ في هذا الصدد : « لما سقطت بسارابيا في ايدي الروس قال لي الفوهرر : ان الروس يغتنمون الفرصة للتوسع على حسابنا . ولكنني لن ادع لهم الحبل على الغارب . وما وقعت معهم الميثاق الا استعداداً لحرب طويلة . اما وقد تبين ان الحرب قصيرة النفس ، فلم تبق بي حاجة الى هذا الميثاق . »

وانكشفت الحقيقة ساطعة ، وتبين ان انتصار هتلر في الغرب فكك اوصال التحالف الروسي الالماني . وبدأ النزاع بين الخصمين الاكبرين منذ هزيمة الفرنسيين والانكليز في دنكرك . على ان هتلر اخفى خطته بمهارة . وفي الرابع من حزيران صرّح في مؤتمر عسكري بان انتصار الرايش على فرنسا سيؤدي الى تسريح بعض فئات المجندين القديمة . ولم يشر الى روسيا بكلمة . وفي الحادي والعشرين من تموز عقد مؤتمراً عسكرياً آخر قال فيه : « يبدو لي ان روسيا لا تفكر في خوض الحرب ضدنا على الرغم من ان انتصاراتنا تقلقها . ولكن من واجبنا ان نزن الخطر الروسي والخطر الاميركي بميزان الحقائق ، والا نبالغ في التفاؤل لان الحذر محمود . ولا شك في ان من مصلحة المانيا ان تكون

الحرب قصيرة . ولكن هذا ليس فرضاً لا نحيد عنه اذا اكرهنا تطور الموقف على غير ما نشتهي . وبعد ، فالمواد الاولية والمؤن مضمونة لنا . اما مواردنا من الوقود والقوى المحركة فستظل مضمونة ما دامت الشحنات الروسية والرومانية من الزيت تصلنا ، ومولدات الطاقة الكهربائية عندنا في مأمن من الغارات الجوية . »

وتلبد الجو السياسي بالغيوم . فقد احتل الروس بلاد البلطيك واستولوا على بسارابيا وبيكوفينا في رومانيا . وامتدوا فبسطوا ظلهم على اوروبا الشرقية . واغضب هذا التطور السريع الالمان وشعروا بان الروس افادوا كل الفائدة من الحرب بدون ان يفقدوا رجلاً او يطلقوا رصاصة ... وكانت انكلترا تتابع الحالة بيقظة وانتباه . وما وسعها ان ترد على الحملات العنيفة التي كان مولوتوف يشنها عليها في خطبه . واوفدت الى موسكو سفيراً انتقته من كبار رجالها السياسيين المحنكين ، هو ستافورد كريبس . فقابل ستالين . وشعر الالمان بعقارب الغيرة والقلق تلدغهم . على ان وزارة الخارجية الالمانية سعت الى بث الطمأنينة ، وعللت ، في الثالث والعشرين من تموز ، مقابلة ستالين — كريبس على الوجه التالي : ثبت ان محاولة الانكليز فصل روسيا عن المانيا قد فشلت فشلاً ذريعاً لان الروس لا يرون في انتصارات الرايش خطراً عليهم . وما تزال علاقات دولتينا مبنية على اساس مصالحها المشتركة . ولا تقبل روسيا مطلقاً بان يتدخل الانكليز في تجارتها الخارجية . وليس لدولة ان تستأثر بادارة شؤون دول البلقان وما ادعى

الروس يوماً هذا الحق . ثم ان الاتحاد السوفياتي لا يرضى عن احتكار تركيا السيطرة على البحر الاسود والمضائق . »

وفي آب لم يكن التعاون البحري الروسي – الالماني مقضياً عليه تماماً . فقد ابحرت سفينة شحن المانية لم يعرف محمولها ، وهي « السفينة ٤٥ » ، الى الشرق الاقصى من طريق الممر الشمالي الشرقي وحول سيبيريا . ولكن اسساً رئيسية من هذا التعاون كانت قد انهارت . من ذلك ان الرايش عدل عن تسليم هياكل سفنه الحربية الى روسيا ، وامتنعت هذه من اعارته قواعدها . ولا غرو فقد كانت المانيا سائدة على الساحل الشمالي الممتد من ترومسوي الى هانداي ولم تبق بحاجة الى ميناء مورمنسك الروسي .

وكان هتلر قد بدأ بالاستعداد للطوارىء . وفي الثالث عشر من نيسان امر بتحصين مضائق النروج الشمالية لاحباط كل هجوم روسي محتمل . وبدأ يهتم بفنلندا التي طلبت نجدته بعد ان شعرت بان الخطر الروسي يجثم عليها من جديد . وفي العشرين من آب حللت هيئة قيادة البحرية الالمانية مطامح الروس السياسية كما يلي : « الاستيلاء على مرفأ لا تتجمد مياهه في شمالي الاطلنطيك . التوسع في البلقان لاحتلال المضائق التركية والسيطرة على البحر الاسود . الامتداد الى العراق في اتجاه الخليج الفارسي . الضغط على فنلندا . بث الدعاوة للوحدة السلافية في بلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا . اثارة الاضطرابات في اليونان . ولا ينتظر ان تتوسل روسيا بالسلاح لتحقيق اغراضها هذه . ويتوقف سلوكها على تطور

الاحداث الدولية . »

وحوالى هذا الوقت ذاته (اواخر آب او اوائل ايلول) استدعى هتلر القادة الثلاثة كايتل وجودل ووارليمونت . وهذا ما قالوه في نورمبرغ عن تلك المقابلة : « سألنا الفوهرر ان نفكر ملياً في حرب ضد روسيا وامرنا بالكتمان الشديد . » وقال كايتل : « لم يكن الهجوم على روسيا في خريف ١٩٤٠ ممكناً لسبب جوهري هو ان قواتنا التي حاربت في بولونيا ثم نقلت الى الغرب فربحت المعركة ، ما كانت لتستطيع تحمل قتال جديد في الشرق يحتاج الى استعداد تام من اعادة تجهيز واستكمال وسائل . »

كان ما يطلبه هتلر خطيراً . فالهجوم على بلاد شاسعة واسعة كالاتحاد السوفياتي مغامرة فيها حياة او موت . وقد اجمع القادة الثلاثة في نورمبرغ على الاعتراف بان قلقاً عظيماً ساورهم لما طلب اليهم الفوهرر الاستعداد لمحاربة روسيا . وادعى وارليمونت انه استوضح ريبنتروب عن حالة العلاقات بين الرايش والاتحاد السوفياتي ، فاجابه مؤكداً انها حسنة وان في النية توسيع نطاق ميثاق التعاون المعقود في موسكو .

وبدأ توزيع الجيوش الالمانية . وكان هتلر قد اوصى به بامر اصدره في الثاني والعشرين من حزيران . واخذت القوات الظافرة تعود الى الشرق من الغرب حيث احرزت انتصاراتها الاولى . وجهزتها القيادة الالمانية باسلحة واعتدة جديدة وابدلت ما ابلته المعارك من آلاتها واسبابها الحربية . وفي السجل الاول

لوثائق هيئة قيادة هتلر العليا الامر التالي الصادر في السابع والعشرين من نيسان : « تنقل عشر فرق من المشاة وفرقتان مصفحتان الى الاراضي الخاضعة للرايش استعداداً لعمل عسكري غايته حماية آبار البترول الرومانية . » وما كانت دولة تهدد هذه الآبار غير روسيا التي اقتربت منها بعد ان احتلت بيكوفينا وبيسارابيا الرومانيتين .

وفي الثاني عشر من ايلول ، ابلغ الملحق العسكري بالسفارة الالمانية في موسكو حكومته ان موقف روسيا من المانيا الذي اعتراه الفتور بعض الشيء عاد الى سابق طابعه الودي لاسباب مجهولة . ونفت وزارة الخارجية الالمانية بدورها الاخبار القائلة ان عداء روسيا للالمان يزداد . على ان تقارير اخرى المانية ذكرت ان الدعاوة ضد المانيا منتشرة في الجيش الاحمر وان في الاتحاد السوفياتي استعداداً عسكرياً ناشطاً .

وفي السادس والعشرين من ايلول قابل الاميرال ريدر الفوهرر واستعرض معه الموقف . ورأى الرجلان ان احتلال قناة السويس والزحف الى فلسطين فسوريا يجعلان تركيا تحت رحمة الرايش ويحدوان روسيا الى تثبيت موقفها من المانيا واجتناب الاعتداء مجدداً على فنلندا ، وبالتالي يوفران على الالمان مهمة حماية الفنلنديين . ومما قاله هتلر : « اظن ان روسيا تخاف المانيا . ولا اتوقع ان تجري اعمال حربية في فنلندا هذا العام . وجدير بنا ان نحول انظار الروس الى ايران والهند ليجدوا هناك مخرجاً الى المحيط اهم من مركزهم في البلطيك . »

وتم توقيع الميثاق الثلاثي بين المانيا وابطاليا واليابان في السابع والعشرين من ايلول . وكان لتحالف هذه الدول الكبيرة الثلاث المعروفة بعدائها للشيوعية ، وقع شديد الوطأة على الاتحاد السوفياتي . ولكن الروس تعمدوا السكوت كيلا يثيروا اي شك في نياتهم ، بل امعنوا في التستر فاعلنوا انهم مرتاحون لهذا الميثاق لانه يعترف بحيادهم التام . وفي الحادي عشر من تشرين الاول دخل الالمان رومانيا وحدث ما وصفه السفير الالماني في موسكو بانه انهيار جزئي للروابط الالمانية السوفياتية . واصطدمت مطامح الدولتين في مدى توسع كل منها ، وزاد في الطين بلة حوادث الحدود في بولونيا وقد كثرت في تلك الاونة .

وشعر ريبنتروب بالتوتر يدب الى علاقات الرايش بروسيا فسعى الى تنقية الجو واقترح على الفوهرر ان يجتمع بستالين . قال ريبنتروب في نورمبورغ : « لما عرضت على الفوهرر ذلك دهش وقال لي : يبدو انك تحلم . انك لا تجهل ان ستالين لا يأتي الى برلين . أوتريد مني ان اذهب الى موسكو ؟ » واستطعت ان احصل من الفوهرر على اذن بان اكتب الى ستالين طالباً اليه ايفاد مولوتوف الى برلين . » وكانت تلك الزيارة من اهم احداث الحرب الديبلوماسية . ووصل مولوتوف الى العاصمة الالمانية في العاشر من تشرين الثاني ، فاستقبل استقبالاً عظيماً . وانقذت الظواهر وسترت الحقائق وبدت الدولتان كاصدق الاصدقاء . وظهرت الصحف الالمانية والروسية تزين اولى صفحاتها برسوم ريبنتروب وموتولوف وهما على اصفى ود واصدق ولاء .

ووصفت الوثائق السياسية الالمانية نتيجة رحلة مولوتوف الى المانيا بالمرضية . وذكرت الوثيقة ١٥١٩٩ ان روسيا ابدت استعدادها للانضمام الى الميثاق الثلاثي بعد حسم بعض القضايا ، وهذا ملخصها كما ذكرت في الوثيقة :

جس مولوتوف نبض الالمان فيما يتعلق بفنلندا فثبت له انهم لا يقبلون بان تضم الاراضي الفنلندية الى روسيا ، ولكنهم مستعدون للتساهل . واطلعت الحكومة الالمانية مولوتوف على اعتزامها الهجوم على اليونان لمساعدة ايطاليا ، فايدها وطلب اعتراف المانيا بنفوذ روسي في بلغاريا شبيه بنفوذ الالمان في رومانيا فوافقت حكومة الرايش . اما المضائق التركية فقد اعلن الالمان انهم يدركون حق الادراك رغبة الروس في الحصول على قواعد فيها ، ولا يعترفون بسيطرة الاتراك على الدردنيل سيطرة مطلقة ، ويؤيدون روسيا في مطالبتها بولاية قارص . واعلن الالمان اخيراً انهم يغسلون ايديهم من ايران ، وتعهد الروس بحل مشاكلهم مع اليابان .

وهكذا يبدو ان نتيجة زيارة مولوتوف لبرلين كانت شبه اتفاق على القضايا الحيوية التي تهم الطرفين ، وان الدولتين وجدتا متسعاً للفتوحات كافياً لاجتنابها الاصطدام او على الاقل لتأجيله . الا ان الحقيقة العميقة كانت غير ذلك . وقد اتضحت من اعترافات نورمبرغ ووثائقها . قال كايتل : « قلق الفوهرر لمطالب مولوتوف . فقد كانت روسيا تنوي الهجوم على فنلندا لاحتلالها باسرها والتوسع في البلقان والدردنيل . ووجد هتلر في

ذلك حركة واسعة لتطويق المانيا . وزاد في قلقه تلك الاخبار الرسمية التي تلقاها عن ازدياد نشاط الاتحاد السوفياتي في الحقل العسكري وعن اتساع نطاق الصناعة الحربية الروسية . »

واستخلص هتلر من كل ما تقدم ان الروس يسعون الى ضرب حصار على المانيا . وكان رده سريعاً . ففي الثامن عشر من كانون الاول ١٩٤٠ ، اي بعد ثلاثة اسابيع من زيارة مولوتوف ، حرر هتلر امره ذا الرقم ٢١ المعروف بخطة باربروس والذي اصبح وثيقة من اهم وثائق الحرب العالمية الثانية والتاريخ ، معروفة في محكمة نورمبرغ بالوثيقة ٤٤٦ ب . س . وهي تقع في ثماني صفحات وتبدأ كما يلي : « من الواجب ان يصبح الجيش الالماني قادراً على سحق روسيا في حملة قصيرة . وعندما تقتضي الحال تنفيذ ذلك ساصدر اوامري بحشد الجيوش قبل ثمانية اسابيع على اقرب تقدير من بدء العمل . اما الاستعدادات التي تقتضي زمناً اطول فيجب ان تبدأ حالاً لتتم قبل الخامس عشر من ايار . وينبغي لجميع من لهم علاقة بهذا العمل ان يتكتموا ويأمروا بالكتمان خوفاً من اثارة الشك . »

ويلي المقدمة تفصيل لآراء الفوهرر في طرق تسيير الحملة ، وهذا هو : « ينبغي لنا الاهتمام بتحطيم القسم الاعظم من الجيوش الروسية بهجمات سريعة مفاجئة تشنها الدبابات والفرق الآلية كيلا يتاح لها الانسحاب سالمة الى الاصقاع البعيدة الفسيحة . ومتى تم الزحف بسرعة تيسر لقواتنا ان تبلغ خطاً يجعل السلاح الجوي السوفياتي عاجزاً عن تسديد ضربات الى اراضي الرايش الالماني .

والهدف الاول الذي ينبغي لنا بلوغه هو حماية المناطق الواقعة غربي الخط العام الممتد من الفولغا الى اركانجيل ، من غارات روسيا الاسيوية . واذا اقتضى الامر وجب على السلاح الجوي الالماني تحطيم آخر منطقة صناعية روسية وهي الاورال . ولما كانت مستنقعات بريبيت تقسم ميدان الاعمال الحربية قسمين ، فسيكون القسم الاعظم من جيوشنا محتشداً في شمالي هذه المستنقعات ولن يقل عن مجموعتين من الجيوش . وعلى مجموعة الجيوش العاملة في جنوبي هذا الحشد ان تبيد قوة الجيش الروسي وتقضي على مقدرته الحربية . اما المجموعة الشمالية فمهمتها الاستيلاء على لينينغراد وكرونشتاد . وبعد الفراغ من هاتين المهمتين تحتشد قواتنا للهجوم على موسكو مركز المواصلات والتسلح الرئيسي ، فتستولي مجموعة جيوشنا العاملة في جنوبي مستنقعات بريبيت على اوكرانيا . ولا يمكننا بلوغ هذه الاهداف الا بالقضاء قضاء تاماً على مقدرة الروس الحربية ومنعهم من التكتل . اما جانبانا فتحميها فنلندا ورومانيا . »

ومن عجائب الصدف حقاً ان نرى الرجال الثلاثة الذين هاجموا روسيا في العصور الحديثة ، من ارباب الفن العسكري الافذاذ . فقد كانت خطة شارل الثاني عشر جيدة ، وكانت خطة نابوليون محكمة ، وكذلك كانت خطة هتلر . ولئن يكن الامر ٢١ لا يتضمن سوى مبادىء عامة للهجوم على روسيا ، فان هذه المبادىء صحيحة تقليدية قوية . وقد ادرك هتلر المصيبة الكبرى التي سيجابهها في روسيا الا وهي سعة الاراضي ، فاوصى ،

اول ما اوصى به ، بالقبض على الجيش الروسي قبل ان يتمكن من الانسحاب والالتجاء الى تلك الاصقاع الواسعة الشاسعة التي لا تحدها الابصار . ولم يطلب هتلر الى جيوشه التغلب على العدو ودحره ، بل اصرّ على وجوب ابادته . وهذا ما اوصى به شارل الثاني عشر ونابوليون . ولا شك في ان الغازي الالماني درس حملتي هذين الفاتحين وادرك سبب اخفاقهما الجوهري وهو انهما عجزا عن القبض على العدو ومحقه لان سعة القارة الروسية العظيمة كانت اقوى منهما ، فوقفا دونها عاجزين كليلين . اما هو فقد كان يملك السلاح الفتاك الكفيل بالقضاء على المسافات ، اعني به السرعة . وكان واثقاً بان حركة التطويق على شكل كلابة (تلك الحركة التي عجز جيش شارل الثاني عشر البطيء عن تحقيقها ، والتي اخفق جناحا جيش نابوليون العظيم عن القيام بها بالسرعة المطلوبة) ممكنة بفضل الدبابات الالمانية السريعة فيطبق طرف كل كلابة على جماعة من الجيش الاحمر قبل ان يستطيع الافلات وتعصرانه عصراً . وكان الغازي الالماني قد رسم خطته على اساس اختراق قلب الجيش الروسي واستدراك تراجع العدو بزحف سريع بعيد النفس يتولاه القسم الاكبر والأسرع من الجيش الالماني ويقوم في اثناء تقدمه بعدة حركات التفاف على العدو فيحصره ويبيده . اما الهدف الجغرافي فقد احتل المقام الثاني في خطة هتلر . ولما اقترح عليه هالدر ان تكون اهداف الحملة الرئيسية على روسيا احتلال اوكرانيا وموسكو ولينينغراد ، اجابه بصراحة ان الهدف الاول والاهم

هو منع الجيش الروسي من الانسحاب الى جبهة خلفية منظمـة ، وابادته .

وعهدت الى فون بوك قيادة الجيوش الالمانية التي تشكل قلب الهجوم وسهم الاختراق ، وخصته القيادة العليا بالقسم الاعظم من المصفحات والدبابات ، ووضعت تحت تصرفه الجيش الجبار الذي اخترق جبهة سيدان في الغرب . على ان الخطة قضت بان ينقسم هذا الجيش بعد شق الجيش الروسي ، فيوزع على مجموعتي الجيوش اللتين تشكلان جناحي الحملة الالمانية . وتساعد ميمنته فون ليب في الاستيلاء على لينينغراد وتدعم ميسرته فون رونشتيد في فتح اوكرانيا . امـــا القسم الاوسط من جيش فون بوك فيتوقف امـــام موسكو الى ان يبلغ جيشا ليب ورونشتيد اهدافهما ، فتقوم جميع الجيوش الالمانية بهجوم اجمـــاعي مثلث الشعب على العاصمة السوفياتية .

وعلى هذا كانت ا ب الالمانية — الروسية ، كما اعدها هتلر ، حدث عمل حربي ـد الى السرعة والمداورة والمفاجأة . وكان الغازي يريدها معركة واحدة فاصلة ليجتنب الالتحام مع الجيش الاحمر الكثيف وجهاً لوجه في معارك جبهية طويلة . وقد اعتمد على ضربته الاولى فارادها اقوى مـا تكون تسديداً الى مقتل العدو . ولكن امرين تغلبـــا على هتلر : اولهما تسلسل خطوط الدفاع الروسية وتباعدها وتغلغلها في المؤخرة بشكل تعدى مـا حسبه . وثانيهما طبيعة الاراضي الروسية ومناخها ...

ولكن هتلر احتاط في امره ٢١ للطوارىء والتقلبات السياسية

المحتملة فقال في المقطع الاخير : « ليكن معلوماً ان جميع الاوامر التي سيصدرها القادة الاعلون استناداً الى ارشاداتي هذه ليست سوى تدبيرات احتياطية ، ولن تنفذ الا اذا بدلت روسيا موقفها منا . ومن الواجب ان يكون عدد الضباط المكلفين تحضير الترتيبات المطلوبة في بادىء الامر ضئيلاً جداً ، على ان يعين الضباط الآخرون اللازمون لاستكمال الاستعداد في ابعد موعد ممكن ، وذلك زيادة في الكتمان . »

ولم يكن هذا المقطع من قبيل الاحتياط البحت . ففي كانون الاول ١٩٤٠ لم يكن هتلر قد اتخذ قراراً نهائياً بالهجوم على روسيا قبل اخضاع انكلترا . وكان يفكر في جبل طارق وافريقيا الشمالية وجزر الاطلنطيك كما اسلفت ذكره . وتردد بين الغرب والشرق ورسم خططاً لكلا الجبهتين . على ان روسيا اجتذبته كأسلافه من الغزاة الفاتحين . ولا غرو ، فالشرق كان وما يزال مطمح الانظار ومورد الثروات الطبيعية . وقد كان شارل الثاني عشر ملك اسوج سنة ١٧٠٧ في حالة شبيهة بحالة هتلر . ولما دخل الدوق دي مارلبروغ — الذي اوفدته انكلترا اليه لحمله على فسخ حلفه مع فرنسا — الى مكتب الملك ، رأى خارطة لروسيا ، فقال : « لعمري ان روسيا ميدان قتال ليس في العالم اوسع منه لفاتح عظيم كجلالتكم . » وقد يكون الملك قد تأثر بهذا القول . اما هتلر فلم يكن حوله من يحرضه على غزو روسيا . بل ان من تجرأ من رجاله ، ولم يكونوا كثيرين ، على اسدائه النصح حاولوا ان يثنوه عن الحملة الروسية

ففشلوا كما فشل كولانكور مع نابوليون . ومن مساعيهم المعروفة اعتراضات الاميرال ربدر في السابع والعشرين من كانون الثاني على غزو روسيا . فقد قال قائد البحرية الاعلى (كما جاء في محضر الجلسة) ما خلاصته : « انني ارى ضرورياً حشد جماع جهودنا ضد عدونا الرئيسي انكلترا لانها حسنت مركزها بسبب فشل الحملة الطليانية على شرقي البحر الابيض المتوسط وبفضل مساعدة الولايات المتحدة الاميركية ، ولان في استطاعتنا ان نصيب منها مقتلاً بقطع مواصلاتها عبر المحيط والبحار . واری ان ما نبذله من الجهد لبناء الغواصات والطيارات غير كاف ، بينما تقتضي الحال حشد جماع قوانا لمحاربة الانكليز . وكل ضعف يصيب جهازنا البحري والجوي يطيل امد الحرب ويبعدنا عن النصر النهائي . ولذا ارى من واجبي الاعتراض على اشعال نار الحرب مع روسيا قبل ان نهزم انكلترا . »

واجاب الفوهرر على هذا قائلاً : « ان نسبة انتاج الغواصات (من ١٦ الى ١٨ غواصة في الشهر) ضئيل حقاً . ولكن على المانيا ان تتغلب على آخر عدو في القارة قبل ان تتحول الى انكلترا لتصفي الحساب معها وان ذلك يقتضي تجهيز الجيش بالاسلحة والعتاد اللازمة اولاً ، وبعدئذ توجه المانيا اهتمامها نحو تعزيز الاسطولين البحري والجوي . »

كانت انكلترا في اواخر ١٩٤٠ ومطلع ١٩٤١ في منتهى الضعف ، تئن تحت ضربات السلاح الجوي الالماني الذي نهك قواها واصابها في صميم صناعتها بجراحات ثخينة . ولكنها لم تلن

ولا اظهرت ميلاً الى انهاء الحرب . وادهش موقفها هذا هتلر ولكنه ايقن انها تنتظر المعونة وتطمع في بحير . ولم يكن يعتقد ان المساعدة الاميركية ، وكانت يومذاك بطيئة ، كل ما يعتمد الانكليز عليه ، بل رأى ان ما من قوة عسكرية حقيقية تستطيع انكلترا الاتكال عليها غير قوة الاتحاد السوفياتي . وقد اعترف غورنغ وكايتل وجودل وريبنتروب بهذه الحقيقة في نورمبرغ واجمعوا على القول : « ان هتلر ايقن منذ ١٩٤١ ان بين انكلترا وروسيا اتفاقاً سرياً وان هذا الاتفاق وحده يبرر مقاومة الانكليز العنيفة البائسة ويدفعهم الى المضي في قتال لا امل لهم فيه . » وعلى هذا استنتج ان التغلب على روسيا معناه استسلام انكلترا .

وفي الثامن من كانون الثاني ١٩٤١ صرح هتلر للاميرال ريدر قائلاً : « ان ما يحول دون انهيار انكلترا املها بتدخل الولايات المتحدة الاميركية وروسيا . وليست اغراض الانكليز من مساعيهم السياسية في موسكو بخافية عليّ ، فهي تأليب الروس علينا . وليس ستالين بالذي يركن اليه . ولا يخفى ان تدخل الروس والاميركيين سيكون ثقيل الوطأة علينا . فينبغي لنا ان نخنق الخطر في المهد . »

وذكر كايتل سبباً آخر دفع هتلر الى مهاجمة روسيا فقال : « كان جيشنا البري بدون عمل . ولم يبق لنا في القارة من عدو بعد ان اخضعنا فرنسا الا الشيوعية عدوة الوطنية الاشتراكية . فرأى الفوهرر الفرصة سانحة لتصفية الحساب مع

البلشفية . وكان يقول انه ، بعد الفراغ من الحملة على روسيا ، سيسرح قسماً كبيراً من جيوشنا البرية ويواصل الحرب معتمداً على الاسطولين البحري والجوي . »

واتخذ هتلر قراره النهائي في صدد روسيا في شباط كما اكد ذلك غورنغ في اعترافه ، قال : « اعلمني الفوهرر بانه عازم على ابعاد خطر هجوم روسي محتمل على المانيا بصورة نهائية . وبيّن لي خمسة اسباب دفعته الى اتخاذ هذا القرار وهي :

« اولاً – كان احتشاد الجيوش الروسية في بولونيا يزداد بدون انقطاع .

« ثانياً – ثبت ان الاسراب الجوية السوفياتية المتجمعة في غربي روسيا في ازدياد مطرد .

« ثالثاً – كانت الاخبار التي تتلقاها هيئة القيادة العامة عن نشاط المصانع الحربية في روسيا تبعث على القلق العظيم .

« رابعاً – ضاعفت روسيا ضغطها الاقتصادي على الرايش .

« خامساً – فضحت طلبات مولوتوف المتعلقة بفنلندا والبلقان التي قدمها لما زار برلين ، نيات الاتحاد السوفياتي ودلتنا على ان هناك خطة للتوسع ولتطويق الرايش معاً .

« وسألت الفوهرر ان يدع لي فسحة للتفكير . وفي اليوم التالي بينت له اعتراضاتي ، فانصت اليّ بانتباه . ولفتُ نظره الى اننا مشتبكون بدولة كبيرة هي بريطانيا وان دولة اخرى كبيرة لا بد من ان تدخل الحرب عاجلاً او آجلاً ، عنيت الولايات المتحدة ، وافهمته ان من الخطأ ان نثير علينا دولة كبرى ثالثة .

ولم اكن لأشك بان جيوشنا قادرة على دحر الجيوش الروسية ، ولكنني بينت ان احتلال بلاد واسعة كبلاد الاتحاد السوفياتي عبء ثقيل جداً يضعف قوتنا على مرّ الايام . واسترعيت نظر هتلر الى ان اشتباكنا في حرب مع روسيا يكرهنا على توقيف غاراتنا على انكلترا او تخفيفها في وقت بدأت فيه تؤتي ثمارها واخذ العدو بالانهيار . وعرضت خطة مخالفة لخطة الفوهرر تقضي بتعزيز ميثاقنا مـع الاتحاد السوفياتي وتوجيهه نحو التعاون العسكري الفعال واطلاق روسيا على الهند . فاجابني الفوهرر بان ادخال الشيوعية الى الشعوب التعسة الجائعة في الهند مسؤولية كبرى لن يتحملها ابداً ... وعبثاً حاولت ان اثنيه عن عزمه فما كان ينثني . »

وفي الثالث من شباط ١٩٤١ عقـد في برلين مجلس حربي تضمنت وثائق نورمبرغ محضره تحت الرقم ٨٧٢ ، وحضره هتلر وكايتل وجودل وبراوشيتش وهالدر وبعض ضباط اركان الحرب . ورسم هالدر صورة سطحية للجيش الاحمر ، فقدر قواته بمائة فرقة مشاة ، وخمس وعشرين فرقة خيالة ، وما يقارب الثلاثين من الفرق المصفحة . واستطرد فقال : « يضاهي جيشنا الجيش الاحمر عدداً ، ولكنه يفوقه في القوة والدربة والتنظيم بمراحل . وتملك فرق المشاة الروسية عدداً كبيراً من الدبابات . الا ان هذه السيارات رديئة . واذا كانت المدفعية السوفياتية وفيرة فان معداتها واجهزتها وقيادتها ادنى من مستوى مدفعيتنا . اما اعمال التحصين في روسيا فهي في تقدم محسوس . ونحن نجهل خطط

الروس وطرق قيادتهم الفنيـة . ولكن احتمال تراجعهم في اوكرانيا وبلاد البلطيك ضئيل لان هذه المناطق حيوية لروسيا . »

وهكذا عزم الغازي الالماني عزماً اكيداً على ضرب روسيا ، واختمرت الفكرة في رأسه . ولم تكن انكلترا تعرف انها نجت . ووقفت ، والخوف يملأ جوانحها ، تنتظر ان يغزو الالمان جزرها . وما كان رجـال الحرس الوطني الانكليزي يغمضون جفونهم الا على خيالات المظليين الالمـــان والدبابات الهتلرية يهبطون عليهم لينتزعوا هذه الجزر التي تمسكوا بها تمسك الغريق بحبل النجاة . وكان الالمان من جهتهم يزيدون العالم اعتقـاداً بان غزو انكلترا بات على الابواب . وامعن هتلر في الخديعة فـامر بان يشاع ان احتشاد الجيوش الالمانية في الشرق لم يكن الا خدعة لايهـام الانكليز ان المانيا على وشك اجتياح روسيا . وقـال لقواده : « اريد ان تكون خطة باربروس (اي الهجوم على روسيـا) اكبر مفاجأة عرفها التاريخ . »

وكانت الاحداث السياسية تتعاقب على كرّ الايام . وسجلت وثائق نورمبرغ بوادر متتابعة لتوتر العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والرايش . ومـا كان ليخفى على الرقيب النبيه ان التعاون الالماني ــ الروسي مات ودفن . الا انـ العلاقـــات الرسمية احتفظت بشكلها الودي ، وكانـ ذلك من الشروط الاساسيـة للمفاجأة التي كان هتلر يعدها للعالم . وفي الحادي عشر من كانون الثاني ١٩٤١ وقعت المانيا وروسيا اتفاقاً في صدد الحدود وبعض الشؤون الاقتصادية ، كان آخر صفحة في سجل الصداقة الكاذبة

الذي فتحه ميثاق موسكو في الثالث والعشرين من آب ١٩٣٩ . وقامت الصحف الالمانية والروسية تؤكد لهذه المناسبة ان الانكلوسكسون عاجزون عن تعكير صفو العلاقات المتينة التي تربط الدولتين . وفي الثاني والعشرين من كانون الثاني اعلن بطلر في مجلس العموم ان الحكومة البريطانية اخفقت في مساعيها لانشاء تعاون سياسي انكليزي روسي .

واعترت العلاقات الروسية — الفنلندية بعد بضعة ايام ازمة جديدة . وأخطرت موسكو الحكومة الفنلندية بانها لا تسمح لها بالارتباط باية دولة اخرى غير الاتحاد السوفياتي . ولم تحرك المانيا ساكناً . وفي اول آذار دخل الالمان الى بلغاريا . ونفت روسيا ما قيل من انها وافقت على ذلك ، واعلنت ان القضية لم تكن موضع بحث ابان المحادثات الالمانية الروسية . وكان هذا الحدث في الحقيقة ضربة على آمال السوفيات لان مولوتوف كان قد طلب في برلين ان تدخل بلغاريا في نطاق النفوذ الروسي .

وفي غضون آذار تلقت دوائر الاستعلامات الالمانية تقريرين يعلنان ان الروس يحشدون قوات كبيرة في الغرب . وبعث اليها جواسيسها بتقرير ثالث يؤكد ان العلاقات الانكليزية — السوفياتية تحسنت تحسناً محسوساً . واستمر التنافس العلني على البلقان بين روسيا والمانيا . وفي العشرين من آذار اعلنت المانيا انها احرزت انتصاراً سياسياً هاماً اذ انضمت يوغوسلافيا الى الميثاق الثلاثي الالماني الايطالي الياباني . وما كادت تنقضي ثمانية ايام حتى اطاحت ثورة عسكرية بحكومة ستويادينوفيتش

الميالة للالمان . وحل هتلر العقدة بهجوم عسكري . وكانت حرب البلقان وكان من ابرز نتائجها تأخير الهجوم على روسيا ستة اسابيع بعد ان كان معيناً للخامس عشر من ايار .

وكانت المانيا في تلك الاثناء تفاوض اليابان . وفي التاسع والعشرين من آذار زار ماتسيوكا وزير الخارجية الياباني برلين وتضمنت الوثيقة ١٨٧٧ من ملف نورمبرغ تفصيل مقابلته لريبنتروب ، فطلب هذا اليه ان تشن اليابان هجوماً على سنغافورة . وتحفظ الوزير الياباني خوفاً من تدخل الولايات المتحدة . ومما قاله ريبنتروب عن روسيا : « هناك حقيقة ثانية استطيع ان اؤكدها لك وهي ان المانيا ستتدخل في الحال اذا هاجمت روسيا اليابان . ولذا تستطيعون غزو سنغافورة دون خوف من هذه الناحية . ويقف اليوم سواد الجيش الالماني في الشرق على استعداد تام للعمل في اية لحظة . واظن ان روسيا ستسعى الى اجتناب الحرب . اما اذا اشتعلت النار في الشرق فلن تستغرق تصفية الحساب مع الروس اكثر من شهور معدودة . ولست اعلم أيمضي ستالين في سياسته الحالية غير الودية تجاه المانيا . على انني اخطرك بان الحرب مع روسيا ليست من المستحيلات . واسألك ان تفهم الامبراطور ان الحالة من التوتر بحيث اصبح النزاع المسلح بين روسيا والمانيا محتملاً . »

وفي الثالث عشر من نيسان ، بعد رحلته الى اوروبا ، وقع ماتسيوكا مع روسيا ميثاق حياد . وكان هذا الحدث مفاجأة . وكشفت وثائق نورمبرغ عن خفاياها . فقد تضمنت محفوظات

الاميرالية الالمانية ايضاحاً لهذه المناورة السياسية في كتاب بعث به الفوهرر الى الاميرال ريدر جواباً على سؤاله . وهذه خلاصته :
« عقد الميثاق الروسي الياباني بموافقتنا . والغرض منه تحويل اليابان عن فلاديفوستوك القاعدة الروسية الهامة ودفعها الى الاستيلاء على سنغافورة . وقد افهمت ماتسيوكا ان لا خوف على روسيا اذا احترمت ميثاق موسكو ووقفت من الرايش موقفاً مرضياً ، وإلا فانني احتفظ بحق القيام بما يوجبه الواجب والظروف . وكان لتصريحي هذا اثر في موقف روسيا التي تشك في عزمنا على مناصبتها العداء بالسلاح . »

كان غرض هتلر من مناورته السياسية هذه تخدير اعصاب الروس فترة اخرى لتكون الضربة الاولى المفاجئة قاصمة . على ان حركات نقل الجيوش والاستعدادات العظيمة للحملة الجديدة لم تخف على الروس . وفي الرابع والعشرين من نيسان بعث الملحق البحري بالسفارة الالمانية في موسكو ، ببرقية الى الاميرالية اعلن فيها ان حديث الحرب في روسيا منتشر ، وان السفير البريطاني ستافورد كريبس يتوقع ان يشن الرايش الهجوم على روسيا بعد شهرين . »

ولم تكن حكومة موسكو تريد الحرب . وتشهد عدة وثائق المانية بان الروس سعوا جهدهم لاجتنابها او على الاقل لتأخيرها ، ومنها التقرير الالماني رقم آ ٢١ — ١ وزبدته : « تدل تصريحات ستالين وتيموشنكو لمناسبة اول ايار (عيد العمل) على ان روسيا تسعى بجميع الطرق لاجتناب الحرب . » وذكر التقرير آ

٢١ – ٦٦ ان تعيين ستالين رئيساً لمجلس مفوضي الشعب يعني حصر السلطة التنفيذية وتعزيز سلطة الحكومة ورغبة روسيا في متابعة سياستها الخارجية الحالية واجتناب الحرب ضد المانيا . »

وفي العاشر من ايار بدت من موسكو بادرة لها مغزى سياسي هام . فقد ابلغت ممثلي النروج وبلجيكا ويوغوسلافيا الديبلوماسيين ان حكومة الاتحاد السوفياتي لم تعد تعترف بحكوماتهم ، وهو ما طالما طلبته المانيا . وفي الرابع من حزيران اثبت تقرير الماني ان صادرات روسيا الى المانيا مرضية . وبعد يومين ابرق السفير الالماني في موسكو يقول ان روسيا لن تحارب الا اذا هوجمت وان استعداداتها العسكرية سائرة بانتظام ولكن بهوادة على ما يبدو . واكد السفير ان الحكومة السوفياتية تسعى الى تحسين علاقاتها بالرايش . وفي السابع من حزيران ايد التقرير الالماني آ ٢٢ – ٦٥ اقوال السفير واكد ان ستالين ومولوتوف المسؤولين الوحيدين عن سياسة روسيا الخارجية يسعيان الى اجتناب الحرب . واعلن اخيراً التقرير آ ٢٢ – ١٦١ في الخامس عشر من حزيران ان ستالين مستعد ، على ما يظهر ، لارضاء الرايش بجميع الوسائل .

وهكذا لم يكن هناك ما يبعث المانيا على القلق من موقف روسيا يومذاك . فقد استولى الالمان على البلقان فلم تحرك روسيا ساكناً . وارسلوا قوات الى فنلندا فسكتت . ولم يكن النزاع بين الدولتين مما يستدعي عملاً عسكرياً . ولكن هتلر كان عازماً على العمل بسرعة . وفي الرابع عشر من حزيران

جمع القادة في مكتبه وبسط لهم الموقف وما يدعوه الى الاسراع في الهجوم على روسيا ، قال : « اصبحت الحرب مع روسيا محتومة . وبهذا ينبغي لنا ان نبدأها بالهجوم لنقطع الطريق على الروس ، ولا ندع لهم فرصة مفاجأتنا عندما يتم استعدادهم ونكون مشغولين في ميادين حربية اخرى . » ولم ينبس القادة بكلمة اعتراض ، ولا سألوا هتلر ايضاحاً عن الميادين الاخرى التي اشار اليها . فقد كانوا يثقون به الا القلائل منهم اولئك الذين حاربوا في روسيا من ١٩١٤ الى ١٩١٧ وبلوا تلك الاصقاع النائية المرعبة بسعتها ومستنقعاتها وشتائها وكتلها البشرية التي لا ينضب لها معين . اما السواد الاعظم من الجيش الالماني فقد كان على يقين من ان الانتصار على روسيا لن يعيي هذه القوة الجبارة التي فتحت اوروبا بايام معدودة واكتسحت البلاد والجيوش كالصواعق . وقدرت القيادة العامة (الوثيقة ٨٧٣) ان تبدأ الحملة بمعارك عنيفة على الحدود تستمر اربعة اسابيع ، ثم تليها مقاومة روسية مطردة الضعف . وكان هتلر نفسه قد اعلن انه يتوقع انتهاء الهجوم على روسيا في غضون بضعة شهور ، اي ان الالمان كانوا يرجون اخضاع الاتحاد السوفياتي ، تلك الكتلة الهائلة الجبارة ، قبل حلول الشتاء ...

وفي الثاني والعشرين من حزيران ١٩٤١ اجتاحت جحافل هتلر اراضي الاتحاد السوفياتي بدون نذير سابق ، او اخطار ، او حادث حدود ، او توتر سياسي جدي .

هزيمة الالمان على عتبة موسكو

في محفوظات نورمبوغ صفحة من مآسي التاريخ : رواية الجنرال غودريان لمعركة شتاء ١٩٤١ على ابواب موسكو .

كان غودريان في مطلع الحرب قائداً فذاً طبقت شهرته الآفاق . وكان يحتل في نفوس الالمان مكانة لم ينافسه عليها بعد ذلك سوى رومل ثعلب الصحراء وملك الدبابات . ولاغرو ، فالجنرال غودريان هو بطل حملة سيدان الشهيرة . قاد الفيلق التاسع عشر المصفح في دبابته الخاصة ، فاخترق سيدان واجتاح لوكسمبورغ وعبر نهر الموز ومضى في زحفه قدماً ، فاجتاز شمالي فرنسا ووصل الى بولوني ومهد للضربة الاخيرة في دنكرك ، ثم اخترق الجبهة الفرنسية في شامبانيا وحطمها وزحف حتى بلغ حدود سويسرا ، فاكمل الطوق على مجموعة كبيرة من الجيوش الفرنسية . كان غودريان جندياً من طراز جديد . مقاتل ومهندس معاً ، جمع الى فن ادارة الجيش الآلي خبرة القائد البري المغوار . قال : « شممت رائحة الحرب مع روسيا لاول مرة في خريف ١٩٤٠ بعد زيارة مولوتوف لبرلين . فقد اعلمني رئيس اركان الحرب هالدر ان ثمة حملة على روسيا في طور التحضير ، وهي تتألف من ثلاث مجموعات من الجيوش ، اثنتان منها في الشمال احداهما في جنوبي مستنقعات بريبيت . فدهشت

بل روّعت لانني كنت اظن اننا لن نحـارب الا على جبهة واحدة واننا سنحافظ على صداقتنا مع الاتحاد السوفياتي . »

عهدت الى غودريان قيادة جيش مصفح من جيوش مجموعة فون بوك ، وعين مركز عمله في قلب الهجوم حيث كان للفرق الآلية المكان الاول . وكانت مهمته الانطلاق بشكل سهم سريع من منطقة بريست – لیتوفسك بطريق بوريسوف – روسلافل – يلنـا – سمولنسك لقسم الجيش الروسي قسمين والوصول الى موسكو .

وكانت بداية الحملة سهلة لان قيمة القوات الروسية الحربيـة كانت ضعيفة واستسلمت روسيا بكاملها دون قتـال . ولم يخسر الالمان من افواج السيارات الا القليل لان الارض كانت صالحة . وكانت خسائرهم في الرجال ضئيلة لان دفاع الروس كان رديئاً . وفي الخامس عشر من تموز ، اي بعد شهر من بدء القتال ، بلغ الالمان يلنا التي تبعد خمسمائة كيلومتر عن موسكو . وطلب غودريان وقوداً ومحركات فكان الجواب امراً بالوقوف حيث هو ... قـال غودريان : « دهشت لهذا الامر دهشة عظيمـة . فقد كان العدو امامنا مغلوباً على امره ، وقـد دبت الفوضى في صفوفـه . وكان الحر شديـداً ، الا ان الارض كانت جيـدة وجيوشنا متحمسة تريد الاستيلاء على العاصمة موسكو . وكنت قد قابلت هتلر مرتين احداهما في الثالث من نيسان والاخرى في الخامس والعشرين منه . ولكن حديثنا لم يتعـد يومذاك الامور الفنية النظرية . ولما اتصلت بهالدر بعدئذ في روسلافل وتحدثنـا

عن ادارة دفة الحرب ، شرح لي سبب وقوفنا على ابواب موسكو ، فقال ان قيادة الجيش تريد الاستيلاء على موسكو عقدة المواصلات ومركز العدو السياسي ، ولكن الفوهرر يريد اولاً الاستيلاء على كييف واوكرانيا . »

والواقع ان توفيق الالمان في معركة مينسك – بارانوفتش الكبيرة خدع هتلر . وحمله نجاح حركة الالتفاف التي ادت الى سقوط عشرات الالوف من الروس في الاسر ووقوع كميات عظيمة من الاسلحة والعتاد في ايدي الالمان ، على الظن بانه بلغ هدفه الاستراتيجي الرئيسي وهو تحطيم قوة الجيش الروسي الحربية . ورأى ان موسكو الهدف الجغرافي كانت ثمرة دانية القطف ولا مبرر لاستعجال جنيها . ويذكر القارىء ان هتلر اتبع الخطة ذاتها في فرنسا يوم امر القيادة الالمانية في حزيران ١٩٤٠ بالعدول عن احتلال باريس اذا دافع عنها الفرنسيون . وقد أدى توقف الالمان في منطقة سمولنسك – يلنا الى تبديل في موقف الروس ، كما شهد بذلك الجنرال شال ، اذ عمدوا الى شن غارات معاكسة ضعيفة مفككة ، ولكنها كانت عنيفة قاتل فيها الروس قتال المستميت .

وطال الانتظار امام موسكو بينما كانت جيوش فون بوك ماضية في اعمالها في الجنوب بسرعة ، ثم لم تلبث ان خفت بالتدريج . وادركت الالمان الامطار واصبحت الميادين الحربية حقولاً شاسعة من المستنقعات والوحول . وظهرت بوادر النصب على الرجال والآلات . وكان تقدم بسيط يكلف الافواج نصف

معداتها الآلية احياناً . وبلغ الجناح الايمن للجيوش الالمانية برباتسك وضواحي اوريل . وفجأة انقض الشتاء في الثلاثين من تشرين الثاني وسجل ميزان الحرارة عشرين درجة تحت الصفر . قال غودريان : « في الثلاثين من تشرين الثاني حمل الينا هالدر الاوامر العليا للحملة التي ما زالت القيادة العليا تطلق عليها اسم حملة الخريف على الرغم من ان ميزان الحرارة هبط الى العشرين تحت الصفر . وكانت الاهداف المعينة لنا موسكو ونهر الفولغا في غوركي . ويعني هذا انه كان علينا اجتياز اربعمائة كيلومتر في ارض موحلة لا تكاد الارجل تستقر عليها . وما كانت حالة الجيش الالماني المادية لتسمح لنا بقطع هذا الشوط البعيد في مثل تلك الظروف القاسية . فان ملابس الشتاء لم تكن قد وصلت . وكانت طرق المواصلات صعبة لأختلاف مقاييس الخطوط الحديدية . وجاء نشاط الانصار الروس خلف خطوطنا ضغثاً على ابالة . وبعدُ ، فقد كان جنودنا منهوكي القوى للجهد الجبار الذي بذلوه ، وللبرد والقلة اللذين حلا بهم . وعلى هذا ، جنّ جنون القادة جميعاً . وقابلت فون بوك وفاتحته في الامر فشاركني قلقي . واتصل ببراوشيتش بالتلفون وعرض عليه الاهداف التي عينتها لنا القيادة العليا . ولم يكن براوشيتش ، على ما بدا لي ، حراً في التصرف . وكان موعد هجومي وهجوم فون بوك اليوم الثاني من كانون الاول ، فارجىء يومين لان البرد ورداءة الارض اخرا جميع الصفوف وتوزيعها . وبدأنا بالهجوم في اليوم الرابع ، واشتركت به جيوش رينهاردت وهوبنر المصفحة في

شمالي موسكو . اما في جنوبي موسكو فقد شننت الحملة بنفسي على رأس جيشي . ولم يشترك الجيش الرابع في الهجوم من الجهة الوسطى . وربما كان ذلك بسبب سوء حـالته . وفي اليوم ذاته هبطت درجة الحرارة الى اربعين تحت الصفر . وان مـا قاسيناه لأعجز عن وصفه . فقد تجلدت اطراف الجنود وتوقفت الاسلحة الآلية عن العمل بسبب تجمد الزيت فيهـا . وبعد ظهر اليوم التالي (٥ كانون الاول) اضطرت جميع جيوشنا للتوقف عن كل حركة . »

وليس في التاريخ العسكري من كارثة تضاهي هـذا الهجوم الصاعق ينقض من السماء على جيش جرار فيعطل كل حركة فيه ويشل نشاطه دفعة واحدة !.. كان الجنود الالمان لا يتقون هذا البرد الهائل بغير ارديتهم العسكرية العادية واحذيتهم الطويلة . وكل ما ارسل اليهم من الالبسة الاضافية لم يتعد شالاً وقفازين مـن الصوف . وتجلدت الزيوت في القاطرات خلف الجيوش فتوقفت حركة النقل . وفي صفوف الجيش لم تبق الاسلحـة صالحة للعمل مطلقاً . وكان تسيير الدبابات يقتضي تدفئتها اثنتي عشرة ساعة كما اكد ذلك الجنرال شال . وقضى الوف الالمان دنقاً . اما الروس فقد كانوا مجهزين بالبسة خاصة تقيهم فتكات الـبرد كالاردية المصنوعة من الفراء واحذية اللباد ، ومزودين بلوازم تقي آلاتهم شر الصقيع . ولم يكن هذا بكاف لمكافحة الشتاء . ولما شنوا في السابع مـن كانون الاول هجومهم المعاكس لم يحرزوا انتصاراً حاسماً على الجيش الالماني الذي كان اشبه بالميت

من شدة البرد والجليد . وامر هتلر باستئناف الزحف على موسكو ضد العدو والطبيعة معاً . وكان يومذاك في بروسيا الشرقية على بعد مئات الاميال من ميادين القتال ، قال غودريان :

« ذهبت في الثامن عشر او الرابع عشر من كانون الاول ، الى براوشيتش لنتداول في امر هتلر الجديد . فوجدته مكتئباً ، متداعي الاعصاب . ورجوته ان يطلع الفوهرر على حقيقة حال جيوشنا ، فوعدني خـيراً . ولكنني شعرت بانه في اقصى حالات اليأس ، وبانـه لن يبلغ الفوهرر رسالتي . وفي السادس عشر ابرقت الى الجنرال شموندت مساعد هتلر في القيادة العليا ارجوه ان يحضر الى مركز قيادتي في اوريل . وكان من المعجبين بهتلر وممن عرفوا بالاستقامة وحسن الطوية . وابلغته حقيقة حالتنا ووفقت الى اقناعه . ولكنه اعلمني بعد حين انه حاول الاتصال بالفوهرر ، ولكن خطوط التلفون كانت في حالة رديئة والمسافة بعيدة ، فلم يفلح . واخيراً قررت ان اذهب بنفسي الى الفوهرر ، وكنت من المقربين اليه وكثيراً ما استقبلني وانصت الى ارائي . وطرت الى بروسيا الشرقية في طقس رديء جداً . وفي العشرين من كانون الاول وصلت الى مقره . وقابلته ثلاث مرات ودامت احاديثنا خمس ساعات . فوصفت له حالة الجيش امام موسكو ، وحاولت ان افهمه ان قواتنا عاجزة عن بذل الجهد الذي تطلبه القيادة العامة منها ، واخطرته اننا سائرون الى كارثة محتومة لا بسبب العدو ، بل بسبب البرد القتال . وقلت له ان خير وسيلة لاجتنابها هي الغاء الهجوم والجلاء عن الاراضي التي استولينا عليها

لاننا لا نستطيع الاحتفاظ بها ، وتحويل الدبابات الى قلاع يحشر فيها الجنود حتى تزول عوادي الشتاء ، ووعدته بان نحتل موسكو في الربيع . فرفض ان يصدق ما صورته له من احوال جيوشنا التعسة ، ووصفني بانني كغيري من القواد اهتم كثيراً برجالي ومعداتي . وانفجر ينحى باللائمة على القيادة البرية باجمعها . وتجلى حقده على براوشيتش وثارت ثائرته عليه وقال : اريد موسكو وسأنالها ! واملى عليّ اوامر جديدة بالهجوم عدت بها الى روسيا اجرر اذيال الخيبة . وكان البرد قد بلغ اشده ، وفعل في جيوشنا منتهى فعله ، ففقدت النظام واصبحت من بلبلة الحال بحيث لم نستطع تنفيذ اوامر هتلر . ومضى الروس يهاجموننا بدورهم بقدر ما سمح لهم الطقس لانهم كانوا مثلنا يقاسون الاهوال . على انهم استطاعوا ان يهددوا مقدمتنا ولفوا عليها وطوقوها . وكانت خطوط اتصالنا مقطوعة وآلات المخابرات اللاسلكية عديمة النفع بسبب الثلوج والبرد . ومنينا بخسارة كبرى في الرجال لأن اقل جرح كان كافياً لقتل المصاب به . وتوقفت المعركة بطبيعة الحال وبدون امر ورغم انف القادة وجهدهم . وقبل يومين من عيد الميلاد ، عزل براوشيتش من منصب القيادة . ورفع خلفه الماريشال فون كروغر في الخامس والعشرين من كانون الاول تقريراً الى هيئة القيادة العامة يبلغها فيه انني رفضت تنفيذ اوامر الفوهرر . فعزلت من منصبي فوراً . وبعد خمسة ايام عاد شموندت الى اوريل وتأكد بنفسه من انني بذلت جهد طاقتي لانفذ الاوامر التي اصدرها اليّ هتلر ، ورفع تقريراً بذلك الى

الفوهرر . ولكن هذا التقرير جاء متأخراً لانني كنت قد عدت الى بلدي . وفي مطلع العام الجديد صدر امر التراجـــع الذي حاولت عبثاً حمل هتلر على اصداره في العشرين من كانون الاول . وانحسر الجيش مائة كيلومتر تقريباً ، ولكن الخسارة التي حلت به كانت هائلة لا يمكن تعويضها . »

هذا ما رواه غودريان عن كارثة موسكو . واعلن كايتل ان توقف الالمان على ابواب موسكو سببه البرد الهائل الذي انقضّ على الجيوش الالمانية فشل حركتها . ووصف جودل مـا حدث بكارثة سماوية حطمت الجيش الالماني الجبار تحطيماً ، وقضت عـلى ارادة اصلب القواد . والحق يقال ان من عادة العسكريين ان يلقوا تبعة انكساراتهم على الظروف والاحوال الجوية اكثر منها على قوة العدو وكرّاته . وجرياً على هذه القاعدة لم يذكر القادة الالمان الا قليلاً نهضة الروس بعد كبوتهم ، وتدخـل الجيوش القادمة من سيبيريا في القتال في السابع من كانون الاول . على ان السبب الاول والاساسي في نجاة موسكو كان الشتاء . فقـد تدنت الحرارة حتى الخمسين درجة تحت الصفر ، ومـــا اصطدم الجيش الالماني ، القليل العدة للشتاء ، بعـدد اشد فتكاً واصلب عدداً من البرد .

وكانت معركة موسكو نقطة التحول في الحرب كلها . ولئن يكن عراك ستالينغراد قد كسفها فلأنه كان على نطاق اوسع . الا انه لم يكن في الحقيقة سوى ذيل لهزيمة الالمان امام موسكو . ولعلّ تطور الحرب في روسيا عـــلى ذلك الشكل العكسي

لم يكن نتيجة لتقدم الجيوش الروسية بقدر ما كان عاقبة لفقدان الجيش الالماني صفاته بالتدريج . وقد اجمع القادة الالمان في نورمبرغ على ان الجيوش الالمانية فقدت معنى المناورة الحربية والحركات الالتفافية التي كانت اساس هجومها على روسيا ، وسرعان ما تحولت الحرب الى قتال خطي اجماعي بسيط لا مداورة فيه ولا فن . وتكاد الحملة الالمانية على روسيا لا تختلف اختلافاً بيناً عن حملة نابوليون عليها . فقد تقدمت الجيوش النابوليونية في بادىء الامر ثم اخذت تربح معاركها بصعوبة . وداهمها الشتاء الروسي والحرب الاسبانية فاخذت بالانهيار ، فطاردتها الجحافل الروسية . وكانت معركة اوسترليتز الشهيرة منتهى النصر وبدعة الفن العسكري . وتبعتها موقعة واغرام فكانت صدمة دامية للجيوش الفرنسية . وكان عراك موسكوفا مجزرة عمياء فتكت بجحافل نابوليون فتكاً ذريعاً . ولئن تكن الحرب الاسبانية وما ادت اليه من فل الكتلة النابوليونية الحربية مبدأ لأفول نجم نابوليون فان مبدأ انهيار جيوش هتلر معركة موسكو . وسببها خطآن ارتكبهما هتلر وهما : تأخره في شن الهجوم على روسيا ، ووقوف الجيش الالماني طويلاً في سمولنسك . ولكن الخطأ الاعظم كان الهجوم الذي امر به على موسكو ضارباً بالحكمة والظروف عرضاً .

وفي العام التالي لما احتاج الغازي الالماني الى زهرة جنوده ، فتش عنها فلم يجدها ... كانت مدفونة في حقول روسيا تغذي الارض لتنبت طعاماً او غذاء اصلح ...

ماذا كان هتلر ينوي صنعه بروسيا ؟

في ملفات نورمبرغ طائفة من الوثائق يرقى بعضها الى مطلع ١٩٤١ ، تكشف الستار عما كان هتلر ينوي صنعه بالاراضي الشاسعة الواقعة بين الفستول والاورال . وكان في مقدمة الخطط استثمار تلك المناطق واستنباط اكبر الثروات منها . وقد كلف الغازي الالماني مساعده ماريشال الرايش غورنغ بهذا العمل النفعي الكبير واطلق على ذلك اسم خطة اولدنبورغ . ومما ذكرته لوثيقة ١٣١٧ المؤرخة اول آذار ١٩٤١ : « يعهد بتنظيم الادارة الاقتصادية الى ماريشال الرايش غورنغ . ويتناول هذا التنظيم جميع الشؤون المتعلقة بالاقتصاد الحربي ، ما عدا قضايا الاغذية فهي من اختصاص لجنة يديرها امين سر الدولة باك . على ان تكون المهمة الرئيسية مصادرة المواد الاولية والاستيلاء على جميع المؤسسات الصناعية الكبيرة . »

ولم يمض شهران حتى كانت خطة اولدنبورغ جاهزة بادق تفاصيلها . وتقسم الوثيقة ١١٥٧ المؤرخة التاسع والعشرون من نيسان ، روسيا الى اربع مفتشيات اقتصادية الاولى في لينينغراد (تحت اسم هولشتاين) ، والثانية في موسكو (ساكسوني) ، والثالثة في كييف (بادن) ، والرابعة في باكو (ويسفالي) . وتقوم ثلاث وعشرون قيادة اقتصادية واثنا عشر ضابطاً بوضع

خطط الاستيلاء على ثروات المناطق في كل مفتشية . وعهد الى الوزير باك بشؤون الاغذيـة . وفصلت الوثيقـة ٢٧١٨ مهمـة الوزير وهي وجوب جمع الاغذية اللازمة لتموين الجيوش الالمـانية باسرها للعام الرابع من الحرب ، من روسيا . وهنـاك شخص ثالث كلفه هتلر الاشتراك في ادارة شؤون روسيـا المحتلة وهو هانريش هملر رئيس الحرس الخاص . اما الفريد روزنبرغ صاحب المبادىء النازية والآراء العرقيـة المتطرفة المعروفة فقد عينه هتلر وزيراً له في الاراضي التي يحتلهـا الرايش في الشرق . وقبل يومين من هجوم الالمان على روسيا ، اي في العشرين من حزيران ، عرض روزنبرغ آراءه في اجتماع ضم كبار الشخصيات من الذين عهد اليهم بتنظيم البلاد المحتلة ، قـال (الوثيقة ١٠٥٨) :
« في مقدمة اهدافنا في الشرق هذا العـام ، توفير الغذاء الكافي للشعب الالماني . وينبغي لنا ان نجمع من اراضي روسيا الجنوبية الكمية اللازمة لموازنة ميزان الاغذية في المانيا سواء أجاع سكان تلك المناطق ام شبعوا . وقد يقتضينـا ذلك ترحيل عدد كبير منهم . ولن نحجم عن امر مهما يكن قاسياً في سبيل مواصلة الحرب وتوفير الاسباب لجيوشنا وشعبنا . ان المهمة الملقاة على عاتق المانيا عظيمة ، بل هي تتعدى ذلك الى هدف اهم للمستقبل وهو دحر النشاط الروسي الاجتماعي الى الشرق وحصره في آسيا . وقد تؤيدنا في قرارنا هذا روسيا المستقبل . وليست روسيـا المستقبل التي اعنيها الدولة الروسية التي ستولد بعد ثلاثين سنة ، بل بعد مائة سنة . واذا اقفلنـا المغرب بوجه الروس انطووا

على انفسهم في آسيا حيث اصلهم وتقاليدهم الاساسية ، واهتموا بحضارتهم الخاصة دون التعرض للغرب وشؤون الغرب . »

كان روزنبرغ يعد العدة لانشاء روسيا جديدة ذات طابع اسيوي بحت بتشريد الشعوب التي تقطن روسيا الاوروبية ونقلها الى الشرق وتجويعها وحصرها فيا سماه بطابعها الاصلي . وقد تضمن محضر اجتماع عقده زعماء الرايش ان روزنبرغ اعلن رغبته في استخدام الكابتين فون باتر سدورف لادارة اعمال النقل والتنظيم في روسيا الاوروبية . ولكن الحاضرين اجمعوا على رفض هذا الاقتراح ، واعلن الفوهرر والماريشال غورنغ ان باتر سدورف اقرب الى الجنون منه الى التعقل .

واختار هتلر بنفسه الزعماء الالمان الذين كان ينوي تعيينهم لادارة المقاطعات الروسية المقسمة وهم : لوهز في بلاد البلطيك ، وكاشه لموسكو ، وكوخ لاوكرانيا ، وفراونفلد للقرم ، وتربوفين لشبه جزيرة كولا . وجميعهم من المناضلين القدماء المعروفين بقسوتهم وصرامتهم في الادارة . وكانت مهمتهم تهيئة مستقبل روسيا . اما هذا المستقبل فقد تحدثت عنه مذكرة الى الفوهرر مؤرخة الثاني من نيسان ١٩٤١ (الوثيقة ١٠١٧ من ملف نورمبرغ) وضعتها طائفة من افذاذ الجغرافيا والسياسة . وهي توصي بتقسيم روسيا الى سبع مقاطعات كبرى . اما المقاطعة الاولى (اي روسيا الكبرى كما سماها الخبراء الالمان) فهي المنطقة الوسطى ، وعاصمتها موسكو التي تعتبر منذ عهد اول قيصر روسي نواة القوة الروسية وسيفها المسلول وموئل فكرة

الوحدة السلافية . وعلى هذا اوصى الخبراء باضعافها وقد وصفوا لذلك ثلاث وسائل :

اولاً – تحطيم الادارة البلشفية تحطيماً تاماً شاملاً وابدالها بحكومة ضعيفة عريقة في الرجعة .

ثانياً – اضعاف المنطقة في الحقل الاقتصادي بمصادرة المخزون من المواد المختلفة ، والمؤسسات الصناعية ، ووسائط النقل .

ثالثاً – فصل اراض واسعة منها وضمها الى الوحدات السياسية والادارية المجاورة : اوكرانيا ، وروسيا البيضاء ، وحوض الدون .

واشارت الوثيقة الالمانية هنا الى ان روسيا البيضاء وحوض الدون « منطقتان فقيرتان ومتأخرتان سترضخان بسهولة للرايش . فلا خوف اذاً من تقويتهما وتوسيعها بشرط ان تفرض عليهما رقابة نبيهة . وعلى هذا ، تضم منطقة كالينين الى روسيا البيضاء ، ومقاطعة ساراتوفا الى حوض الدون . فتصبح موسكو على بعد مائتين وخمسين كيلومتراً من حدود روسيا الكبرى . » اما اوكرانيا فتعطى استقلالاً ذاتياً وتصبح دولة خاضعة للرايش في الحقلين الاقتصادي والسياسي ، وتضم الى اتحاد يجمع دول البحر الاسود ، ويعهد اليها بتموين الرايش من جهة ومناوأة موسكو من الجهة الثانية .

والمقاطعة الخامسة التي رسمها الخبراء الالمان هي منطقة القفقاس . وقد ذكروا ان تعدد اللغات والاجناس فيها يتيح تقسيمها الى ولايات صغيرة يربطها نظام اتحادي شكلي . ولكنهم

اوصوا بان تكون باكو وينابيع البترول فيها خاضعة للرقابة الالمانية المباشرة . وسادس المقاطعات هي آسيا الوسطى وتركستان . وكان الالمان يريدون ان يجعلوا من هذه المقاطعة دولة اسلامية حليفة ومساعدة للرايش تستخدم كوسيلة للضغط على الهند ، وقاعدة لعمل حربي قد يدعو تطور الحال الى القيام به .

بقيت بلاد البلطيك ، او اوستلاند كما اسماها الخبراء ، اي مجموعة الاراضي الليتونية والليتوانية والاستونية . وقد قالت المذكرة عنها : « يجب اعداد العدة لنقل قسم كبير من الطبقة الليتونية الراقية ومن الجماعات غير الاصلية من سكان ليتونيا ، ليحل محل الراحلين سكان جرمانيو الارومة يؤخذون من الالمان المقيمين في حوض الفولغا بعد تطهيرهم من العناصر المرغوب عنها ، ومن الدانيمركيين والنروجيين والهولنديين والانكليز . وبعد خمس وعشرين سنة او خمسين تضم هذه المقاطعة (السابعة) الى الرايش .

وهناك وثيقة اخرى هامة في اوراق نورمبرغ كشفت الستار عن مطامع الالمان وهي الوثيقة ١٠١٧ ، تضمنت اقوال هتلر نفسه في مؤتمر عام عقده اركان الحكومة والقيادة لتنظيم الشرق في السادس عشر من تموز ١٩٤١ يوم كانت الدبابات الالمانية في بلنا على طريق موسكو تكتسح الميدان ، والروس من امامها في تراجع مطرد . وهذا اهم ما قاله : « اليكم ما ينبغي لنا صنعه بعد سحق الاتحاد السوفياتي . القرم : يجب علينا تطهيرها من سكانها ليعرف الالمان كيف يفيدون من خيراتها ويقدرونها حق

قدرها . وسنضم اليهـــا بعض الاراضي المجاورة لتشكل وحدة اقتصادية وسياسية قوية وتصبح جزءاً من الرايش الالماني . امـا في اوكرانيـــا فيجب ان تصبح غاليسيا ، التي كانت ملكاً للامبراطورية النمسوية القديمة ، ملكاً للرايش . امـا اوستلاند (بلاد البلطيك) فستضم جميعها الى الرايش . وسيكون جزءاً من الرايش الالماني القطاع الذي يسكنه الالمان في حوض الفولغا . وسنجعل من باكو مستعمرة عسكرية المـــانية ، ونحتفظ بشبه جزيرة كولا بسبب ما تحتوي من مناجم . »

وقد سأل غورنغ في الاجتماع عن حصة حلفاء المانيا ، فاجاب الفوهرر : « لم يقرر شيء حتى الآن في هذا الصدد . ولم نعد السلوفاكيين ولا المجريين حتى الآن وعداً قاطعاً واضحاً . امـا رومـانيا فهي تطالب ببسارابيا واوديسا . ومعلوم ان علاقاتنـا اليوم بحكومة انطونيسكو ودية . ولكن من يدري ما يأتي به المستقبل ؟ وعلى اساس موقف الرومانيين سنرسم الخطوط النهائية . ويطالب الفنلنديون بكاريليا الشرقية ، ولكنهم لن يحصلوا مطلقاً على شبه جزيرة كولا لان مناجمها تهمنا . ويريدون ايضاً منطقة لينينغراد ، فلن احرمهم منها . الا انني سامسحها مسحـاً قبل ان اقدمها لهم . »

كان الغازي الالماني يعتمد في تحقيق اغراضه في روسيا عـلى القسوة والارهاب الى جانب الوسائل الحربية . وقد اوصى قواده بذلك . وكانت اوامره في هذا الصدد صارمة . وممـــا رواه

الماريشال هالدر في نورمبرغ عن وصايا هتلر ، قوله : « قبيل بدء الحملة على روسيا ، في ايار ١٩٤١ ، جمع الفوهرر كبار قادة الجيش لارشادهم فقال لهم : « ارى من واجبي ان الفت انظاركم الى ان الحملة على روسيا يجب ان تكون مجردة من كل ما توصي به الشرائع الانسانية ، لأنها ستكون صراعاً جباراً بين المبادىء والاجناس والعقائد . فينبغي لكم ان تضعوا الصرامة نصب اعينكم ، فلا تعرف الرحمة سبيلاً الى قلوبكم . وعلى الضباط ان يطرحوا جانباً كل الاعتبارات ، وان يعلموا ان في الامر موتاً او حياة ... لست اجهل ان هذا النوع من التفكير لا يفهمه القادة وقد جبلوا على البطولة والروح العسكرية النبيلة . على ان الامر اليوم فوق كل اعتبار لانه خطير جداً ولان مصير الحملة متوقف عليه . فاطلب اليكم جميعاً تنفيذ اوامري بحذافيرها . واول ما اريده هو محق تلك الفئة التي تدير الاتحاد السوفياتي والمعروفة بمفوضي الشعب السياسيين . وبعد ، فان الاتحاد السوفياتي لم يصدق على شرعة لاهاي . وفي هذا ما يبرر القسوة التي اطلب من جنودنا جعلها رائدهم في روسيا ، اللهم الا ما كان من اعمالهم مخالفاً للقوانين المدنية كالقتل والسبي ، فهذا محرم عليهم . » قال هذا ، وسلم ، وغادر قاعة الاجتماع . وشعر الحاضرون بانهم اهينوا وتحولوا الى براوشيتش محتجين ، فاعلن لهم انه لن يقبل بوصايا الفوهرر وانه سيقاومها ولن ينفذها . »

قال جودل في نورمبرغ : « كان بين الفوهرر والقادة الالمان تباعد عظيم في المبادىء والآراء . فقد كانوا يعتبرون الحرب

قتالاً بين جيشين ، بينما ارادها الفوهرر صراعاً بين حضارتين متنافستين لا بد لاحداهما من ان تموت في النهاية . وكان يقول لنا : « انكم تفهمون الحرب كما لو كنتم تفكرون بان يتصافح الغالب والمغلوب ويتصافيا بعد الهدنة . وانتم لا تدركون ان القوانين والشرائع التي تنطبق على سائر الحروب لا تتلاءم وصراعنا مع روسيا . ان تمسككم بمبادىء الفروسية والنبل العسكري مضحك ولا محل له في هذا النضال . » ومن الاحداث البارزة التي اتذكرها ما وقع ابان الحملة على لينينغراد . فقد ابلغ الجنرال فون ليب ، قائد مجموعة الجيوش الالمانية في الشمال ، هيئة القيادة العليا ان جماعات غفيرة من المدنيين تتدفق على الخطوط الالمانية طالبة ملجأ ، وانه لا يملك وسيلة لقبولها واعالتها . فتلقى الجواب من الفوهرر يأمره بطرد اللاجئين وتحويل الهجرة الى جهة العدو ليتحمل اعباءها . »

وقد عثر المحققون في نورمبرغ على هذا الامر الذي صدر في السابع من تشرين الاول ١٩٤١ وهو معروف اليوم بالوثيقة ١٢٣ س . في ملفات نورمبرغ ، وهذا نصه : « يأمر الفوهرر بالاّ نقبل استسلام لينينغراد او موسكو حتى اذا اعلنه العدو . وسيبرر العالم هذا الرفض على انه تدبير لأجتناب الكمائن التي ينصبها لنا الاعداء . ففي كييف هدد انفجار الالغام الموقتة (التي تنفجر بعد بثها بوقت محدد) جيوشنا بخطر عظيم . والخطر ذاته يهددنا في لينينغراد وموسكو . وقد اعلنت محطات الاذاعة السوفياتية نفسها ان الروس سيدافعون عن لينينغراد حتى آخر

رجل ، وان اسس المدينة كلها ملغومة . فيجب الا يدخلها اي جندي من جنودنا . وكل من يحاول ان يغادر لينينغراد ليصل الى خطوطنا يُرد على عقبيه بالنار . وعلى القادة ان يساعدوا السكان الروس على الهجرة الى داخل روسيا جهد استطاعتهم . ويجب ان تصب مدافعنا وطياراتنا حممها على لينينغراد بدون انقطاع لتزداد الهجرة . وكلما ازداد هرب السكان الى داخل روسيا ازدادت الكارثة على العدو ، وسهل علينا ادارة الاراضي التي نستولي عليها واستثمارها . وليعمم هذا الامر على جميع مراكز القيادة الالمانية في روسيا . »

واحتج فون ليب على هذا الامر ، كما اكد جودل . واعلن براوشيتش انه لن يعطي ابداً الامر باطلاق النار على السكان العزل ، وان الجنود الالمان انفسهم لا ينفذون امراً كهذا . واثار هذا التمنع من القادة الالمان سخط الفوهرر ، فكرر اوامره السابقة ، وضاعف فرق الحرس الخاص للاشراف على تنفيذ اوامره في الجبهة . وقد اجمع القادة الالمان في نورمبرغ ، المتهمون منهم والشهود ، على ان مهمتهم كانت صعبة جداً في روسيا ، وان تدخل الحرس الخاص في شؤون القيادة عرقل عملهم وقيد حركاتهم ، وان قلة ثقة هتلر بالقواد ما بلغت يوماً الحد الذي بلغته ابان الحملة على روسيا .

وتضافرت على السكان العزل الروس وعلى الاسرى من الجيوش السوفياتية ، اهوال الحرب ووحشية اوامر هتلر واعوانه وفي مقدمتهم هملر ، فقضوا بمئات الالوف جوعاً وتشريداً . وكان

جواب الروس على ذلك ، تلك الحرب المرعبة التي اعلنوها على مؤخرة جحافل هتلر ، اعني بها حرب العصابات . فقتلوا منها عشرات الالوف ، وانزلوا بها ضربات قاصمة ، وكبدوها خسارة لا تقل عن خسارتها في القتال . وقد اعترف جودل لمحققي نورمبرغ بان الانصار الروس دمروا خطوط اتصال الالمان الحديدية في الشهور الثلاثة من صيف ١٩٤٣ الوف المرات : في تموز ١٥٦٠ تخريباً ، وفي آب ٢١٢١ ، وفي ايلول ٢٠٠٠ ...

كانت الحرب الروسية للقواد الالمان اشبه بهوة دفعوا اليها الواحد تلو الآخر : براوشيتش ، رونشتيد ، بوك ، هوبنر ، ليب ، غودريان ، ترددوا في الهوة اذ عزلهم هتلر من مناصبهم الرفيعة تباعاً . ولما صرف هتلر الماريشال « ليست » سأله كايتل عن السبب وذكره بالانتصار العظيم الذي احرزه هذا القائد المغوار في البلقان ، فاجابه قائلاً : « لا ارضى ان يأتي اليّ جنرال وليس في جيبه خارطة تدلني على الانتصارات التي احرزها جيشه . »

كان هتلر ، على غرار نابوليون ، كلما ازدادت المصاعب ، ازداد نكراناً للمستحيل ، ووجد اصعب الامور يسيراً . وهذا ما حدث لجودل معه . فقد عارضه في بعض آرائه العسكرية فغضب عليه بعد ان كان صفيّه . ورواية ذلك تتضمنها مذكرة طويلة رفعها جودل الى قضاة نورمبرغ وسجلت في محضر الجلسات ، واليك خلاصتها :

بدأ نزاعي مع الفوهرر في خريف ١٩٤٢ في مدينة فينيزا .

وكان هتلر يومذاك ، وقد ساءت صحته ، يلتقد بنفسه الاوامر التي يصدرها شفهياً للجنرال هالدر رئيس اركان حرب الجيش او لغيره من القواد . فرفعت اليه تقريراً احتج فيه على المعاملة السيئة التي يلقاها كبار قادة الجيش . فحفظ لي هتلر غلاً منذ ذلك اليوم . وحدث بعد حين على اثر مقابلتي للماريشال ليست والجنرال كونراد في ستالينو ، ان طلبت الى هتلر امعان النظر في امره المتعلق بالاعمال الحربية ضد القفقاس ، واخطرته بان الفشل مكتوب لها حتماً بسبب رداءة ميادين القتال هناك . وكنت ارى ان الهجوم على القفقاس وستالينغراد في وقت واحد مغامرة متناهية في الجرأة قد تؤدي الى الفشل في كلا الميدانين . ولفت نظر الفوهرر الى اننا نحمل الجيش اعباء عديدة في وقت واحد ، فنثقل كاهله ونجعله ينوء بالحمل . فغضب وانتابته نوبة عصبية عنيفة واتهمني بالتمرد . وفترت علاقتنا منذ ذلك الحادث وغدت صعبة للغاية . وانقطع الفوهرر عن ارتياد نادي اركان الحرب ، واخذ يتناول طعامه منفرداً في حافلة القطار الخاصة به . ولم يبق يصافحني . وكثيراً ما تعامى عني وتحاشى مقابلتي . ولم اعد اقدم اليه التقارير اليومية في غرفة الخرائط لانه امر بان افعل ذلك في قاعة الاستقبال في حافلته بحضور ضابط كبير من ضباط الحرس الخاص . وعهد مارتان بورمان ، امين الحزب ، الى ثمانية كتاب اختزال بتسجيل احاديثي واقوالي . واعلمني كايتل ان الفوهرر ينوي ابدالي بالماريشال باولوس بعد ان يستولي على ستالينغراد . »

ولكن باولوس لم يستول على ستالينغراد ، بل استولى الروس عليه واصطادوه حياً . وكانت ثقة الفوهرر به في غير موضعها لانه بعد ان وقع اسيراً في ايدي السوفيات التحق بحزب « المانيا الحرة » الذي أسس في الاتحاد السوفياتي ، ودعا الالمان على امواج الاثير الى التخلص من هتلر . فكان ، على غرار الاميرال كاناريس رئيس مكتب الاستعلامات الالماني ، واحداً من مدبري المؤآمرة لخلع هتلر .

هذا بعض ما كان يجري في داخل جيش الرايش الكبير منذ ١٩٤٣ . على ان علاقة هتلر بجودل تحسنت بعد حين . وقد روى ذلك جودل نفسه في مذكرته الى قضاة نورمبرغ ، قال : « ونقت الايام جو علاقتي بالفوهرر بالتدريج ، او قل في الظاهر فقط ، الى ان كانت المصافاة في الثلاثين من كانون الثاني ١٩٤٤ يوم اعلن هتلر على الملأ انه ما يزال موقناً من انني اسأت اليه النصح ، ولكنه يعتبرني ضابطاً ممتازاً مخلصاً . ثم منحني وسام الحرب الذهبي . على ان ثقتي بعُدالة الفوهرر كانت قد تزعزعت وظلت كذلك . »

والحق يقال ان ظلم هتلر لقادته وقسوته عليهم وتحكمه بهم حطت من قيمة القيادة العسكرية الالمانية وذهبت بالكثير من صفاتها . فقد كان الغازي الالماني ينكر على قواده تلك الصفات ويأبى ان يقر بان الصفات العسكرية هي الجزء المكمل للصفات الفنية والتوجيهية .

قال كايتل في نورمبرغ : « استجوبتني في موندورف لجنة روسية عسكرية طوال يومين . ولما انتهى الاستنطاق انتحى بي جنرال

روسي وسألني : « ألا ، قل لي لماذا عزلتم زهرة قوادكم ؟ ان القيادة الروسية لم تنج من حوادث العزل ايضاً ، وحدث ان خلعنا عدة قادة لما خسروا بعض المعارك . ولكننا كنا نعيد من نجده منهم قديراً لنستخدم صفاته في ميادين اخرى . لقد خسر تيموشنكو مثلاً موقعة خاركوف ، ولكنه عاد فاصبح قائداً عظيماً . بدأتم انتم الحرب بقواد افذاذ ، ولكنكم انهيتموها بقادة من الصنف الثالث . »

محاضرة للجنرال جودل

كان الكولونيل جنرال الفريد جودل من ابرز القادة العسكريين الذين مثلوا امام محكمة نورمبرغ وانتهى بهم الامر الى المشنقة ، وكتب القسم الاعظم من الصفحات العسكرية في القضية الدولية الكبرى التي حسمها قضاة نورمبرغ . ولاغرو فقد كان فناناً عسكرياً ومن اعلام المفكرين الحربيين الالمان ، بنى ثقافته العسكرية على اساس تاريخي واعتبره القادة خير من اختص بتحليل حملات نابوليون واساليبه وفنونه الحربية . وقد ظل طوال الحرب رئيس قسم الاعمال الحربية في هيئة القيادة العليا ومستشار هتلر الاول ، بقدر ما تعني كلمة المستشار قياساً على ما رأينا من عناد زعيم الرايش وتحكمه وتمسكه بآرائه .

وكان جودل ، على غرار كايتل ، عضواً صغيراً من تلك الفئة الارستوقراطية التي احتلت المناصب الرئيسة في الجيش الالماني الاصيل . وما اعتبره القادة الالمان القدماء يوماً ولا احترموه ، بل استصغروه وقالوا عنه انه كزميله كايتل مطية ذلول للفوهرر . ولعلّ هذا الامتهان من الاسباب التي دفعت جودل الى الارتماء في احضان النازية والامعان في تشرب مبادئها وروحها . وقد حقد على الجنرالات القدماء وناصبهم العداء لانهم ما كانوا يعترفون به كواحد منهم او كندٍ لهم . وكان الى هذا معجباً

بدهاء هتلر العسكري وفنونه الحديثة ، ورأى فيه هاوياً يفوقه مقدرة وحنكة وهو العسكري المحترف . على ان جودل اظهر بعد نظر اكثر من سيده . ومما قاله في نورمبرغ : « بدأت الشكوك في انتصارنا تنتابني منذ شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ . »

وقد رأى القارىء في الفصول السابقة كيف انه حاول الاعتراض على تهور هتلر في قيادة دفة الحرب في ١٩٤٢ و ١٩٤٣ . واعترف جودل لقضاة نورمبرغ بالاخطاء الفنية التي ارتكبها سيده فقال : « شعرت بان الفوهرر بدأ بالتدريج يفقد ما عرف عنه من نظر ثاقب في الشؤون الحربية والسياسية ، وصواب تقديره للاحوال الدولية . وانتهى به الامر الى نوع من العناد الاعمى ، حتى انه اراد من الجيش الالماني الثبات في جميع الميادين الحربية دون الاهتمام بمراعاة الانسجام في تسيير دفة الحرب بوجه عام . وتمسك حتى النهاية بجميع فتوحاته حفظاً لنفوذه الى ان امرته فكرة واحدة وهي ابعاد ميادين القتال بقدر المستطاع عن اراضي الرايش .

« وحدث في ربيع ١٩٤٤ ان قدمتُ الى الفوهرر مذكرة بينت له فيها ان املنا الوحيد في الوصول الى صلح شريف هو الحيلولة دون نزول جيوش انكلوسكسونية الى اليابسة في اوروبا . واقترحت ان نضحي بالميادين الاخرى ، اذا اقتضى الامر ، لنحشد في فرنسا الوسائل الدفاعية الكفيلة بدفع خطر الغزو . فلم يعرني التفاتاً وضرب بنصيحتي عرضاً . »

وفي محفوظات نورمبرغ وثيقة طويلة رقمها ١٧٢ تتضمن نص

محاضرة القاها جودل في السابع من تشرين الثاني ١٩٤٣ بحضور زعماء الرايش وقادته من اعضاء الحزب النازي البارزين . ولهذه المحاضرة ، ولاسيما ملاحقها من الوثائق الصادرة عن هيئة القيادة الالمانية العليا التي استند اليها جودل في محاضرته ، اهمية تاريخية عظمى . فهي صورة شاملة لحالة المانيا وموقفها الحربي في مطلع العام الخامس من الحرب العالمية الثانية وقبيل غزو جيوش الحلفاء القارة الاوروبية ، فانكسار الرايش . وقد اسلفت ذكر بعض فقرات منها . وساشرحها هنا بالتفصيل والتحليل .

ان اولى فقرات المحاضرة ذات مغزى واضح ، فهي تدل على تداعي قوى المانيا المعنوية وتصدع الجبهة الداخلية . واليكها : « بدأ شيطان الفرقة يدب الى صفوفنا خطوة خطوة . فالمارقون يسعون الى الخلاص بما يسمونه حلاً سياسياً وينصحون بالمفاوضة بدلاً من ان يقاتلوا . ان الاستسلام يعني نهاية المانيا . وفي التراجع هلاكنا المحتوم . ولا يجدي العنف وحده في القضاء على هذه الدعاوة التي يبثها العدو ويؤخذ بها الخونة ويروجون لها . سارسم لكم صورة حقيقية مقنعة لاحوالنا لتجدوا العناصر الكفيلة برفع مستوى الامة المعنوي . »

واستعرض جودل بعدئذ الاحداث التي مرت بالمانيا منذ تسلم الحزب الاشتراكي الوطني مقاليد الحكم ، وبرر سياسة الفوهرر ، وعدد الانتصارات التي احرزها ، قال : « هل كان علينا ان نهاجم انكلترا في عقر دارها فنغامر في غزوة واسعة خطرة ؟ ثم انه كان ضرورياً حيال تدخل محتمل من الاميركيين في النزاع

لانقاذ انكلترا ان تسعى الى احتلال عدد من جزر الاطلنطيك كايسلندا واصور . ولا شك في ان احتلال هذه الجزر كان يتيح لنا تسديد ضربات شديدة محكمة الى خطوط اتصال الانكليز بالعالم ، والدفاع عن القارة الاوروبية كما يدافع اليابانيون اليوم عن آسيا الكبرى بفضل القواعد المتقدمة التي استولوا عليها في المحيط الهادىء . ولكن الفوهرر اظهر حكمة بالغة في تحويل انظاره عن هذه الاهداف لاسباب جوهرية ، منها ان بلوغها والدفاع عنها بعدئذ وحفظ الاتصال بينها وبين القارة ، كانت تقتضي قوة بحرية وجوية جبارة لم نكن نملكها . وفي المرحلة الاولى من الحرب يوم كانت لنا الغلبة التامة في البر وكنا متفوقين على العدو بمراحل في سلاحنا الجوي ، لم نستطع احراز النصر كاملاً بسبب ضعفنا في البحار . وما اقدمنا على غزو الجزر البريطانية لان وسائل نقلنا كانت مرتجلة ، ولاننا لم نستطع سحق سلاح الجو الانكليزي تماماً . »

وبعد ان تحدث عن افلاس خطة الاستيلاء على جبل طارق والانكسارات التي مني بها المحور في البحر المتوسط بسبب عجز ايطاليا ، انتقل الى المرحلة الثانية من الحرب فتكلم في الحملة على روسيا ، فقال : « بعد الهزائم التي منينا بها في روسيا سنة ١٩٤٣ يتبادر الى اذهاننا سؤال وهو : ألم نغمط قوة البلاشفة حقها في التقدير واستهنا بها كل الاستهانة ؟ اننا اذا نظرنا الى تفصيل الاعمال الحربية في الميدان الشرقي وجدنا ان الجواب على هذا السؤال هو : اجل ! ولكننا اذا نظرنا الى الهجوم على

روسيا باجمعه رأينا اننا قدرنا قوة الروس في مجموعها . والواقع ان ادارة دفة الحرب ليست عملية جمع حسابية بسيطة . ومن اهم دروس تجارب الحرب انه ليس اصعب من تقدير قوة العدو ، حتى لو قدر كل عنصر يشكل هذه القوة تقديراً صحيحاً ، فان هناك عناصر اخرى غير ثابتة كالاحوال الجوية وطبيعة الارض ومفاجآت اخرى مما لا يجعل الامر في جملته واضحاً ملموساً الا في ميدان القتال وابان المعركة نفسها . على ان الحالة تبدت لنا على حقيقتها في اثناء تقدم جيوشنا في الاراضي الروسية ، في تلك المجاهل المدلهمة ، في تلك الظلمة الفاحمة التي تعمي الابصار ، فاضطررنا للاسراع في تعزيز قوة جيوشنا ودعمها بجيوش جديدة وتجهيزها بوسائل حربية احسن ، حتى حشدنا جماع قوانا والقينا في المعمعة كل ثقلنا وما ملكت ايدينا . ولا بد ان تتملك كل واحد منا الرجفة اذا تصور ما كان يصيبنا لو اننا ظللنا منتظرين وسيف الخطر مصلت على رقابنا . ولو لم نقدم على العمل لكان العدو اخذنا على حين غرة . وعلى الرغم من اننا لم نوفق سنة ١٩٤١ ولا في العام التالي الى تحطيم قوة العدو الحربية او اخضاع روسيا ، فقد كان من اهم نتائج عملنا ابعاد خطر البلشفية عن حدودنا . »

وكانت سنة ١٩٤٣ حافلة بالمخاطر ، والهزائم يأخذ بعضها برقاب بعض ، فما استطاع جودل نكرانها او تبريرها . وتحدث عن بعض الاخطاء فقال : « بعد الانكسارات الاولى في شتاء ١٩٤١ على الجبهة الشرقية وفي افريقيا الشمالية ، جمع الرايش وحلفاؤه قواهم للتغلب على روسيا بهجوم جديد ، وتجريد الانكليز من قواعدهم

في غربي البحر المتوسط . على ان الاعمال الحربية الواسعة النطاق التي قمنا بها في اتجاه القفقاس ودلتا النيل قد فشلت بسبب قلة قواتنا وعدتها . ولاول مرة ظهرت غلبة اعدائنا الغربيين في الميادين الجوية سواء في عدد طياراتهم او في مفعولها . واستطاعت روسيا الثبات في ستالينغراد والقفقاس . وساعدها الشتاء وحالفها البرد فوفقت الى اختراق خطوطنا المترامية الاطراف التي يحتل حلفاؤنا قسماً منها ، على الفولغا والدون . وانهار الجيش السادس المؤلف من خيرة القوات الالمانية امام جحافل العدو الجرارة بسبب قلة مؤنها وتألب عواصف الشتاء عليها . »

وقد كلف نزول الجيوش الحليفة الى افريقيا الشمالية والحملة التونسية ، المانيا خسائر كبيرة لم يشر اليها جودل . واستطرد قائلا : « وفي نهاية شتاء ١٩٤٢ - ١٩٤٣ بذلنا منتهى الجهد فاستطعنا احياء الجيش السادس والجيش الخامس المصفح . ولكن خسارة حلفائنا لا تقل عن اربعة جيوش فقدوها الى الابد . »

ولم يدع الجنرال جودل لمستمعيه اي امل في نهوض المانيا وحلفائها في الميدان العسكري في مستقبل قريب ، حين قال : « لئن تكن جيوشنا اليوم في الشرق معدة احسن العدة ، فان قلتها العددية بالنسبة الى كثرة جيوش العدو ، لا تسمح لها بشن غارات كبيرة هامة . لقد فقد جيشنا عامل السرعة الذي امتاز به ، وانقضى عهد غلبتنا في الجو على الجبهة الغربية ، وبدأنا نحس بقوة اعدائنا الاقتصادية وكثرة عددهم تضغطان على اوروبا بشكل جدي . وليس لجهد المانيا مهما بلغ من القوة ان يعوضنا

من افلاس ايطاليا التام في جميع الميادين ومن عجز حلفائنا جميعاً عن انتاج ذخيرة كافية او متوسطة على الاقل . فانتقلت المبادرة الى اعدائنا واضطررنا والامم التي تقاتل في صفوفنا لألتزام موقف المدافع . »

ووصف جودل بعدئذ استسلام ايطاليا وعواقبه الوخيمة ، فاعترف بان وجود المانيا في وسط الدائرة الحربية يمنعها من القيام بنقل جيوشها من ميدان الى ميدان كما فعلت سنة ١٩١٧ ومطلع سنة ١٩١٨ يوم احرزت انتصارات عظيمة خصوصاً وان العدو متفوق عليها بالعدد في كل مكان . وعدّد الازمات التي تنهش المانيا التعبة من قلة الرجال المحاربين ، الى قلة الايدي العاملة ، الى نقص المواد الخام . ومضى في محاضرته قال : « ولكن الكابوس الاهم الذي يثقل اليوم كواهلنا في الداخل وفي ميادين القتال هو الغارات الجوية المرعبة على بيوتنا ونسائنا واطفالنا . وهكذا تحولت الحرب التي اثارتها انكلترا الى مجزرة بشرية همجية تذكرنا بالحروب العرقية والدينية في العهود الخالية . وقد بلغ تأثير هذه الغارات الارهابية في نفس الشعب وقواه المعنوية وفي مرافقنا الحيوية ، حداً اصبح معه تخفيفها ، ان لم اقل وقفها ، محتوماً . والحق يقال ان لهذه المصيبة كسواها من المصائب العظمى ، فائدة اذ انها تجمع افراد الامة امام الخطر وتحل كثيراً من المشاكل الاجتماعية وتقضي على النيات الشريرة والاطماع والغيرة وعلى جميع نزعات النفس البشرية . ولكن هذا لا يعزّينا . اوصلتنا الى الحالة التي نحن فيها اليوم تلك الجهود الجبارة التي

فرضنا على سلاحنا الجوي بذلها ، وعجزنا عن الاحتفاظ بمستوى يوازي مستوى اعدائنا في حقل انتاج الطائرات وتنويعها وتحسين اصنافها . على ان جهود الفوهرر وماريشال الرايش سيتغلبان على هذه الازمة . وقد بدأنا نلمس اولى نتائج هذه الجهود . ولسوف نفلّ قوة قاذفات العدو ذات المحركات الاربعة الجبارة بمدفعية مضادة بعيدة المرمى ، سديدة . ويكفي العدو انه يفقد حتماً عشرة الى اثني عشر في المائة من طياراته في النهار والليل . وقد يكون قادراً على تعويض هذه الخسارة المادية . اما خسارته في الطيارين فهي ثغرة يعجز عن سدها . يضاف الى هذا ان قوى المغيرين المعنوية ستنهار بعد حين ، والاميركيون في الطليعة لأنهم جماعة لا يدركون من الدنيا سوى مصلحتهم والشؤون المادية ، وليست لديهم اي فكرة عن السبب الذي من اجله يقاتلون ... وانا واثق بان الغارات الاجماعية التي تمطرنا سيلاً من القنابل الهدامة والمحرقة ستدور دائرتها على العدو نفسه . »

كان هذا اول أمل اوحاه الجنرال جودل الى مستمعيه زعماء الرايش . ثم سعى الى اظهار بصيص آخر من النور في الظلمات التي اكتنفت المانيا فقال : « على ان آمال القيادة والشعب الالمانيين معلقة بحرب الغواصات التي تعدّ سلاحنا الهجومي الوحيد الفعال . ولئن نكن قد منينا بخسائر ثقيلة المحمل في الشهور الاخيرة فلم نستطع انزال الضربات الشديدة نفسها التي انزلناها بسفن الاعداء بسبب الحماية الجوية ووسائل العدو لاكتشاف الغواصات وقنابله المضادة لها ، فان هذه العقبات ستذلل . وقد

اعددنا العدة لتحطيم وسائل العدو الدفاعية وجعل حرب الغواصات اكثر فتكاً . »

كان بيان جودل اعترافاً بالهزيمة ، ودل بشكل لا يقبل الشك على ان اعداء المانيا اجتازوها بمراحل في جميع ميادين القتال وتفوقوا عليها في معظم انواع الاسلحة ، وان انهيارها تحت ثقلهم المتزايد بات محتوماً . وتستدعي حالة كهذه عادة في كل دولة يحتفظ اربابها بشيء من الحكمة وبعد النظر ، سعيها الى المفاوضة للصلح او للاستسلام حقناً لدماء تراق عبثاً . ولكن الجنرال جودل انهى محاضرته بالتوجه الى الفوهرر فقال لمستمعيه : « الا ، انني لست بائساً وثقتي بالمستقبل تستند الى ان حظ المانيا كبير في ان يقودها رجل خلق ليسير بشعبنا الى مستقبل عظيم زاهر . ويقيناً ان الفوهرر هو الروح السامية التي تدير دفة الحرب والسياسة العسكرية ، والارادة الجبارة المبدعة التي تستمد منها جيوشنا القدرة على الاقدام والثبات . واود ان اؤكد لكم ، ختاماً ، ان اعتمادنا على الفوهرر لا يحدّ وان ثقتي بزعيم البلاد واخلاصي له عظيمان . »

هذا ما قاله جودل نفسه الذي حاول ان يثبت لقضاة نورمبرغ انه كان يومذاك شبه معزول من منصبه ، وان ثقته بعدالة هتلر وصواب مبادئه وآرائه كانت قد تضعضعت .

وشفع جودل محاضراته بارقام وبيانات قدمتها له هيئة القيادة العليا وهي ترسم صورة واضحة كاملة لقوى المانيا في تلك المرحلة النهائية من الحرب . ففي فنلندا كان للالمان جيوش من الصنف

الممتاز قوامهم مائة وستة وسبعون الف رجل ، وبلغ عدد جنودهم في النروج ثلاثمائة وثمانين الفاً تشكل ثلاث عشرة فرقة والف مدفع من قطر ما فوق عشرة مليمترات ، وفي الدانيمرك لم يكن لهم سوى ثلاث فرق ضعيفة ، بلغ مجموع جنودها مائة وستة آلاف وخمسمائة رجل .

وفي الغرب حيث كانوا يتوقعون نزول جيوش الحلفاء لم تكن قواتهم كافية . وقد ذكرت هيئة القيادة في تقاريرها ان كثيراً من المراكز الساحلية كان شبه مكشوف لغزو محتمل ، وان الخطوط الحديدية والطرق المعبدة تساعد الاعداء على التقدم بسرعة فيها كل الخطر على الجهاز العسكري الالماني باجمعه . ومما جاء في التقارير الالمانية المنوه بها : « اصبح ثابتاً ان نزول جيوش الاعداء الى اليابسة على سواحل الاطلنطيك التي نحتلها يوصلها حتماً الى بلجيكا وهولندا وشمالي فرنسا والى مناطق المانيا الصناعية في الغرب ، ويهددنا بكارثة عظمى . ويكفي العدو ان يثبت اقدامه ، ولو في نقطة ارتكاز واحدة ، ليهددنا بخطر وخيم العواقب ، لأن ما يملكه بكثرة من الرجال والعتاد يساعده على توسيع هذه النقطة او هذا الجسر ، واختراق خطوطنا . فيجب علينا دفع غارة العدو وتحطيم المهاجمين قبل ان يصلوا الى سواحلنا . ومن المحال ، كما هو معلوم ، تعزيز الدفاع عن هذه السواحل الممتدة على مسافة الفين وستمائة كيلومتر بجهاز محصن بعيد الغور بنسبة واحدة على طول جدار الاطلنطيك . الا ان عدد المواقع ونقط الارتكاز التي حصناها اوسع واقوى من اي

جهاز محصن في العالم ، حتى من خط ماجينو ذاته . »

كان الالمان قد بنوا في البحر سدوداً بلغت خمسة ملايين وثلاثمائة الف متر مكعب من الاسمنت المسلح ، وكانوا يحتلون ثمانية آلاف واربعمائة وتسعة واربعين مركزاً بصورة دائمة ، وركزوا الفين وستمائة واثنتين وتسعين قطعة مدفعية من عيار ما فوق ٧٥ مليمتراً والفين وثلاثمائة واربعة وخمسين مدفعاً مضاداً للدبابات . اما الفرق الالمانية المرابطة على السواحل فقد تعدت السبع والعشرين منها واحدة وعشرون بما فيها احدى عشرة فرقة مصفحة ، مستعدة لشن هجوم معاكس لهجوم الحلفاء . وكانت سبع فرق اخرى جديدة في طور التشكيل ، منها ثلاث مؤلفة من المظليين ، فبلغ مجموع عدد الجنود الالمان المقاتلين مليوناً وثلاثمائة وسبعين الفاً وسبعمائة وثمانية . . . كان جهداً حربياً جباراً بذلت فيه المانيا عصارة قواها ومواردها .

وفي الشاطىء المقابل من بحر المانش حشدت القيادة الحليفة العامة ، بانتظار الهجوم ، اربعين او واحدة واربعين فرقة مشاة (منها أربع او خمس فرق اميركية) ، وتسعاً من الفرق المصفحة ، وفصيلة مدرعة ، وفرقتين تنقلان جواً ، وسبعة افواج من المظليين . يضاف الى ما تقدم قوة ناقلات الجيوش ووسائل الغزو الحليفة التي تضاهي احدى عشرة او اثنتي عشرة فرقة مشاة وفرقة او فرقتين مصفحتين .

وقد ذكرت القيادة الالمانية العليا في تقاريرها ان قوات العدو ووسائله كافية منذ الان لشن هجوم على القارة واسع

النطاق ، وتوقعت ان تزداد في الشهور التالية . وختمت قائلة : « اذا افترضنا ان الهجوم الغربي وقع فعلاً ، وافترضنا اننا جمعنا كل قوانا في الميدان الغربي ، فلن نستطيع رد الغزاة على اعقابهم . وينبغي لنا لخوض المعركة المرتقبة التي ستقرر مصيرنا في هذه الحرب ، ان نستخدم كل جندي الماني قادر على حمل السلاح ونترك الوطن خالياً من الجنود تقريباً . »

وتثبت هذه الوثائق ان الهجوم الانكليزي – الاميركي في حزيران ١٩٤٤ على القارة الاوروبية لم يفاجىء الجيش الالماني ، ولا لاقى عدواً على غير استعداد . واذا اعتبرنا المصاعب الفنية التي تعترض عمل انزال جيوش من البحر الى اليابسة ، كتعرض المهاجمين لضربات المدافعين وافضلية هؤلاء من حيث تسديد الهدف ، يبدو غزو النورماندي من ابرز واعظم الانتصارات الحربية في التاريخ واكثرها مفعولاً في تقرير مصير حرب عالمية كبرى .

ولم يكن للالمان في ايطاليا ، الجبهة الثانوية ، اكثر من ثلاثمائة وستة وتسعين الف رجل . اما البلقان فقد اقتضاهم حشد قوات اكبر حفظاً لموارده اللازمة للاقتصاد الحربي الالماني ، اذ كان يقدم لالمانيا خمسين في المائة من الوقود ، وكل حاجتها من الكروم ، وستين في المائة من البوكسيت ، وتسعة وعشرين في المائة من الانتيموان ، وواحداً وعشرين في المائة من النحاس . وكان الالمان الى هذا مضطرين لتجميد حاميات كبيرة احتياطاً لغزو محتمل ، ودفعاً لغارات الانصار الذين كانوا مسيطرين على

الجبال ومشرفين على مناطق شاسعة . وقد قدرت القيادة الالمانية عـدد رجال عصابات تيتو بتسعين الفاً ، ورجال ميهايلوفيتش بثلاثين الفاً ، يضاف اليهم عشرون او خمسة وعشرون الف يوناني يأتمرون امر زرفاس . وكان مجموع القوات التي تحتـل جنوبي شرقي اوروبا اربعاً وعشرين فرقة المانية قوامهـا ستمائة واثنتا عشر الف رجل . وعلى هـذا نرى ان المانيا كانت مستعدة اتم الاستعداد للجبهة الثانية قبل ان يضع اول جندي مـن جنود الحلفاء قدمه في النورماندي اذ حشدت ستمائة الف رجـل في البلقان ، واربعمائة الف في ايطاليا ، ومليوناً وثلاثمائة الف في فرنسا ، وخمسمائة الف في الدنيمرك والنروج ... وامتصت القلعة الاوروبية الجبارة جماع موارد المانيا وقواها واضعفتها في الميدان الحربي الرئيسي : روسيا .

قالت هيئة القيادة الالمانية العليا في تقاريرها : « من المحال حشد جيوش المانية كافية على طول الجبهة الروسية الممتدة عـلى مسافة الف ومائتي كيلومتر ، مما اضطرنا الى اتباع نظام دفاع متنقل حسب تطور القتال . وهذا ما يتيح للعدو فرصة القيـام بمداورات كثيرة ومفاجأتنا من حين الى آخر . وعلى هذا يصعب علينا تشكيل تجمعات هجومية او دفاعية في نقـاط معينة سواء للتقدم او للثبات في مراكزنا . وكان طبيعياً ان نصطـدم في معظم الاحيان بقوات روسية تفوقنا في العدد بمراحل . اما قوة جيش المشاة الروسي الحربية فهي في تدنٍ مطرد على الرغم مـن ان تدريبه يتحسن بشكل محسوس . الا ان سلاح العدو يزداد

فتكاً وكثرة (اسلحة آلية سريعة واعتدة ومعدات ثقيلة) . وتنهال المدافع على الجيش الروسي مدراراً ، ولا يقل ما تنتجه روسيا منها في الشهر عن الف ومائتي مدفع . ويعتمد الروس في استخدام المدفعية خطة فعالة ، فهم يصبون حممهم على مناطق ضيقة جرياً على الخطة الالمانية ذاتها ، ويشكلون فرقاً مدفعية خاصة لهذا الغرض ويستهلكون الذخيرة بدون حساب . وتشكل القيادة الروسية في الوقت ذاته وحدات خاصة (فصائل مكافحة الدبابات واخرى لاستخدام مدافع الميدان) على نطاق واسع جداً . وفي مطلع الحرب لم يكن الروس يملكون اكثر من واحد وعشرين الف دبابة معظمها خفيف وعتيق . وفي اول تشرين الاول ١٩٤٣ اصبح ما لديهم من الدبابات الثقيلة من آخر طراز تسعين الفاً . وبين حزيران ١٩٤١ وتشرين الاول ١٩٤٣ خسر الروس ما يقارب اثنين وخمسين الف دبابة . ويبلغ انتاج الدبابات الروسية الشهري الفاً وسبعمائة دبابة . ويؤلف الروس منذ حين تشكيلات حربية فنية لمهات بعيدة كالتوغل في صفوفنا بواسطة الدبابات وابادة بعض فصائلنا بعد عزلها وتطويقها ، ويتبعون خطة التجمعات في مراكز معينة ذات اهمية عسكرية كبرى في سير المعارك الطويلة النفس .

« اما السلاح الجوي الروسي فهو ما يزال اضعف من سلاحنا الجوي بمراحل . الا ان تحسناً ملموساً يتبدّى في قيادته وتنظيمه وعدته . وقد نزلت الى الساحة اعداد وفيرة من طائرات القتال الروسية الحديثة كان فعلها في قواتنا شديداً . واتبعت القيادة

السوفياتية العامة منذ ١٩٤١ كثيراً من الاساليب العسكرية الالمانية وعدلت عن خطة : « لا تتراجع خطوة » ، واستعاضت عنها بحركات الانسحاب بانتظام ، وجعلت هذه الحركات ديدنها . واصبحت القيادة الروسية اكثر وعياً وليناً ، وبدأت تغتنم اقل فرص الضعف في صفوفنا لتسدد الينا ضربات مفاجئة .

« وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي يمنى بها الروس في الرجال ، يزداد جنودهم ازدياداً عظيماً بالتعبئة الكاملة التي لا تعرف للرحمة معنى . وبعد ان كان قوام الجيش الاحمر في اول كانون الثاني ١٩٤٢ مليونين وثلاثمائة الف رجل كحد ادنى ، اصبح اليوم في حده الاقصى خمسة ملايين وخمسمائة الف رجل . وهناك تعبئة فرق احتياطية فنية خاصة بمعارك الشتاء قائمة على قدم وساق ، ويقدر مجموعها بخمسين فرقة . وتبلغ اليوم فرق الجيش الاحمر ثلاثمائة وسبعاً وعشرين فرقة مشاة ، وواحدة وخمسين فرقة مصفحة . »

هذه هي الصورة التي رسمتها القيادة الالمانية نفسها لجيش في ازدياد وتقدم مطردين ، لجيش جبار تغذيه بلاد جبارة غنية بالرجال والموارد لم تمس قواها الاساسية رغم جراحاتها ، جيش انبثق عن تجارب الحرب القاسية ، وتألف معظمه في ابان المعمعة ، واتخذ من كل هزيمة درساً افاده قوة ودربة .

وامام هذا الجيش الجرار حشدت المانيا مائتي فرقة تساعدها عشر فرق رومانية وست مجرية ، مجموعها اربعة ملايين ومائة وثلاثة وثمانون الف رجل ، منهم ثلاثة ملايين وتسعمائة الف الماني .

كانت هذه قوة جبارة لها قيمة حربية عظيمة . ولكنها كانت في انحدار مطرد لا بسبب قلتها العددية بومذاك بالنسبة الى الجيش الروسي ، بل بسبب ضعفها النسبي المتزايد في النواحي الفنية . فقد كان الجيش الالماني تعباً اشبه بسيف مثلم يعتمد على بلاد منهوكة القوى هدمتها الغارات الاميركية والانكليزية الجوية واكتسحت مصنع آلتها الحربية ، بلاد اعطت منتهى انتاجها وزرعت فيها بذور الموت بكثرة .

في الشرق والغرب ، في كلا الميدانين الرئيسين ، اثبت تحليل الالمان انفسهم للموقف الحربي وشرحُ اقرب المقربين الى الفوهرر حالة المانيا ، ان الرايش الالماني الثالث غلب على امره واصيب بطعنة في الصميم لا ينجع فيها دواء .

وان نعجب فالعجب من ان المانيا استطاعت الثبات سنة ونصف السنة بعد جراحاتها القتالة . وكان صوت هتلر في برهة النزعُ هذه يدوي في العالم : « لن استسلم ، لن ارمي السلاح وفيَّ رمق ... »

ومضى الغازي في اغراق العالم ببحور من الدماء والدمار دون ان تأخذه رحمة بامته التي كان يجرها الى هوة ابعد غوراً من القبر الذي حفره لنفسه بيده ، الى العبودية والخراب لسنين طويلة . وكانت جنايته على الشعب الالماني من اعظم الجنايات .

هتلر يقرر ان يموت في برلين

في خريف ١٩٤٤ ساءت صحة هتلر واخذت بوادر التعب تظهر عليه جلية . وبدا ، كما وصفه كايتل ، كمن اناخت عليه السنون والمصائب ، فناء بكلكلها . وكان في راستنبورغ ببروسيا الشرقية يستمسك بها كالغريق يتعلق باسباب النجاة ، بينما اندفع الروس جحافل جرارة يدقون ابواب الرايش وترجع برلين خفق نعالهم ...

واشفق الغازي الالماني ان هو رحل عن راستنبورغ ان تضيع بروسيا الشرقية مهد التوتون وينبوع الروح العسكرية الجرمانية ... وخفت صوته وبصق دماً وانتابته آلام في المعدة مبرحة ، وذهبت بحاشيته الظنون شتى المذاهب ، وقيل ان سماً دس له لكثرة ما اشيع عن المؤامرات المدبرة لاغتياله . قال كايتل : « كثيراً ما قضى الفوهرر يومين بل ثلاثة ايام احياناً في الفراش . وما كان لينهض الا ليتقبل التقرير اليومي عن سير الاعمال الحربية . وامر بألا يدخل عليه احد قبل ان يرتدي ثيابه كاملة ، وألا يطول مكوث زائريه اكثر من نصف ساعة اشفاقاً على صوته وصحته . » وقد نصح له كايتل بان يعود الى برلين فرفض اولا خوفاً على بروسيا الشرقية ان تفلت منه ان هو غادرها . ولكنه اعلن بعد حين : « يجب ان استعيد صوتي

لاخاطب الشعب الالماني . انه بحاجة الى هــذا الصوت يطمئنه ويبعث الامل في نفسه . » وفي مطلــع كانون الاول عاد الى المستشارية الجديدة في برلين وكانت قد اصبحت كتلة خربة ينعق فيها البوم . واجرى له اطباؤه عملية في حنجرته فاستعاد صوته . وكان في غضون مرضه يصدر اوامره كتابة من ملجأه الخاص . ورسم خطة الهجوم في الاردين ، آخر بصيص في سراج الجيش الالماني ، وآخر كرّة مــن النمر قبل ان يسقط تحت ضربات صياديه . واستدعى هتلر لقيادة دفة هذا الهجوم الماريشال فون رونشتيد بعد ان كان قد عزله مرتين . وقبل ان يسافر الماريشال العجوز الى الجبهة ، زار الفوهرر . وكان يبدو كمن رد اليــه شبابه املاً باحياء مجده الغابر والعود الى ميدان الفخار والظفر ، ميدان ١٩٤٠ . وبينما كان الشعب الالماني في بأس قتال طلــع عليه الفوهرر في عيد الميلاد بخطاب من خطبه النارية بشّره فيـه بالجيش الجديد ، جيش يضرب فيبيد ، ويكر فيهزم . فاحيا موات الامل وانعش امـة تحتضر ، فارتعشت تلك الرعشة التي تسبق الرقود الابدي ...

وكانت مدينة انفرس هـدف الهجوم في الاردين ، كما قال جودل . وظلت دبابات رونشتيد بضعة عشر يوماً تتقدم في بلجيكا بحماية طيارات صاروخية قوية مــن نوع جديد . وشعرت بلاد الغرب ، ولما تكد تتحرر ، بكابوس مرعب ، وخيل اليهـا ان المانيا قامت من كبوتها وصحت بعد غيبوبة .. وما كانت هـذه النهضة في الحقيقة الا الاخيرة قبل السقطة الابدية . وسرعان ما

انطفأت ذبالة الجيش الالماني . وقال هتلر لكايتل عن روندشتيد : « هذا عجوز لا يصلح للنهوض ، ولا يملك من النشاط ما يسمح له بالتنقل من طرف الجبهة الى طرفها الآخر . » ولكنه لم يسحقه، بل عزله مكرماً ومنحه وسام الصليب الحديدي وقال له : « اذهب واسترح فقد احتاج اليك . »

ومنذ ذلك الحين غدت المانيا هدفاً تكاثرت عليه السهام والنصال ، واخذت الدائرة العالمية التي تألبت عليها تضيق وتضيق . وامطرتها السماء ناراً وحديداً ، فلم تعرف الراحة ليل نهار . واشتد ضغط الحلفاء من الغرب على الرين فانهار الحاجز الالماني وتضعضع خط الدفاع ، بينما انقض الروس على خط الاودر من الشرق فسحقوه ، بل غمروه بجحافلهم . ووقف دولاب الصناعة وانقطعت القطر عن السير في المانيا . وروّع السكان الالمان ، وصم اذانهم وبث في نفوسهم الرعب هدير الراجمات الجبارة تنقض على بلادهم انقضاض الصواعق بعشرات الالوف يزحم بعضها بعضاً ، ولا ينقشع سرب الا لتعقبه اسراب . وايقن الشعب ان ساعة الهزيمة آذنت ، وان الكارثة محتومة . ولكن تلك الارادة العنيدة الطاغية ابت الا المضي في النضال . وازدحمت مكاتب التجنيد بالشيوخ والاحداث والمقعدين تسوقهم القياده العليا الى سوح النطع . لقد كان شعار هتلر مذ امسك بمقاليد الحكم : « لن استسلم ! » ولم يستسلم . وابى الا ان يمضي في الصراع المميت حتى النهاية ، بل ابى ان يتخلى عن فتوحاته . كان الرايش متمسكاً بايطاليا والبلقان والمجر والنروج يحتفظ فيها

وفي الجبهة الغربية بثلاثة ارباع قوى المانيا ، بينما كانت سهام الحلفاء قد اصابت الرايش في الصميم .

وفي اواسط نيسان ابلغ جودل وكايتل زعيم الرايش ان الحيلولة دون اتصال الاميركيين والروس مستحيلة ، وقطعا كل رجاء من انقاذ برلين . فما رضي بالتسليم واجابهما ان الحرب لم تنته . وظلت القيادة العليا على طاعتها العمياء لهتلر . ونزلت على اوامره فنظمت خطة جديدة للدفاع . وسُلمت للاميرال دونيتز مقاليد شظايا الرايش الالماني الكبير في قسم من بلاد البلطيك وقطعة من بروسيا الشرقية والنروج وهانوفر وقطاع همبورغ . وأنشئت مقاطعة اخرى دفاعية من بافاريا والنمسا وقسم من ايطاليا الشمالية ، على ان يستمر القتال في جبالها . ولما عرض كايتل وجودل هذا التقسيم على الفوهرر غضب واشفق ان يصير امر الرايش الكبير الموحد الى القسمة ، وان تقطع اوصاله ويفقد عاصمته وقلبه النابض برلين . ولكن الاحداث العسكرية كانت تترى والخطر مداهم . وبدأت هجرة الحكومة النازية الى برشتسغادن عاصمة اليأس والهزيمة والزوال .

وحل عيد ميلاد الفوهرر في العشرين من نيسان . وكان تقويم ١٩٤٥ يشير الى هذا العيد باحرف كبيرة حمراء . ولكن الدور البرلينية التي نجت من ضربات الحلفاء ما كانت لها نوافذ لتعلق عليها الاعلام والزينة ... ومع ذلك احتفل قصر المستشارية بالعيد ، وتوافد على القصر جماعة من بقايا برلين ، واصطف غورنغ ودونيتز وبورمان وكايتل وجودل وبعض الضباط والموظفين

في قاعة الاستقبال ينتظرون الفوهرر . وطلع عليهم هتلر وقد احنت ظهره الكارثة ، وشد على ايديهم شاكراً . ولما وصل الى كايتل قال له : « لقد انقذتنا ! والحق يقال ان ما اقترحته عليّ في راستنبورغ كان الصواب كل الصواب ، وانا مسرور لانني تبنيته . فاشكر لك وارجو ان تتحسن الحال . » وشكر الحاضرون للفوهرر كل بدوره وهنأوه بصحته .

وما انتهى هذا الاحتفال الحزين حتى بدأ استعراض الاحداث العسكرية . وكان عرضاً طويلاً مظلماً لا بصيص فيه لنور . واختلى هتلر بعدئذ بغورنغ . ولما اقترب كايتل قال له : « يقترح ماريشال الرايش ان ننتقل الى برشتسغادن . ولست ارى محظوراً من هذا . » قال كايتل في نورمبرغ : « كانت الساعة حينذاك السابعة مساء ، ففوجئنا بغارة من تلك الغارات الجوية الجهنمية ، واسرعنا الى الملاجىء ووصلناها في آخر لحظة اذ انصبت على قلب برلين اطنان من الحديد والنار . . »

وبعد يومين ، في الثاني والعشرين من نيسان ١٩٤٥ ، كان هتلر في منتهى البلبلة والارتباك وضيق الصدر . واستدعى غوبلز وزوجته واولادهما . واستمع الى التقرير العسكري اليومي وهو غائب عن الوعي . ولما همّ الحاضرون بالانصراف استبقى بورمان وكايتل . وقد روى هذا الاخير في نورمبرغ ما حدث يومذاك ، فقال : « نظر الينا هتلر والالم بادٍ في نظرته وسحنته وقال : « سأبقى في برلين حتى اللحظة الاخيرة ... » فانتفضتُ لهذه المفاجأة . وكانت الطائرات جاهزة لنقلنا الى برشتسغادن ، وكان

جانب من القيادة قد انتقل اليها فعلاً . ولكن كان في برلين ايضاً جيش الجنرال وينك المخصص للدفاع عن العاصمة حتى آخر لحظة . وقد نظم هتلر بنفسه هذا الجيش ، وجمعه من خيرة الفرق الالمانية المنتشرة في مختلف الميادين ، وحشده في جنوبي همبورغ حيث يحمي جنبه الشرقي نهر الالب . وكان ينوي ان يخرج به على الجيوش الاميركية المتقدمة في شمالي هارز وقد اعتبرناها ضعيفة . »

وكان نجاح هذه المناورة العسكرية اللبقة محتملاً لان تقدم الاميركيين السريع افقدهم النظام وجعلهم هدفاً سهل الاصابة بسهم يأتيهم من الشمال . وعلى هذا كان ممكناً تأخير غزو المانيا فترة اخرى ، بشرط ان يتخلى الالمان عن برلين . ولكن الفوهرر كان عازماً على البقاء في العاصمة . واذاع على الشعب بياناً يبشره فيه بان هتلر باق في برلين ولن يغادرها ابداً ، وانه عازم على الذود عنها حتى آخر رمق .

قال كايتل مسترسلاً في رواية ما حدث في قصر المستشارية : « وامرني هتلر بالسفر الى برشتسغادن . فسألته : وانت متى تلحق بنا ؟ فاجاب بانه لن يتحرك من برلين . فاصررتُ على البقاء بدوري . فابى وقال : هذا امر عليك طاعته . واستدعى جودل فتقدم منه ، فطلب اليه ما طلبه مني ، فاجابه جودل : ولكنك لن تستطيع بمفردك قيادة معركة برلين بدون معونة اركان الحرب . فقال : ينوب عني ماريشال الرايش غورنغ في القيادة . . »

وطال الجدال ودام اكثر من ثلاث ساعات . واكد القواد للفوهرر انهم لو علموا بعزمه على البقاء في برلين لكانوا اعدوا العدة للدفاع عن العاصمة ، ولكن تبديل الخطط لم يبق ممكناً ، وابلغوه ان جيش وينك بانتظار الامر للعمل ، وان التخلي عن العاصمة وشن هجوم علـى الاميركيين يحسّنان الوضع تحسيناً ملموساً . الا ان هتلر كان مصراً على الدفاع عن برلين عاصمة ملكه وآخر مظاهر سؤدده . فلم ينثنِ . وكان امله في اجتناب الكارثة النهائية القاضية لم يمت .

غير انه ايقن في النهاية ان كل امل قد ضاع ، وان الرايش يلفظ انفاسه ، وان نهايته هو نفسه قد دنت . وآمن بان الاساليب العسكرية الفنية لا تجدي امام تألب العالم عليـه . واضاع كل امل بانجاز صنع ذلك السلاح السري الجبار : القنبلة الذرية ، بعد ان انزلت الطيارات الحليفة بمصانعها ومختبراتها ضربات قاضية . ولم يبق للغازي الا الموت . وارادها ميتة رفيعة . وما كانت برشتسغادن بالمدينة التي تصلح مقـبرة لزعيم الرايش ، فاختار برلين . . .

وكانت الساعة الثامنة مساء . ولم يبق في المانيا من عزيمة لا تفل سوى عزيمة الفوهرر على البقاء في عاصمة دولته المقوضة . وانتهى الامر بكايتل الى الخضوع لهذه الارادة الجبارة ، فقال : « سأذهب بنفسي الى جيش وينك لاشرح لقادته الحـالة وانظم الدفاع عن برلين . وآمل ان اراك غداً صباحاً واطلعك على ما يتم . وسيبقى جودل في مكتبي . »

كان الفوهرر في تلك الساعة هادئاً مستسلماً كمن وطد العزم على امر نهائي حاسم . ولما هم كايتل بالانصراف ، استوقفه قائلاً : « لبكن ما تريد ، ولكن قبل ان تذهب خذ ما تتبلغ به . » قال كايتل في اعترافاته : « واهتم الفوهرر نفسه بان يستحضر لي بعض الساندويش والشوكولا ونصف زجاجة من الكونياك . »

وانصرف كايتل وجودل وركبا السيارة جنباً الى جنب حتى منتصف الطريق الى مركز القيادة العامة في كرومبرانز بضواحي برلين الغربية . وفي الطريق قال جودل : « لم يبق امامنا سوى معركة واحدة هي معركة برلين . ان مصيرنا جميعاً معلق بها . وسادوسها هذه الليلة بمنتهى الاهتمام . »

لقد كان لماريشالات نابوليون في فونتينبلو الشجاعة لأن ينصحوا نابوليون بالتسليم رحمة بفرنسا . ولكن القادة الالمان اعوزتهم الجرأة على منع هتلر من تنفيذ رغبته الاخيرة ، وبالتالي اجتناب مجزرة لا امل يرجى منها .

ومن مغدبورغ ، او من خرائب مغدبورغ ، توجه كايتل الى مركز الجنرال وينك وابلغه مهمته الجديدة وهي الدفاع عن برلين ، واصدر اليه اوامر عامة في هذا الصدد ، كما اكد ذلك بنفسة في نورمبورغ ، ثم توجه الى صفوف الجيش فاستعرضها . وفي اليوم التالي ، الثالث والعشرين من نيسان ، وكانت الساعة الواحدة بعد الظهر ، عاد الى كرومبرانز واصطحب جودل الى قصر المستشارية . كان هتلر هادئاً ، بينما راحت مدافع الروس البعيدة المرمى تقصف برلين فتسمع لدويها جلبة تقصم الظهور .

وابلغ كايتل الفوهرر نتيجة رحلته ، فارتاح الى ان جيش وينك على اتم الاستعداد . هذا ما قاله كايتل . وقد تكون الراحة التي تحدث عنها ، هي تلك الراحة الرهيبة التي يتركها اليأس القتال في النفس المستسلمة .

قال كايتل للفوهرر : « سأذهب لأخذ قسطاً من النوم ، ثم ازور جيش وينك واتفقد مراكز القيادة في الشمال الغربي . وساحاول ان اقدم خط القتال باجمعه الى الامام بعيداً عن العاصمة . فاجابه هتلر قائلاً : لن تستطيع فعل كل هذا في يوم واحد . ويمكنك زيارة جيوش هينريشي غداً او بعده . »

وانصرف كايتل . وفي الرابع والعشرين لما كان عائداً اوقفت سيارته . فقد طوق الروس برلين بحركة التفاف سريعة وانتقل مركز القيادة الالمانية العليا في كرومبرانز الى مضارب في غابة مورستنبرغ . وعند الظهر وصل كايتل الى هناك واتصل بجودل فابلغه هذا انه خابر الفوهرر وحاول مرة اخرى ان يثنيه عن عزمه ويحمله على مغادرة برلين ، فاخفق .

قال كايتل : « فطلبت طيارة من مطار رويشلين . وكنت اريد الهبوط في برلين في المساء . فاكد لي مركز الرقابة ان ضباباً كثيفاً يخيم على المدينة ، فارجأت السفر . وسعيت عندئذ الى جمع بعض الافواج والذخائر لارسالها الى برلين جواً . واخبرت الفوهرر بذلك بالتلفون واذكر انه قال لي : « ارسل النجدة اولاً ثم آت بنفسك . » ولكن معاون الفوهرر فون بيلو اخبرني في اليوم التالي ، الخامس والعشرين من نيسان ، ان حقل الهبوط

الذي انشىء على ابواب براندبورغ في وسط الخرائب قد اصيب بقنابل عديدة ولم يبق بصلح لهبوط الطائرات . ثم انقطع الاتصال بالتلفون مع العاصمة . وسعينا الى الاتصال ببرلين بالراديو ، فنصبنا حاري الاستقبال على كرة علقناها في الفضاء وكان الاتصال ميسوراً بسهولة ، ولكن الروس اسقطوا الكرة في الثامن والعشرين وكنا ننتظر مخابرة من المستشارية . »

كان هتلر قابعاً في ملجأه يقضي آخر ايامه . وما اتيح لاحد خارج هذا الملجأ ان يسمع ذاك الصوت المدوي الذي هزّ اوروبا وروّع العالم باسره . وقد استطاع رجل ان يخرج من جحيم برلين ويلحق بكايتل وهو جنرال الجو غريم الذي بترت ساقه شظية اصابته بينما كانت طائرته تقلع من مهبط براندبورغرتور . واخبر كايتل ان الفوهرر وماريشال الرايش اختلفا اذ أن غورنغ لما وصل الى برشتسغادن ابرق الى هتلر قائلاً انه تسلم القيادة العليا وانه سيفاوض للتسليم . فكان جواب الفوهرر تجريده من رتبه بدلاً من اعدامه نظراً لخدماته السابقة . وقد عين غريم قائداً اعلى للسلاح الجوي وسافر الى برشتسغادن حيث توفي بعد ان تلوثت ساقه المبتورة في اثناء الطيران ، فاصيب بالتسمم .

وكان العمل الذي نظمه كايتل لانقاذ برلين مستمراً ، ومضى جيش وينك يهاجم صوب الجنوب الشرقي ، ساعياً الى سد الثغرة التي فتحها الحلفاء بين جيوش هينريشي في الشمال والجيش الالماني التاسع في الجنوب . وكان يتقدم بانتظام تام ، كما اكد كايتل ، واقترب من كرومبراتز وبوتسدام ...

ثم نادى منادٍ بالويل والثبور : وصـــل الروس ! وتراجعت جيوش هينريشي وادرك الالمان اخيراً انهم يُذبحون ذبح النعاج بدون سبب وفي قتال يائس لا فائدة منه . وعزل كايتل الجنرال هينريشي حاذياً حذو سيده هتلر في الطـرد والعزل كأن النهاية لم تدن من الجميع ، من السيد والمسود ، من القائد والجنـدي على السواء ...

قال كايتل : « وحثني جودل على النجاة لان الروس كانوا يقتربون بخطى سريعة . ولكنني انتظرت فـترة اخرى املاً في الاتصال بالفوهرر . ولكننا اضطررنا اخيراً الى الفرار . ونجونا من الروس في آخر لحظة ، وفصلتنا عنهم نصف ساعة او اقل . »

وفي المساء ... في حقل واسع مـــن حقول وارين حيث التجأت فلول القيادة الالمانية العليا ، أحضر ساعٍ الى كايتـــل برقية من هتلر هـذا نصها كما ذكره كايتل نفسه في نورمبرغ : « انا بانتظار النجدة لبرلين . ماذا تفعل جيوش هينريشي ؟ واين هو الجنرال وينك ؟ وماذا حل بالجيش التاسع ؟ وماذا صار اليه امر الهجوم المصفح في شمالي برلين ؟ »

... اسئلة قلقة مستعجلة كانت تقض مضجع الغازي الالماني في ملجأه . وربما كان مستمسكاً بخيوط واهية من امل ... واعـد جودل الجواب على البرقية في الليل وسلمها الى كايتل ، كما قال هذا لقضاة نورمبرغ ، وكان نصها عـــلى ما يذكر كايتل : « انقطعت عنا اخبار الجيش التاسع . يتقدم وينك تقدماً طيباً بجناح قواته الشمالي في جنوبي بوتسدام (وكانت طلائعه قد بلغت

اطراف البحيرات) . اما الهجوم المصفح صوب كرومبراتز فلم يفلح . » وذكر كايتل انه زاد على هذا النص العبارة الآتية : « انا وضباط اركان الحرب ماضون في العمل ليل نهار لتنظيم الجيوش وتعيين اهدافها وتسديد خطواتها . »

ثم انتقلت القيادة الالمانية الشريدة الى مركز بالقرب من لوبيك . وتلقى كايتل برقية جديدة من هتلر يخبره فيها ان احد مساعديه هو في طريقه اليه ليبلغه اوامره ، ولكن هذا الرسول لم يصل قط . وفي التاسع والعشرين من نيسان استدعى الاميرال دونيتز الفيلد ماريشال كايتل واطلعه على برقية من هتلر تعين كايتل خلفاً للفوهرر ...

واخيراً ، في الثلاثين من نيسان ، تلقى الاميرال دونيتز آخر برقية ، يظن كايتل انها من الدكتور غوبلز ، هذا نصها : « مات الفوهرر ! »

فهرس

انتهى طبع هذا الكتاب
على مطابع «الف ليلة وليلة»، بيروت
في ١٥ تموز سنة ١٩٤٧



سلسلة رواية وأدب وتاريخ

تصدرها دار المكشوف تباعاً

تطالع فيها الطرف قصص الحب واروع اخبار العاشقين

صدر منها :

١ – ايلوييز وابيلار للويس الحاج

٢ – باغانيني ساحر النساء لرئيف خوري

يصدر تباعاً :

– بودلير في حياته الغرامية

– ميسالين ، الامبراطورة المتهتكة

– ديك الجن ، الحب المفترس

– ادغار بو والنساء

– غوتي في شيخوخته الخضراء

●

ثمن النسخة ١٥٠ قرشاً لبنانياً

متعهد التوزيع : شركة فرج الله وحتي

تطلب في مصر من مكتب الكشاف للنشر ٣ ، شارع فاروق – شقة ٣ ، القاهرة

وفي العراق من المكتبة العصرية – بغداد

الثمن ٢٠٠ قرش لبناني